معرفة القرآن

آية العصر الشهيد
الشيخ مرتضى مطهري

دار التعارف للمطبوعات

مُرتضى مُطهّري

معرفة القرآن

جعفر صادق الخليلي

دار التعارف للمطبوعات
بيروت - لبنان

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ

« أوصي الطلبة الجامعيين الأعزاء ، والطبقة المثقفة المتنورة الملتزمة ألّا يدعوا الدسائس غير الاسلامية تنسيهم مطالعة كتب هذا الاستاذ العزيز » .

« الإمام الخميني »

كلمة المترجم

كثيراً ما كنت أجد عناء ، وأنا بعد شاب يافع ، في مطالعة كتب التفسير ، وتاريخ الإسلام والسير وفهمها ، بسبب صعوبة اللغة ، فكنت أجدني مضطراً إلى أن أتركها جانباً على مضض ، بالرغم من شغفي وولعي بالاستزادة من تلك المواضيع . وكان معي جمع من اصحابي لا يقلون عني ضيقاً بضعف إدراكنا للغة تلك الكتب التي كانوا يصفونها بالكتب الصفر .

بل لقد خاب ظننا حتى في خطبائنا الذين كان معظمهم يردد ما كان في بطون تلك الكتب الصفر نفسها ، دون أن يحاول التجديد فيها ، وتقريبها الى الأذهان ، وتبسيط لغتها ، لتشويق الناس إلى سماعها . كان الناس قد حفظوا عن الخطباء كل ما في « مقتل ابي مخنف » ، ويرددون معهم قصائد رثاء الحسين (عليه السلام) بالقريض وبالعامية ، ويروون كل رواياتهم وقصصهم ، ويتباكون ، لا تغيير ولا تبدل .

ثم سمعنا يوماً ان أحد مشاهير الخطباء الايرانيين قد قدم الى النجف الأشرف وانه سوف يخطب في جامع الهندي بضع ليال . كان ذلك قبل ثلاثين ونيف من السنين ، وكان اسم الخطيب ، اذا لم تخني الذاكرة ، الشيخ الطبسي (رحمه الله حياً وميتاً). وحضرت مجلسه مع آلاف غيري حتى اكتظ بهم المسجد على سعته .

وما انتهى من خطبته في الليلة الأولى ، حتى شعرت أن هذا ما كان ينقصنا ، وما نفتقر اليه نحن الشباب الذين كنا نريد أن نبدأ الفهم من البداية وبشيء من التجديد . لقد فسر لنا الشيخ الطبسي بعض الآيات الكريمة من القرآن المجيد ، وكان تفسيراً مزيجاً من التاريخ ، والفلسفة ، والمنطق ، والحديث ، والروايات المنقولة عن الأئمة (عليهم السلام) ، وحتى النكتة والنادرة (حدث في ليلة حارة ان فك الشيخ الطبسي حزامه ، وراح يمسح به العرق عن رأسه ووجهه ، ثم اعتذر عن ذلك بقوله إن حزامه أشبه بعصا موسى ، فهو حزام يوماً ، وعمامة يوماً آخر ، ومنديل لتجفيف العرق ، وسفرة يتناول عليها الطعام احياناً اخرى) .

وإذ عاد الرجل بعد تلك الليالي إلى بلده ، عدنا نحن نجتر ذكرياتنا منه ، وقد احسسنا أن الفراغ الذي

تركه اخطر بكثير مما كنا نظن ، فقد افتقدنا اسلوبه الجديد ، وبساطة عرضه ، وسعة اطلاعه ولم ينفع معنا ما أخذ يردنا بعد ذلك من مصر ولبنان من الكتب الجديدة لكتاب افاضل . صحيح انها كانت كتباً عظيمةً رائعةً ، إلا أنها كانت قد كتب للتاريخ ، وللنخبة من الناس ، وليس للناس العاديين من الطبقات المتوسطة .

لقد كانت السنوات التي اعقبت الحرب العالمية الثانية سنوات حرب اعنف وأشد ، حرب العقائد والأفكار والايديولوجيات التي وفدت على الشرق مع ماورد من الغرب من بضائع وعادات . إلا أنها كانت حرباً غير متكافئة ، وقودها الطبقة الكادحة ، والشباب المثقف الأعزل ، الذي لولا تأصل فطرته الدينية وتشبثه بمبادئه الأصيلة ، لجرفه التيار العارم . ومع ذلك فالخسائر لم تكن قليلة ، فقد اخذ التيار الكثير ، ولقد كان بالإمكان تقليل الخسائر إلى ادنى حد ، لو ان المدافعين كانوا قد تسلحوا بمثل ما تسلح به رجال الدين الأفاضل في ايران ، فهم إلى جانب تضلعهم في العلوم الدينية ، درسوا العلوم الحديثة ، واخذوا من لغة العصر جانباً مهماً اعانهم على إيصال الأسس التي بني عليها الإسلام إلى قلوب الكثرة الكاثرة من عموم أبناء الشعب ، بلغة سهلة ، ومنطق سليم ، وقرع الحجة بالحجة ، ودحض المفتريات بالأدلة

الـدامغة ، ممـا حفظ لـلأمـة الاسـلاميـة في ايـران وحـدتهـا وتوحدها ، وتمسكها بعلمائها الأعلام .

واليوم ، وانا نزيل طهـران ، أجدني محـاطاً بحشـدٍ من خيـرة العلماء المتنـورين المجـاهـدين ، وبفيض من الكتب القيمة التي تعين عامة الناس على التمسك بالإسلام ديناً ، وخلقاً ، وسلوكاً .

ولقـد اتـاح لي حسن الحظ ان أقـوم بجـولـة مـاتعـة في مجموعة مؤلفـات الأستاذ الشهيـد مرتضى مـطهري ، اطـاعة لوصية امام الأمة ، وإذا بي استرجع ذكرى الأيام الخـوالي ، وإذا بالكلمة تند من فمي « وجدته » .

نعم وجـدته ، فهـذا انسان عـرف نفسه ، وعـرف بني جلدتـه ، وعرف ما ينبغي لهم ، فقـدمـه في تـدرج سليم ، وفي لغـة سائغـة ، خطبـاً ، ومحـاضـرات ، وكتبـاً ، بخبـرة الـطبيب النـطاسي العـارف بـالـداء ، والعـارف بـالـدواء ، فيصفـه بنيّة خـالصة تقـرباً إلى الله تعـالى . فما كـان مني إلا أن عقـدت العـزم ، بعـون الله عـلى أن أقـدم هـذه الكتب النفيسـة إلى أبناء اللغـة العربيـة ، تلك اللغة الشـريفة التي مـا فتيء شهيدنـا الاستاذ مـطهري ينـادي في كتبـه بضـرورة تعلمها وتعميمها حتى في المدارس الإبتدائية .

وإنـي إذ اضـع اليوم بـين يـدي القـاريء العـربي هـذا الكتـاب الأول من سلسلة « القرآن » ليحـدوني الأمل في ان يمد الله تعالى في توفيقي ، فاقدم ما بقي من كتبـه ودراساتـه وبحـوثه ،فأكون قد حققت بذلك مـا كـان ينبغي ان يتحقق من قبل لسد الفـراغ الذي مـا زلنا نحسـه في نفوس شبيبتنـا وطلابنا حتى اليوم .

ولا يسعني هنا إلا أن اسجل تقديري وشكري لمؤسسة « بنيـاد بعثت » التي كـانت سببـاً في مـا حبـاني بـه الله من توفيق ، والله لا يضيع اجر من أحسن عملاً .

جعفر صادق الخليلي

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

« معرفة القرآن » . سلسلة من الخطب ، كان الأستاذ الشهيد مرتضى مطهري يلقيها في جلساته الأسبوعية التي كان يعقدها في طهران .

كان الاستاذ مطهري خلال الخمس والعشرين سنة من إقامته في طهران ، يعقد جلسات متنوعة مع مختلف الطبقات ، أسبوعية ، أو شهرية ، أتت أكلها ثمراً يانعاً . ومن جملة تلك الجلسات ، كانت جلسته الأسبوعية لتفسير القرآن ، والتي كان يحضرها العامة من أبناء الشعب .

ولا شك في إنه لو كان الاستاذ الشهيد قد ألقاها في مجمع علمي ، بما كان لديه من إحاطة شاملة بالعلوم الاسلامية ، وبما امتاز به من دقة النظر ، ومن عشق عميق

للقرآن ، لكان لتفسيره شأن آخر . و لكن بالنظر إلى طبيعة تكوين المجتمع العلمي ، خليق بنا أن نقول ان الاستاذ لم يكن يرمي إلّا إلى أن يتعرف العامة من المستمعين على القرآن الكريم .

لا نعلم بالضبط في أية سنة بدأ الاستاذ بهذه البحوث ، ولا من أي جزء من القرآن بدأها ، ولكن بعض القرائن تدل على أنه قد بدأ بسورة مريم حتى نهاية القرآن ، ثم عاد من بداية القرآن حتى الآية الثالثة والعشرين من سورة البقرة .

على كل حال ، إن ما هو موجود بين أيدينا واستخرجناه من أشرطة التسجيل ، يشمل الجزء ٢٩ و ٣٠ من القرآن (مع فِقدان بعض السور) وتفسير سورة الفاتحة والبقرة ، بالاضافة الى ما ورد في هذه المجموعة . ولكننا نرى أنها ربما تكون قد بحثت بعد سنوات من تسجيل الجزءين ٢٩ و ٣٠ إذ إن هذا القسم يحتوي على وجهات نظر جديدة .

كانت هذه البحوث قد بدأت في فترة أخذت فيه بعض الجهات المنحرفة والمدعية بتفسير القرآن تفسيراً يتماشى مع ميولها وأذواقها ، ومع أسس المادية . ولعل الاستاذ الشهيد مطهري هو أوّل من تنبه إلى ما يجري

واكتشف مواضع الانحراف، فدق ناقوس الخطر بشدة ، وراح يكتب ويخطب كلما وجد فرصة مناسبة ، يكشف فيها ذلك الأعوجاج والانحراف . ومن ذلك هذه التفاسير القرآنية التي كان يرد بها على تخرصاتهم ، ويدافع بها عن الحقائق القرآنية دفاع المستميت ، حتى دفع في النهاية حياته ثمناً لذلك .

وفي السنوات الأخيرة من حياته ، كثيراً ما طولب الأستاذ بتدوين هذه البحوث وطبعها ونشرها ، بعد أن كانت مسجلة على أشرطة التسجيل ، لكي تكون في متناول الجميع . وبقي الأستاذ ينتظر الفرصة المناسبة ، إلا إنه اضطر أخيراً إلى أن يعهد إلى أحد أصدقائه بمهمة إعداد تلك البحوث وتحضيرها للنشر .

لقد بوشر في العمل بتفسير سورة الفاتحة ، وبعض من سورة البقرة ، تحت نظر الأستاذ الذي أجرى عليها بعض التعديلات والأضافات ، قبل أن يقع له الحادث المفجع . فتوقف كل شيء عدا تفسير الجزءين ٢٩ و ٣٠ من القرآن ، اللذين أعدا للنشر بعد حذف الجمل المتكررة المألوفة في الخطب .

كان الأستاذ الشهيد قد بدأ سنة ١٣٥٢ هـ . ش بإلقاء سلسلة من المحاضرات في « كلية صناعة شريف » بعنوان

« معرفة القرآن » ، على أن تكون مدخلاً لسلسلة من البحوث العقائدية العميقة الرئيسة حول معارف القرآن ، ولكنها توقفت على إثر اضرابات الطلبة في تلك السنة ، وقيام الحرس المأجور بمهاجمة قاعات الدرس ، وتعطيل الدراسة في الجامعة . كل الذي بقي ذكرى من تلك المحاضرات خمس خطب ، أعدت وهيئت لتكون مدخلاً إلى تفسير القرآن المدرج في هذا الكتاب ، ونشر كجزء أول له .

من المأمّل أن تكون هذه المجموعة ، مثل باقي آثار الأستاذ الشهيد مرتضى مطهري القيمة والتي تعتبر فريدة في بابها ، أو قليلاً نظيرها ، موضع تقدير القراء وفائدتهم .

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

معرفة القرآن :

إن معرفة القرآن لكل فـرد عالم بـاعتباره عـالماً ، ولكـل فـرد مؤمن باعتبـاره مؤمناً ، أمـر ضروري وواجب . إلا أن ضـرورة معـرفـة القـرآن لعلماء النفس ولعلماء الاجتمـاع ، تتـأتى من حقيقـة أن هـذا الكتـاب كـان ذا تـأثـير عـلى المجتمعات الاسلاميـة ، بل وفي مصـير المجتمع البشري برمته

إن نـظرة إلى التاريخ ، تؤيد القـول بـأنـه لم يكن لأي كتـاب ما كـان للقـرآن من الأثـر في المجتمعـات الانسـانيـة والحياة البشرية[1] . ولهذا يدخـل القرآن عنـوة إلى ميدان علم

(١) امـا من حيث اتجاه الأثـر ، وهل كـان نحو تغيـير سـير التـاريـخ باتجاه سعادة البشر ورفاههم ، أم بـاتجاه التفسخ والانحطاط ، أو انه بسبب هذا الكتاب ظهرت في التاريخ وثبـة وحركـة . فسرت في عـروق المجتمعات البشـرية دمـاء جديـدة ، أو انـه العكس . ذلك موضوع خارج عن نطاق هذا البحث .

الاجتماع ، ويصبح جزءاً من مواضيع بحث هذا العلم . وهذا يعني أنّ إجراء أية دراسة أو تحقيق حول تاريخ العالم خلال الأربعة عشر قرناً الماضيات ، ومعرفة المجتمعات الاسلامية على وجه الخصوص ، لا يمكن ان يتيسر قبل أن نعرف القرآن .

أما ضرورة معرفة القرآن للمسلم المؤمن ، فناشئة من كونه أصل إيمان المسلم ، ومنبع دينه وأساس فكره ، فما يمنح حياة المسلم حرارتها ومعناها وحرمتها وروحها إنما هو القرآن .

والقرآن ليس كباقي الكتب الدينية التي تطرح سلسلة من المسائل الغامضة فيما يختص بالله والخليقة والتكوين ، ومن ثم يتقدم بسلسلة من المواعظ الأخلاقية الساذجة فحسب ، بحيث أن المؤمنين لا يرون مندوحة عن اللجوء إلى مصادر أخرى يستقون منها القوانين والأفكار .

إن القرآن يبين أصول المعتقدات والأفكار والآراء اللازمة للإنسان كفرد « مؤمن » وذي عقيدة ، وكذلك يضع أصول التربية والأخلاق والنظام الأجتماعي والأسري ، ولم يترك على عاتق السنة أو الاجتهاد سوى ما يتطلبه التوضيح ، والتفسير ، والتشريح ، والاجتهاد احياناً ، وتطبيق الأصول على الفروع لذلك فكل رجوع الى أي

مصدر آخر ، يقتضي أولاً الرجوع إلى القرآن ومعرفته . إذ أن القرآن هو المقياس والمعيار لكل المنابع الأخرى . فالحديث والسنة علينا نقيسهما بمعيار القرآن لكي نرى إن كانا يطابقان القرآن فنتقبلهما وإلا فلا .

إن أهم مصادرنا المقدسة - بعد القرآن - في الحديث هي « الكتب الأربعة » . وهي : « الكافي » و « من لا يحضره الفقيه » و « التهذيب » و « الإستبصار » ، وفي الخطب « نهج البلاغة » ، وفي الأدعية « الصحيفة السجادية » . إلا إنها جميعاً فروع من القرآن ، وليست لها قطعية بت القرآن . أي إن إعتبارنا لحديث الكافي ، يعتمد على مقدار تطابقه مع القرآن وتعليماته . وعلى ألا يكون بينهما اختلاف . كان الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة الأطهار يقولون : اعرضوا أقوالنا على القرآن ، فما لم ينطبق عليه منها ، فاعلموا إنه موضوع ومختلَق ومنسوب إلينا . فنحن لا نقول ما يخالف القرآن .

انواع معرفة القرآن :

أما وقد شخصنا ضرورة معرفة القرآن ، فقد بقي أن نعرف طرق معرفة هذا الكتاب . إن لمعرفة كل كتاب ودراسته ، عموماً طرقاً ثلاثاً :

الأول : المعرفة السندية أو الإنتسابية :

في هذه المرحلة ، نسعى لمعرفة مدى انتساب الكتاب إلى مؤلفه . فلنفترض اننا نريد معرفة ديوان حافظ (الشيرازي) أو خَيّام . إن الخطوة الأولى هي أن نرى إن كان ما يطلق عليه اسم ديوان حافظ كله من نظم حافظ ، أو إن بعضاً منه فقط من نظمه ، وإن بعضه الآخر مضاف إليه . كذلك الأمر بشأن خيام وغيره .

وهنا تبرز قضية تعدد النسخ ، وعلى الأخص أقدمها تاريخاً واكثرها اعتباراً ، فنلاحظ إن أياً من هذه الكتب لا يستغني عن المعرفة والتمحيص . فديوان حافظ الذي طبعه المرحوم القزويني ، إستناداً إلى اكثر النسخ اعتباراً ، يختلف اختلافاً بيناً عن دواوين حافظ المعروفة التي طبعت في ايران أو في بمبي ، والتي يحتفظ بها الناس في دورهم . فالدواوين التي طبعت قبل ٣٠ أو ٤٠ سنة تكاد تبلغ ضعفي حجم الدواوين التي يعتمدها الباحثون اليوم . على الرغم من إننا نجد بين الأشعار التي يعتبرها الباحثون منحولة أبياتاً لا تقل جودة عن شعره الموثوق .

وعندما ننظر إلى الرباعيات المنسوبة إلى خيام نجد ثمة ٢٠٠ رباعية تكاد تكون متقاربة المستوى ولا يتعدى ما

فيهـا من اختـلاف تلك الحـدود المتعـارف عليهـا عنـد الشعـراء . ولكننا كلما تقـدمنـا تـاريخياً مقتـربـين من عصر الخيـام نجد أن مـا لا يشـك في نسبتـه إلى الخيـام من ذلـك العـدد لا يتجاوز عشرين ربـاعيـة . والبـاقي إمـا أن يكـون مشكوكاً في انتسابه إليه ، أو أنه لشعراء آخرين حتماً .

وعليه ، فإن المرحلة الأولى في معرفـة كتاب مـا هي أن نـنظر إذا كان مـا بين أيـدينا يمكن إسنـاده إلى مؤلفه أم لا . وإلى أي مدى يصح ذلك . هل إن مستنـداتنا تؤيـد كل مـا بـين أيـدينـا ، أم أنها تصح عـلى بعض دون بعض ؟ وفي هـذه الحالـة ، ما هي النسبـة المئويـة لصحـة المنسـوب إلى المؤلف ؟ ثم ما دليلنا على صحة الانتسـاب ، أو على الشـك في الانتساب ؟ .

إن القرآن غني عن هذا النوع من المعرفـة ، وهـو ، لهـذا السبب ، كتاب فريد بابـه في العالم القـديم ، فما من كتـاب بين الكتب القـديمة يمكن ان تمـر عليـه قـرون طـويلة ويبقى مـع ذلك لا تنـاله شبهـة أو اعتراضـات من قبيل أن تكـون السورة الفلانية مشكوكٌ فيها ، أو أن الآية الفـلانية مـوجودة في النسخـة الفـلانيـة وغـير مـوجـودة في غيـرها ، ليست مـطروحـة اسـاسـاً . إن القـرآن متقـدم عـلى النسخ وعلم المعـرفـة بـالنسـخ ، فليس ثمـة أدنى شـك في إن الـذي أتى

بجميع تلك الآيات هو محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على اعتبار أنها معجزة ، وأنها كلام الله . وإن أحداً لا يستطيع أن يدعي بوجود نسخة مختلفة من القرآن ، ولا الزعم باحتمال وجودها . ولم يظهر من المستشرقين أحد يحاول تناول القرآن من هذه الناحية ، ليقول إن علينا أن نبحث عن نسخ القرآن القديمة جداً لكي نرى ما فيها وما ليس فيها ولئن كانت كتب مثل التوراة والإنجيل والأفستا ، أو مثل « شاهنامة » فردوسي و « كلستان » سعدي وغيرها تستلزم هذه الطريقة، فإن القرآن غني عن كل ذلك .

في هذا الموضوع سبق أن قلنا إن القرآن متقدم على النسخ والعلم بالنسخ ، فهو فضلاً عن كونه كتاباً مقدساً سماوياً وينظر إليه أتباعه من هذا المنظور ، فإنه أقوى دليل وبرهان على صدق دعوى الرسول وأكبر معجزة من معاجزه .

ثم إن القرآن لم ينزل دفعة واحدة كالتوراة لتظهر عندئذ مشكلة التساؤل عن النسخة الأصلية ، بل تتابع نزول القرآن خلال ثلاث وعشرين سنة . ومنذ اليوم الأول من نزوله أخذ المسلمون يعبون منه مثلما يعب العطشان من ماء الفرات عباً ، فكانوا يستوعبون آياته ويحفظونها في

قلوبهم . حيث كان المجتمع الاسلامي يومئذٍ مجتمعاً بسيطاً وليس عنده كتاب آخر يقرؤه ويحفظه إلى جانب القرآن ، فكان يمتاز بخلو الذهن وقوة الحافظة . كما إن تفشي الأمية بينهم حملهم على أن يتناولوا معلوماتهم ومعارفهم من بين ما يرون ويسمعون .

لذلك فقد ارتسم القرآن على قلوبهم ـ وهو الذي نزل منسجماً مع ما لديهم من عاطفة وإحساس ـ ارتسام النقش على الحجر . ولما كان القرآن عندهم كلام الله ، لا كلام بشر ، فقد راحوا ينظرون اليه بتقديس ، ولا يسمحون بأن يتبدل فيه حرف واحد ولا أن يتغير مكان كلمة واحدة تقديماً وتأخيراً ، بل كانوا لا يفتأون يتلونه ويرتلونه تقرباً إلى الله تعالى . ولا بد ان نذكر ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد انتخب منذ الأيام الأول عدداً من الكتبة عرفوا باسم « كتاب الوحي » . هذه ميزة أخرى تضاف إلى مميزات القرآن لم تكن من نصيب أي كتاب آخر . إذ إن تدوين كلام الله منذ البداية يعتبر من جملة الأسباب الرئيسة في حفظه وصيانته من التحريف .

* * *

إن من المظاهر الأخرى التي كانت سبباً في حسن استقبال الناس للقرآن ، هو جانبه الأدبي والفني الرفيع . . جانب

فصاحته وبلاغته . كانت لقوته الأدبية جاذبية تشد الناس إليه شداً وتحملهم على سرعة استيعابه ، بخلاف ما هو عليه الأمر بشأن كتب الأدب الأخرى ، مثل ديوان حافظ وأشعار مولوي وغيرهما ، فقد كان المولعون بها لا يتحرجون من التلاعب بما فيها لكي يزيدوها اكتمالاً على ما يدعون . إلا أن أحداً لم يجز لنفسه أن يمد يداً في القرآن ، وقد نزل قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لأخَذْنَا مِنْهُ بِاليَمِينِ ثُمَّ لَقَطَّعْنَا الوَتِينَ ﴾[1] .

وآيات غيرها تبين وخامة التقول على الله سبحانه . وعلى ذلك ، وقبل أن يطرأ أي تحريف على هذا الكتاب السماوي ، تواترت آياته حتى بلغت مرحلة لم يعد بالإمكان معها حدوث أي تصحيف أو تحريف أو انكار . ولهذا فلسنا بحاجة إلى أن نبحث هذا الجانب من جوانب القرآن ، كما لا يحتاج ذلك أي خبير متضلع في القرآن . بيد أننا لا بد أن نتطرق إلى نقطة بهذا الخصوص ، وهي إنه على أثر سرعة انتشار الإسلام ودخول الناس فيه أفواجاً ، وبسبب ترامي اطراف بلاد المسلمين وبعدها عن

---

(١) الحاقة ـ آية : ٤٤ ـ ٤٦ .

المدينة المنورة ، مركز الصحابة وحفظة القرآن ، فقد ظهر احتمال وجود خطر يهدد القرآن ، وعلى الأخص في المناطق النائية ، حيث يمكن أن يقوم بعضهم من باب التعمد أو السهو ،بإضافة أو حذف أو تغيير في نسخ القرآن هناك ، غير إن ذكاء المسلمين وحسن تقديرهم للأمور ، حال دون وقوع هذا الإحتمال ، إذ إنهم تنبهوا إلى ذلك مبكراً في النصف الأول من القرن الأول الهجري ،وأدركوا أن عليهم أن يدرأوا خطر أي تغيير متعمد ، أو غير معتمد في القرآن ، فاستفادوا من حفظته ومن الصحابة . وأرسلوا نسخاً مصدقة من المدينة إلى تخوم الإسلام البعيدة ، وبذلك وقفوا بوجه أي تخريب من هذا القبيل ، وعلى الأخص بوجه اليهود الذين كانوا أساتذة فن التزوير والتحريف المشهورين .

الثاني : المعرفة التحليلية :

في هذه المرحلة يكون تحليل الكتاب هو موضع الدراسة ، أي دراسة ما يشتمل عليه الكتاب من مطالب ، وما يقصد إليه من أهداف ، ما هي نظرته إلى الكون ؟ وإلى الإنسان ؟ وإلى المجتمع ؟ ما هي طريقة عرضه لتلك المطالب وأسلوب معالجته إياها ؟ أينطوي على

منظور فلسفي ، أو كما نقول اليوم ، أفيه منظور علمي ؟ أينظر إلى الأمور بعين العارف ، أم أن له أسلوبه الخاص ؟ وثمة سؤال آخر : أيحمل هذا الكتاب رسالة ما موجهة للبشرية ؟ فإذا كان الجواب بالإيجاب ، فما هي تلك الرسالة ؟ .

في الواقع إن المجموعة الأولى من الأسئلة تتعلق بوجهة نظر الكتاب في الكون والإنسان والحياة والموت ، أو بعبارة أشمل تتعلق بوجهة نظره الكونية ، وهو ما يصطلح عليه فلاسفتنا اليوم بحكمته النظرية . أما المجموعة الأخرى من الأسئلة فتتعلق بما إذا كان الكتاب يعرض خطة لمستقبل الإنسان ، وعلى أي طراز يريد أن يبني الإنسان والمجتمع ؟ وهذا ما نطلق عليه اسم : رسالة الكتاب .

على كل حال ، هذا الضرب من المعرفة يخص المحتوى ، ويمكن إخضاع أي كتاب إلى هذه المعرفة سواء أكان كتاب « الشفاء » لابن سينا ، أو ديوان « گلستان » لسعدي . وقد نجد كتاباً ليس فيه (منظور) ولا (رسالة) أو قد يكون له (منظور) بغير رسالة ، أو قد يضمهما كليهما .

* * *

امـا من حيث معرفـة القرآن معـرفـة تحليليـة ، فينبغي علينا أن نعرف المسـائل التي يتنـاولها وكيفيـة تناولـه إياهـا ، وكيف تكون استدلالاته ومجادلاته في مختلف المواضيع .

وإذا كان القرآن حارس الإيمان ومحافظاً له ، ورسالته رسالة الايمان ، فهل ينظر إلى العقل بعين الرقيب المنافس محاولاً صد هجماته ، أو انه بالعكس ينظر دائماً إلى العقل بعين الحامي والمدافع محاولاً الاستعانة به ؟ هذه الأسئلة ، ومئات غيرها مما يطرح خلال المعرفة التحليلية ، هي التي تقودنا إلى إدراك ماهية القرآن .

الثالث : معرفة الأصل :

في هـذه المرحلة ، وبعـد الاطمئنـان إلى نسبـة الكتـاب إلى مؤلفـه ، وبعد التحليـل التـام لمحتـواه ، علينـا أن نبـدأ البحث لنعـرف إن كانت محتـويـات الكتـاب ومـطالبيـه من إبـداعـات فكـر المؤلف نفسـه ، أم إنها مـدينـة إلى افكـار الآخـرين . ففيما يتعلق بـديـوان حـافظ ، مثلاً ، وبعـد الإنتهاء من مرحلتي المعـرفة المستنـدية والمعـرفة التحليليـة ، علينا ان نتساءل إن كانت هذه الأفكـار والآراء التي أفرغهـا حـافظ في قوالب الكلمـات والجمل والأبيـات ، وعبـر عنهـا بلغتـه الخاصة ، قـد ابتدعهـا بنفسه ، أم إن ابـوّته لهـا إنمـا

تقتصر على الألفاظ والكلمات وجمالها الفني فحسب ، وإن الأفكار والآراء تخص غيره من الناس ؟ وبعبارة اخرى إننا بعد ان نتأكد من اصالة حافظ الفنية ،ينبغي أن نتأكد من اصالته الفكرية ايضاً[1] .

---

(١) إذ يمكن أن يكون حافظ مجرد فنان لا مفكراً ولا عالماً ، ولكنه ايضاً يمكن يكون في الوقت نفسه فناناًوعالماً معاً . إنما الذي نسلم به هو أن حافظاً كان عالماً قبل أن يكون شاعراً ، وكان عارفاً بالمفكرين الآخرين عن طريق كتبهم ، كالشعراء والأدباء والمفسرين والفقهاء . والمتصوفين على وجه الخصوص . ولقد كان أكثر علمه بهم عن طريق اساتذته . إنما نحن اليوم نعرف حافظاً شاعراً اكثر من كونه عالماً ، بينما كان في أيامه عالماً وإن نظم الشعر أحياناً ، ففي الكتب التي تم تأليفها في زمانه وفيها ذكر له ، نجده موصوفاً بما يوصف به العلماء لا الشعراء .

فإذا كان هذا العالم واقفاً على آداب زمانه ، ومطلعاً على سير العلماء وسلوكهم ، ومتعمقاً في معرفة متصوفة عصره ، بحيث إنه استطاع ان يضع كل ذلك في الشعر بأفضل مما يستطيعه أي شاعر آخر ، فهل كان عرضه لتلك الأفكار متأثراً بأحد ممن سبقه ؟ أم إن ذلك كان من ابتداعه وابتكاره ؟ وهل إن لمحي الدين الأندلسي ، الذي يعد أبا التصوف الاسلامي ، أي أثر على حافظ ؟ أفهل يستبعد أن يكون لابن الفارض المصري - وهو اسبق من حافظ ، ولا يقل مكانة في الأدب الصوفي العربي عن مكانة حافظ في الأدب الفارسي - تأثيره في التكوين الشكلي لأفكار حافظ ؟ إن وظيفة (معرفة الأصل) هي البحث في أمثال هذه المسائل وإيجاد الإجابة عليها .

هـذا النوع من المعـرفة بخصـوص حـافظ أو أي مؤلف آخر هو معـرفة أصـول أفكار المؤلف وآرائـه . وهذه المعـرفة فـرع يتفـرع من المعـرفـة التحليليـة . أي إننـا يجب أولاً أن نعـرف محتـوى أفكـار المؤلف بـدقـة ، ومن ثم نتـوجـه إلى معـرفة أصـوله ، وبغـير هذه الـطريقة يكـون حاصـل عملنا مشابهاً لما يقوم به بعض المؤلفين في كتابة تاريخ العلوم بدون أن يكون لهم أي علم بها أو مثل بعض المؤلفين الذين يكتبون في الفلسفة ، كأن يكتبوا عن ابن سينا وأرسطو ويحاولون إيجاد ما يتشابهان فيه وما يختلفان ، ولكنهم مع الأسف لا يعرفون ابن سينا ولا أرسطو .

إنهم مـا إن يجدوا عنـدهمـا بعض الألفـاظ المتشـابهـة ، حتى يأخذوا بإصدار الأحكـام ، مع إن عليهم عنـد المقارنـة أن يتعمقـوا في فهم الفكـرة ، وإن التعمق في إدراك عـمق افكـار اشخـاص مثـل ابن سينـا وأرسـطو ليستغـرق عمـراً بـأكمله ، وليس مـا يقـال غـير ذلـك سـوى تخمـين وخبط عشواء .

عند بحث القرآن ومعرفته ، وبعد أن نكون قد أنجزنا مـطالعتنا التحليليـة ، يأتي دور المقـارنة والمعـرفة التـاريخية . وهـذا يعني إن علينا أن نقـارن القرآن بكـل محتـويـاتـه مـع كتب أخـرى كـانت مـوجـودة في عصـره ، وعـلى الأخص الكتب الدينية . ولأجراء هذه المقـارنة لا بـد من توفـر جميع

الشروط ، مثل مذى ارتباط شبه الجزيرة العربية بالمناطق الأخرى ، ونسبة الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة يومئذ في مكة . . . الخ ، ثم نقوم بالتقويم والقدير .

ترى هل كل ما وجد في القرآن موجود ايضاً في كتب اخرى ؟ فإذا وجد ، فما هي نسبة وجوده ؟ وهل إن المطالب الموجودة في الكتب الأخرى تتخذ شكل الاقتباس أم إنها مستقلة ، أم إنها لا تعدو أن تكون مجرد تصحيحات وتوضيحات لما قد يكون فيها من تحريف ؟ .

اصالات القرآن الثلاث :

عندما نقرأ عن القرآن تتضح لنا « اصالات القرآن الثلاث » :

أولاها : اصالة الانتساب ، أي إننا بغير أن يخامرنا ادنى شك، أو أن نحتاج إلى دراسة النسخ القديمة ، نكون واثقين بأن ما يقرأ اليوم بإسم القرآن المجيد ، هو الكتاب عينه الذي نزل على محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .

والأصالة الثانية : هي اصالة المحتوى ، أي إن المعارف القرآنية ليست ملتقطة ولا مقتبسة ، بل هي

مبتكرة . والتحقيق في هذا الجانب تتكفل به المعرفة التحليلية .

والأصالة الثالثة : هي الأصالة الإلهية ، أي إن هذه المعارف قد فاضت مما وراء أفق الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الذهني والفكري ، وإنه لم يكن سوى ناقل هذا الوحي ومبلغ هذه الرسالة ، وهذا ما تتكفل به معرفة أصل القرآن .

إن معرفة الأصل ، أو بعبارة أخرى معرفة إصالة المعارف القرآنية ، مبنية على النوع الثاني من المعرفة . ولذلك فإننا سنبدأ من المعرفة التحليلية ، أي أننا سنبدأ ببحث محتويات القرآن ، وماهية المسائل المطروحة فيه ، والمسائل التي تنال حظاً أوفر من التوكيد ، وطريقة عرض تلك المسائل . فإذا استطعنا في المعرفة التحليلية أن نفي تلك المسائل والمطالب حقها ، وأن نزداد معرفة بالمعارف القرآنية ، نكون ، كما قلنا ، وصلنا إلى اصالة هي اهم اصالات القرآن ، وهي (الأصالة الإلهية) أي كون القرآن معجزة .

شروط معرفة القرآن :

يتطلب التعرف على القرآن بعض المقدمات التي سوف

نوردها فيما يلي :

إن من أهم الشروط اللازمة للتعرف على القرآن هو معرفة اللغة العربية ، فبمثلما يتطلب التعرف على حافظ وسعدي معرفة اللغة الفارسية ، كذلك لا يمكن التعرف على القرآن المكتوب باللغة العربية إلّا بمعرفة اللغة العربية . والشرط الآخر هو معرفة تاريخ الإسلام ، ذلك لأن القرآن لم ينزل دفعة واحدة مثل التوراة والانجيل . وإنما استغرق نزوله ثلاثاً وعشرين سنة من حياة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) . من بعثته حتى وفاته ، في غضون سنوات ثائرة من تاريخ الإسلام . ولذلك فإن لآيات القرآن (شأن نزول) . ولا يعني هذا إن معنى الآية محدد بحدودها ، بل على العكس من ذلك ، إذ إن معرفة شأن النزول تساعد كثيراً على توضيح مضمون الآية وتمهد السبيل لفهمها . والشرط الثالث هو معرفة اقوال الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ إنه ، حسبما ورد في القرآن ، المفسر الأول لهذا الكتاب :

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ . . . ﴾[1] .

---

(١) النحل ـ آية : ٤٤ .

وكما في آية اخرى :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ويُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُم الكِتَابَ والحِكْمَةَ ﴾[1] .

فالرسول ، بحسب القرآن ، هو المبين لهذا الكتاب والمفسر له ، وكل ما وصلنا منه يعيننا على تفسير القرآن . أما نحن الشيعة المعتقدين بالأئمة الأطهار . والمؤمنين بأن ما كان عند الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من الله قد نقله إلى أوصيائه الأكرمين ، نرى الروايات الموثوقة التي وصلتنا منهم لها ما للروايات الموثوقة التي وصلتنا من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه . ولذلك فإن الموثوق به مما يروى عن الأئمة يعيننا على التعرف على القرآن كذلك .

ثمة نقطة مهمة تجب ملاحظتها عند دراسة القرآن والبحث فيه ، وهي إن مجموع آيات القرآن تؤلف بنياناً متماسك الأجزاء ، أي إننا لو أخذنا آية واحدة وقلنا إننا نريد أن نفهم هذه الآية وحدها ، فلن نكون قد اتخذنا سبيلاً سوياً . لا شك إن فهمنا لتلك الآية قد يكون صحيحاً ، ولكنه عمل غير سليم ، فالقرآن يفسر بعضه

(١) الجمعة ـ آية : ٢ .

بعضاً ، وهذا ما أيده الأئمة الأطهار حسبما ورد على لسان بعض كبار المفسرين . إن للقرآن طريقة خاصة في بيان المسائل ، ففي كثير من الأحيان يكون للآية إذا أخذت منفردة مفهوماً يختلف كل الإختلاف عن مفهومها إذا ما وضعت إلى جنب الآيات المشابهة لها في المضمون .

كمثال على طريقة القرآن الخاصة ، يمكن أن نشير إلى آياته المحكمات والمتشابهات والتي يحمل العامة عنها تصوراً معيناً ، ويظن بعض ان المحكمات هي تلك الآيات التي ترد فيها المسائل بصورة صريحة وبسيطة ، والمتشابهات ، على العكس ، هي التي ترد فيها المواضيع بصورة ألغاز ومعميات ورموز . وعلى هذا يحق للناس أن يقتصروا على التدبر في محكمات آياته الصريحة ، ظانين إن متشابهاته عصية على الفهم والتدبر .

وهنا يبرز هذا السؤال : ما هي فلسفة وجود الآيات المتشابهات ؟ لماذا يعرض القرآن آيات غير قابلة للفهم ؟ إن الجواب إجمالاً هو إنه لا المحكمات صريحة في معناها ، ولا المتشابهات غامضة المعنى . إن الغامضة من التعابير ، هي ما يكون معناها مبهماً ومجملاً وفي كلمات لا تفيد المعنى بصورة مستقيمة . فمثلاً عندما كافأ السلطان محمود (الغزنوي) فردوسي الشاعر مكافأة ضئيلة على الرغم مما

عـاناه من تعب ، فـإنه رفض صلة السلطان ، وأخـذ يهجوه في شعـره ، متهـماً إيـاه بـالبخـل والإمسـاك ، وكـان بعض هجوه صريحاً ، وبعضه الآخر مبهماً .

من ذلك قوله ما معنـاه : « لو كـانت ام السلطان ملكة لبلغ ذهبي وفضتي ركبتي »[1] .

ويقـول في مكـان آخـر : « إن كف السلطان محمـود ، فاتح البلاد ، عادت تسعة في تسعة وثـلاثة في أربعـة »[2] .

فما معنى هذا ؟ .

هنا يستخدم فـردوسي تعبيراً غـامضاً أشبـه باللُغـز وهو يـقـصـد أن يـقـول : ٩ × ٩ = ٨١ و٣ × ٤ = ١٢ والمجمـوع = ٩٣ وهـذا يعني إن كف السلطان محمـود تشبـه الـرقم ٩٣ ، أي إن كفه مضمـومة ضـماً شـديـداً بـاستثناء الإبهـام الـذي يكـون مـع السبـابـة الـرقم ٩ . ويؤلف مـع الأصابع الثـلاثة الأخـرى الرقم ٩٢ . وبهـذا يشير فـردوسي إلى خسة السلطان محمود .

---

(١) اگر مادر شاه بانو بدا
مرا سيم وزر تابه زانو بدى

(٢) كف شاه محمود كشور كَشاي
نه أندر نه آمد سه اندر چهار

والآن، هل في القرآن آيات ذوات الغاز؟ إن هذا يتنافى مع نصوص القرآن التي تقول إن القرآن كتاب ينير الطريق ، ويفهمه كل الناس ، وآياته نور وهداية . إن السر في ذلك هو أن بعض المسائل المطروحة في القرآن تدور حول ما وراء الطبيعة والأمور الغيبية . وهي أمور غير قابلة للإفصاح عنها بالألفاظ .

وكما يقول الشيخ الشبستري :

« لا يمكن ضم المعاني في الحرف ، بمثلما لا يمكن ضم البحر اللامتناهي في اناء »[١] .

ولكن لما كانت لغة القرآن هي لغة الناس ذاتها . فكان لا بد لتلك المواضيع الدقيقة المعنوية أن ترتدي تعابير مما يستعملها الناس للمواضيع المادية . ولغرض الحيلولة دون وقوع سوء فهم . فقد طرحت بعض الآيات بحيث لا تكون مندوحة عن الرجوع إلى آيات اخرى للاستعانة بها في تفسيرها . وما من سبيل غير هذا في ذلك . مثلاً ، إن القرآن أراد أن يتطرق إلى حقيقة « رؤية الله قلبياً » . أي إن الإنسان قادر على أن يرى الله بقلبه .

---

(١) معانى هرگز أندر حرف نايد
كه بحر بيكران در ظرف نايد

هذه الحقيقة وردت هكذا :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرة. إلىٰ رَبِّها نَاظِرةٌ ﴾[1] .

فـالقرآن يستخـدم هنا لفظة النظر لعـدم وجود كلمـة اخـرى تناسب المقصـود . ولكنـه لكي يحـول دون حـدوث أي سوء فهو يقول في مكان آخر :

﴿ لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ﴾[2] .

فلا شك في إن القاريء سوف ينتبـه . على الـرغم من التشـابه اللفـظي . أن ليس بين هـذين الأمـرين عـلاقـة . وإنهما منفصلان كـل الانفصـال . ولئـلا تختلط تلك المعـاني الرفيعة الشامخة بالمعاني المادية . يطلب القرآن منـا أن نرجـع بالمتشابهات على المحكمات :

﴿ هُوَ الَّذِيْ أَنْـزَلَ عَلَيْكَ الكِتَـابَ مِنْهُ آيَـاتٌ مُحْكَمَاتٌ هَنَّ أُمُّ الكِتَابِ ﴾[3] .

والمـحكـمـــات هن الـلواتي لا يمكـن اخـــراجهـن عن معـانيهن ، ولا أن نستنتـج منهن معـاني اخـرى . تلك هي

---

(١) القيامة ـ آية : ٢٢ و٢٣ .

(٢) الأنعام ـ آية :١٠٣ .

(٣) آل عمران ـ آية : ٧ .

الآيات الأم . فكما إن الطفل يرجع إلى أمه ، وهي مرجع طفلها ـ أو كما إن أم القرى هي مرجع المدن الصغرى ، كذلك تكون الآيات المحكمات مراجع للآيات المتشابهات . فالمتشابهات للفهم والتدبر ، ولكن بعد الرجوع إلى المحكمات ، فبغير عون الآيات الأم لا يكون ما تأخذه من الآيات المتشابهات موضع اعتبار .

ما معنى معرفة القرآن ؟ :

عند تحليل القرآن ومعرفة محتواه ، يتبادر إلى الذهن السؤال التالي : أيمكن تعرف القرآن ودراسته أصلاً ؟ أيمكننا أن نتدبر القرآن ونفكر في آياته . أم إنه لم ينزل لكي يتعرفه الناس ، بل نزل لمجرد التلاوة والقراءة ، ولنيل الثواب والتبرك والتيمن ليس غير ؟ قد يبدو لأول وهلة أن لا داعي لأيراد مثل هذا السؤال ، وإنه لا شك في أن القرآن نزل لكي يعرف . ولكن بما أنه قد ظهرت في دنيا الإسلام أمور يؤسف لها بحيث ما زالت ذات جذور لأفكار منحطة وخطيرة في مجتمعنا ، فقد رأينا إن علينا أن نورد ما يوضح هذا الجانب من الأمور .

قبل ثلاثة قرون أو أربعة ، ظهر من بين علماء الشيعة افراد اعتقدوا إن القرآن ليس حجة ، ورفظوا القبول بثلاثة

من أصـــول الفقـه الأربعــة التي كـان علماء الإســلام قــد اعتبـروهـا معيـاراً لمعـرفـة المسـائــل الإسـلاميــة ، وهي : القرآن ، والسنة ، والعقل ، والإجماع .

ففيما يتعلق بالإجماع كانوا يقولـون : إن هذا من تقـاليد أهل السنة فلا يمكن اتّباعه .

وبخصوص العقل كـانوا يقـولون : كيف يجـوز اعتماد العقل وهو كثير الأخطاء .

أمـا عن القـرآن فكـانـوا يـدعـون من بـــاب التقـديـر والاحـتـرام : إنـه اكبــر من أن نتمكن نحن التـافهــين من البشر أن نطالعه ونتفكـر فيـه ، بــل إن الـرســول والأئمـة وحـــدهم الـــذين يحق لهم أن يـتلوا آيـــاتـــه ، وهـؤلاء هم الأخباريون . لذلك كان مرجـع الإخباريـين الوحيـد الجائـز هـو الأحاديث والأخبـار . وقـد ينتـابكم العجب إذا علمتم إن في بعض التفـاسير التي كتبهـا هؤلاء ، كـانـوا يـدرجـون الآيـة إذا كـان لهـا ثمـة حـديث ، ويغفلون إدراجهـا إذا لم يكن لهـا حديث ، وكـأنها ليست من القرآن . هـذا لون من الظلم والجفوة بحق القرآن .

ومن البديهي إن مجتمعاً يهمـل كتابـه السماوي . كتـاباً كـالقرآن ، بهـذه الصورة ويـطرحـه في زاويـة النسيـان ، لا يمكن أن يكون سائراً على هدي القرآن .

كان هناك غير هؤلاء جماعات أخرى أيضاً ، اعتقدت بضرورة إبعاد القرآن عن أيدي العامة . ومن هؤلاء الأشاعرة الذين كانوا يعتقدون بأن معرفة القرآن لا تعني تدبر آياته ، بل تعني فهم معانيها الحرفية ، أي إن علينا أن نقبل بالمعنى الظاهر للآيات ، ولا شأن لنا بعد ذلك بالباطن .

لا شك في أن هذه النزعة تؤدي إلى الإنحراف والضلال ، وذلك لأن هؤلاء كانوا مضطرين إلى توضيح معاني الآيات ولكنهم ، بإلغائهم عمل العقل ، لم يكن امامهم من القرآن إلا مفهوم هو أقرب إلى مفهوم العوام . وهم لذلك سرعان ما انحرفوا عن جادة الصواب ، واعتنقوا معتقدات غير صحيحة .

من ذلك مثلاً تجسيدهم الله (سبحانه) ومئات أخرى من المعتقدات الخرافية ، كأمكان رؤية الله تعالى عياناً ومخاطبته ، وإلى غير ذلك .

وفي مقابل هذه الجماعات التي تركت القرآن فعلاً ، ظهرت جماعة أخرى جعلت من القرآن وسيلة للوصول إلى غاياتهم وأهدافهم . أخذ هؤلاء يؤولون القرآن كيفما اقتضت منافعهم ، ونسبوا إلى القرآن أموراً لم تكن فيه إطلاقاً . وكانوا يردون على كل اعتراض قائلين بأنهم

وحدهم الذين يدركون المعاني الباطنية للقرآن وإن تأويلاتهم تلك متأتية من معرفتهم بآياته .

إن أبطال هذه الجماعات فئتان : الفئة الأولى هم الاسماعيلية ،ويعرفون بالباطنية ايضاً . والثانية هم المتصوفة . واكثر الاسماعيلية في الهند وقليل منهم في ايران . وقد بلغ بهم الأمر أنهم أنشأوا حكومتهم ايضاً ، وهي الدولة الفاطمية في مصر . ويعرف الأسماعيليون بأنهم من الشيعة الذين يعترفون بستة من الأئمة . غير أن المقطوع به ، وبإجماع واتفاق تام من علماء الشيعة الاثني عشرية ، إن هؤلاء أبعد ما يكونون حتى عن غير الشيعة . أي إن أهل السنة الذين لا يرون في أئمة الشيعة ما يرى الشيعة فيهم ، أقرب إلى التشيع من هؤلاء المحسوبين على الشيعة[1] .

إن هؤلاء ، بسبب تشبثهم بالباطنية ، أساءوا إلى

---

(١) في مؤتمر « التقريب بين المذاهب الاسلامية » الذي عقد قبل حوالي ٣٥ سنة ، والذي جمع اصحاب مختلف المذاهب الإسلامية لإزالة كل سوء تفاهم ، حضر ايضاً عدد من الاسماعيليين ، غير أن الشيعة والسنة الحاضرين اتفقوا بالاجماع على عدم اعتبار هؤلاء من جملة الفرق الاسلامية ، ومنعوهم من الإشتراك في المؤتمر .

الإسلام وخانوه خيانات عديدة في التاريخ الإسلامي ، وكان لهم دور كبير في إيجاد الإنحرافات في أمور الإسلام .

بعد هؤلاء نأتي إلى المتصوفة الذين كانت لهم اليد الطولى في تحريف الآيات وتأويلها بحسب عقائدهم الخاصة . وكمثال على ذلك ، نذكر نموذجاً من تفاسيرهم ، ليتبين طرز تفكيرهم ، بحيث يستطيع القاريء أن يقرأ المفصل من هذا المجمل :

لقد جاء في القرآن ذكر ابراهيم وابنه اسماعيل ، وأن الله قد أمر ابراهيم في المنام عدة مرات بذبح اسماعيل تقرباً اليه . ويعجب ابراهيم أول الأمر لهذا الأمر ، ولكنه بعد تكرر الرؤيا يؤمن بذلك ويسلم أمره لله ، ويفاتح ابنه بذلك ، فيستسلم اسماعيل استسلام المخلص له :

﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾[1] .

المقصود هنا هو هذا التسليم أو الرضا بقضاء الله ، ولذلك عندما قام الأب والأبن ، بكل خلوص نية ونقاء سريرة بإعداد العدة لتنفيذ أمر الله تعالى ، توقف التنفيذ

(١) الصافات ـ آية : ١٠٢ .

بـأمر من الله ايضـاً . أما المتصـوفـة فيـرون في تفسـير هـذه الآيـة إن ابراهيم هـو العقل ، وإن اسمـاعيل هـو النفس ، وإن العقل ههنا كان ينوي قتل النفس .

من الواضح أن هـذا المفهوم لا يعـدو أن يكون تـلاعباً بـالقرآن ، ولـوناً من المعـرفة التحـريفية . إن هـذه المفاهيم المنحرفة المبنيـة على الأهـواء الشخصية ، هي التي قـال فيها الـرسول (صـلى الله عليه وآلـه وسلم) : « من فسر القرآن بـرأيه فليتبـوأ مقعده من النار » . إن هـذا التـلاعب خيـانـة للقرآن بل خيانة عظمى[1] .

والقــرآن ، في قبــال جمــود الأخبــاريــين وجفــاف تفكيـرهم ، وكـذلـك في مـواجهــة انحـرافــات البـاطنيــة ومفـاهيمهم الخاطئـة وأمثـالهم ، يعـرض سبيـلاً وسـطاً هـو التأمل والتـدبر الخـالص المنصف وبغير تغـرض . إن القرآن لا يحـرض المؤمنين فحسب عـلى التفكير في آيـاته ، بـل إنـه

---

(١) إنـه لمـا يؤسف لـه في هـذا الـزمـان أن تكـون سـوق المفــاهيم المنحرفة والتفاسير الإعتباطية رائجـة ، فتظهـر الآراء اللاإسـلامية بلبوس الإسلام ، ولقد أعلن الاستاذ الشهيـد حربـاً شعواء عـلى أمثـال هذه الأمـور ، فبارز بـافكاره وبقلمـه الجبار ، حتى إنـه في آخــر الأمــر ضـحى بـحيــاتــه في سـبيـل ذلــك تـضـحيــة صادقة ـ الناشر .

يحث المخالفين له على ذلك أيضاً ، ويطلب منهم ألا يتحزبوا ، بل يتأملوا في آياته ، ويقول :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[١] .

وفي آية اخرى يقول :

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُو الْأَلْبَابِ ﴾[٢] .

أي إنه كتاب غزير الثمر ، كثير البركة ، وإن تدبر آياته لا يعني تقبيله ومن ثم وضعه على الرف ، بل يعني تدبر آياته والتفكير فيها .

إن هذه الآيات وعشرات أُخرى في توكيد تدبر القرآن ، تجيز كلها تفسير القرآن ، وتؤيده ولكن لا التفسير المبني على هوى النفس ، بل المبني على أساس من الصدق والأنصاف والتجرد عن الغرض . فعندما نتأمل في القرآن صادقين وغير مغرضين ، لن تكون هناك ثمة ضرورة إلى أن تكون لنا القدرة على حل كل مسائله .

إن القرآن من هذا المنظور أشبه بالطبيعة . ففي

---

(١) سورة محمد ـ آية : ٢٤ .
(٢) سورة ص ـ آية : ٢٩ .

الطبيعة كثير من الأسرار التي ما زالت تفتقر إلى الحل ، وليس بالإمكان حلها في الظروف السائدة فعلاً ، ولكنها سوف تحل في المستقبل . ثم إن الإنسان في سعيه لمعرفة الطبيعة ينبغي عليه أن يلائم بين تفكيره والطبيعة كما هي ، لا أن يفسر الطبيعة على حسب ما يشاء هو . وكذلك هو القرآن ، فإنه لم ينزل لزمان واحد ، ولو لم يكن الأمر كذلك ، لانكشفت أسراره منذ أمد ، ولفقد هذا الكتاب السماوي كل جاذبيته وجدته وتأثيره . غير أننا نرى إن الرغبة في تدبره والتفكير فيه واستكشاف جديده لم يزل باقياً كما كان ، وهذه ملاحظة سبق أن شرحها النبي والأئمة .

فقد ورد في حديث عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال : « مثل القرآن كمثل الشمس والقمر ، فهو مثلهما في جريان دائم » . أي إنه ليس على وتيرة واحدة ولا هو قد سمّر في مكان واحد . وقال ايضاً : « القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق » .

وجاء في عيون اخبار الرضا (عليه السلام) عن الامام جعفر الصادق (عليه السلام) أنه سئل عن السر في أن القرآن تزداد طراوته وجدته بتقادم الزمان عليه وبتكرار تلاوته . فقال : لأن القرآن لم ينزل لزمان دون زمان

ولناس دون ناس ، بل إنه نزل لكل الأزمان وكل الناس . إن منزّله قد صاغه بحيث إنه يتقدم على كل تطور في العلم والتفكير ، على الرغم من التطور الهائل في المعارف والعلوم ، كما إنه يعرض من المعاني والمفاهيم القابلة للدرك بما يتسع لظرفية الزمان واشباعه .

* * *

معرفة القرآن تحليلياً

نـريد في هـذا الفصل ان نبحث في محتـويات القـرآن . وطبيعي اننا لو اردنا تناول موضوعاته موضوعاً موضوعاً لاقتضانـا ذلـك أطنانـاً من الورق . وعليـه فسوف نعـالـج الكليات أولاً ، ثم نعود على بعض الجزئيات .

يتنـاول القـرآن كثيـراً من المـطالب بـالبحث ، وفي غضـون ذلك يؤكـد بعضها تـوكيداً أكبـر دون بعض . ومن جملة الأمـور التي جـرى بحثهـا في القـرآن إلـه الكـون والكـون . علينا ان نـرى كيف ينظر القـرآن إلى الله . هـل يعـرفه معـرفة فلسفيـة ، أم معرفـة تعبديـة ؟ هل يـذهب ، مثل التوراة والانجيل ، مذهباً دينياً ، أم أنـه يسير كـما تسير الـديانـات الهنديـة ، أم إن له مـذهبه الخـاص والمستقـل في معرفة الله ؟ .

والمـوضـوع الآخـر هـو الكـون . لا بد لنـا أن نـدرك النـظرة التي ينـظر بهـا القـرآن إلى الكـون . فهـل ينـظر إلى الخليقـة والكـون نـظرة عبث ولهـو ؟ أم إنها نـظرة الصـدق

والحق ؟ فهل يرى جريان العالم يسير على وفق سنن ونواميس . أم يراه يجري على غير هدى أو قاعدة ، بحيث لا يبدو أي شيء سبباً لأي شيء آخر ؟ .

ومن جملة المسائل الكلية المطروحة في القرآن مسألة الإنسان . فلا بد من تحليل نظرة القرآن إلى الإنسان . أتراه يتحدث عن الإنسان متفائلاً ، أم إن نظرته إليه سلبية ومتشائمة ؟ أيرى الإنسان حقيراً ، أم يرى أن له كرامة وعزة ؟ .

ومسألة أخرى هي مسألة المجتمع الإنساني . أفهل يرى القرآن للمجتمع الانساني أية اصالة ، أم يرى الفرد هو الأصيل ؟ وهل للمجتمع الانساني في نظر القرآن حياة وموت ورفعة وانحطاط ، أم إن هذه الصفات تختص بالفرد فحسب ؟ وهنا تدخل مسألة التاريخ ، وكيف ينظر القرآن إليه . ترى ما هي القوى المحركة للتاريخ ، وما هو مقدار تأثير الفرد في التاريخ ؟ .

هنالك مسائل كثيرة أُخرى يطرحها القرآن ، ونحن نورد هنا سرداً لبعض منها : نظرة القرآن إلى القرآن ، ثم مسألة الرسول في القرآن ، وكيف يعرف القرآن الرسول ، وكيف يحادثه . . . ثم مسألة تعريف المؤمن في القرآن ، وماهية صفات المؤمنين ، وغيرها .

ولا شك ان لكل واحدة من هذه المسائل الكلية مسائل فرعية ، فمثلاً عند الكلام على الانسان ، لا بد لنا أيضاً أن نتكلم على الأخلاق ، أو إذا تحدثنا عن المجتمع ، لا بد أن نتحدث عن روابط الأفراد ، وعن مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعن مسائل الطبقات الاجتماعية . . . وغير ذلك كثير .

كيف يعرف القرآن نفسه ؟ :

من الأفضل في تحليل القرآن أن نبدأ من ملاحظة رأيه في نفسه ، وكيف يعرف نفسه . إن أول ما يطالعنا بهذا الشأن هو قوله إن هذه الكلمات والعبارات هي كلام الله . إنه يعلن صراحة إن الرسول ليس هو منشيء القرآن ، بل إنه إنما يبين ما ينزل به روح القدس أو جبرائيل بإذن الله .

والأمر الآخر الذي يوضحه القرآن هو تعريف رسالته . وهي إنها هداية أبناء البشر وقيادتهم للخروج بهم من الظلمة إلى النور :

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾[1] .

---

(١) سورة ابراهيم ـ آية : ١ .

ولا شك إن من مصاديق هذه الظلمات الجهالة . فالقرآن يقود البشر من ظلمة الجهل إلى نور العلم . ولكن لو كانت هذه الظلمات تنحصر بالجهل فحسب ، فقد كان بامكان الفلاسفة أن يقوموا بتلك المهمة ، غير أن هناك ظلمات أخرى أخطر بكثير من ظلمة الجهل ، ولا يستطيع العلم أن يعالجها . فهناك مثلاً حب المال ، والأنانية ، واتباع الشهوات ، وغيرها . . . مما يعتبر من الظلمات الفردية الأخلاقية . وثمة ظلمات اجتماعية كالظلم ، والتمييز ، وغيرهما . . . والظلم ممن مشتقات الظلام ، مما يوحي بنوع من الظلام الإجتماعي المعنوي ، وإن مكافحة هذه الظلمات من شأن القرآن والكتب السماوية الأخرى .

يخاطب القرآن موسى بن عمران قائلاً :

﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ . . . ﴾[1] .

إنها ظلمات الظلم ، ظلم فرعون والفراعنة ، والنور هو نور الحرية والعدالة .

إن مما التفت اليه المفسرون هو إن القرآن لا يورد كلمة

---

(١) سورة ابراهيم ـ آية : ٥ .

« الظلمات » إلا بصيغة الجمع ، ومقرونة بالألف واللام ، لتدل على الاستغراق ، فتشمل كل ضروب الظلمات ، ولكنه يورد النور بصيغة المفرد . وهذا يعني إن الطريق الصحيح واحد لا أكثر ، بينما سبل الانحراف والضلال عديدة . من ذلك مثلاً الآية التالية :

﴿ الله وَلِيُّ الَّذِيْنَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلىٰ النُورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إلىٰ الظُّلماتِ ﴾(١) .

وهكذا يعين القرآن هدفه : تحطيم اغلال الجهل والضلال والظلم والتردي الأخلاقي والإجتماعي . وبكلمة واحدة : القضاء على الظلمات ، والهداية نحو العدالة والخير والنور .

معرفة القرآن :

المسألة الأخرى ، مسألة معرفة لغة القرآن وتلاوته . يظن بعضهم إن القصد من تلاوة القرآن هو قراءته طمعاً في الثواب دون إدراك شيء من معانيه . هؤلاء الذين

---

(١) سورة البقرة ـ آية : ٢٥٧ .

« يختمون » القرآن مرّات عديدة ، ولكننا إذا سألنا أحدهم إن كان قد فهم معنى ما يقرأ فسوف يعجز عن الجواب . إن قراءة القرآن بقصد تفهم معانيه أمر لازم ومطلوب ، لا بقصد الحصول على الثواب فقط .

إن لإدراك معاني القرآن مستلزمات لا بد من الإهتمام بها . إن ما يحصل عند القارىء الذي يريد تعلم كتاب ما ، هو سلسلة من الأفكار الجديدة لم تخطر له من قبل . فههنا يكون العقل وقوة فكر القارىء هما الفاعلان النشيطان . وفيما يتعلق بالقرآن يجب أن يكون التعلم والإدراك هما القصد من قراءته . والقرآن هو نفسه يقول :

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلْيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[1] .

إن واحدة من وظائف القرآن التعليم . وهنا يخاطب القرآن عقل الانسان بلغة المنطق والاستدلال . ولكن للقرآن لغة أُخرى لا يخاطب بها العقل ، بل القلب ، ويطلق على هذه اللغة الثانية اسم الإحساس. فمن يريد أن يتعرف على القرآن وأن يأنس به ، عليه أن يعرف هاتين اللغتين ، وأن يستفيد منهما معاً ، إذ إن الفصل بينهما يؤدي إلى الخطأ ، وسوء الفهم ، وما هذا إلّا خسران كبير .

---

(١) سورة ص ـ آية : ٢٩ .

إن مـا نـطلق عليـه اسم القلب هـو ذلــك الإحسـاس العظيم والعميق الكامن في داخـل الإنسان ، وقـد يطلقـون عليه أيضاً اسم الإحسـاس بالـوجود ، أي ذلـك الإحساس الـذي يرتبط بـالوجـود المطلق . إن من يعـرف التكلم بلغة القلب ويخـاطب به الإنسـان ، فإنـه يهزه من أعمـاق حياتـه وكنه وجوده ، وعندئذٍ لا يكون العقل وحـده تحت التأثـير ، بل الوجود بأكمله يكون متأثراً .

وإذا أردنـا أن نضـرب مثـلاً للغـة الإحسـاس ، فـإننـا نضرب بالموسيقى مثلاً لـذلك . فـالموسيقى ، عـلى اختلاف انواعها ، تشتـرك في امر واحـد ، وهو إنها تعـالج إحسـاس الإنسـان . إنها تهيج روح الإنسـان وتغرقـه في عـالم خـاص من المشـاعر . وبـالطبـع تختلف انواع الهيجـانات بـاختلاف انواع الموسيقى .

فقد يمتاز نوع باثارته مشـاعر البـطولة والحمـاس ، فهو يخـاطب الإنسان بهـذه اللغة . إنكم تعـرفون انهم يعـزفـون المـوسيقى العسكريـة والأناشيـد خلال الحـروب . إن تأثـير هـذه الموسيقى يكـون أحيـانـاً من القـوة بحيث إن الجنـدي المـرتعد خـوفاً من العـدو داخل خنـدقـه ، ينـدفـع خـارجـاً متحدياً هجمات العدو ويقابله بالهجوم .

ونـوع آخر من المـوسيقى قد تثـير أحـاسيس الشهـوة ،

فيرتخي الإنسان ، ويرتمي في أحضان الشر . من الملاحظ أن هذا اللون من الموسيقى متفش وواسع الإنتشار ، ولعله أقدر من أي شيء آخر على هدم جدران العفة والأخلاق . وهكذا الأمر فيما يتعلق بالغرائز والمشاعر الأخرى ، التي يمكن السيطرة عليها ووضعها تحت المراقبة ، سواء عن طريق الموسيقى أو أية وسيلة أخرى .

إن من أرفع غرائز الإنسان واحساساته هي حسه الديني ، وفطرته في البحث عن الله . فتوجه القرآن يكون نحو مخاطبة هذا الحس الشريف السامي[1] .

القرآن نفسه يوصينا أن نقرأه بلحن لطيف وجميل . إن هذا اللحن السماوي ، هو اللحن الذي يخاطب به القرآن فطرة الإنسان الإلهية ويجتذبها إليه[2] . عند وصف القرآن ذاته يقول إنه يتكلم بلغتين ، فهو مرة كتاب الفكر والمنطق الاستدلالي ، ومرة اخرى كتاب المشاعر والعشق

---

(١) لقد قيل الكثير في شرق العالم وغربه عن هذا الحس الديني . إننا هنا سوف نوجز أقوال عالمين من علماء العالم . اوّلهما هو انشتاين. ففي احدى مقالاته يتطرق إلى الدين ويقول إنه يعتقد بأن في العالم عموماً ثلاثة انواع من الأديان .

(٢) كان الأئمة (عليهم السلام) يقرأون القرآن بكثير من الانفعال والتهيج بحيث كان المستطرقون المستمعون اليهم يتوقفون عنوة وتنقلب احوالهم ويجهشون في البكاء .

وبعبارة أخرى ، ليس القرآن غذاء العقل والفكر بحسب ، بل هو غذاء الروح ايضاً .

والقرآن يؤكد موسيقاه الخاص توكيداً كبيراً . تلك الموسيقى التي يكون تأثيرها في استثارة مشاعر الإنسان العميقة والسامية أقوى من كل موسيقى . فالقرآن يطلب من المؤمنين أن يقضوا بعض ليلهم في تلاوته . وأن يقرأوه كذلك خلال الصلاة عند توجههم إلى الله . إنه يخاطب الرسول قائلاً :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً نِصْفَهُ . . . ﴾[1] .

قم ناج ربك ، ورتل القرآن في صلاتك ، والترتيل يعني عدم الاسراع في القراءة لئلا تتداخل الكلمات فلا تفهم ، وعدم الابطاء إلى درجة فصم الرابط بين المعاني . يقول اقرأ القرآن بتأن وبتوجه إلى المعنى . ويضيف في آيات أخرى في السورة نفسها مخاطباً الناس : إذا ما الجأتكم أعمالكم اليومية ، كالتجارة والجهاد في سبيل الله . إلى فترة نوم اطول ، فلا تنسوا خلوة العبادة .

إن السبب الوحيد الذي كان يزيد نشاط المسلمين ،

---

(١) سورة المزمل ـ آية : ١ و ٢ .

وقدرتهم الروحية ، وخلوصهم ، وصفاء بواطنهم ، هو موسيقى القرآن . لقد أحال نداء القرآن ، في فترة وجيزة ، النفوس الخشنة الجافة في جزيرة العرب إلى مؤمنين ثابتة أقدامهم . تمكنوا من مصارعة أقوى سلطات زمانهم والقضاء عليهم . لم يكن المسلمون ينظرون إلى القرآن على أنه مجرد كتاب للدرس والتعليم فحسب ، بل كانوا يرون فيه غذاء للروح ، ومادة لكسب القوة وازدياد الايمان . كانوا يتلونه أثناء الليل بنية خالصة[1]. يناجون ربهم ، وفي النهار يهجمون على الأعداء كالأسود الضارية . ولقد كان القرآن يتوقع هذا من المؤمنين به . إذ يقول مخاطباً الرسول :

﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾[2] .

إن قصة حياة الرسول نفسها مصداق لهذا القول . فهو بمفرده ، وبغير سند ، يرفع القرآن ، ويبدأ ثورته ،

---

(١) جاء في دعاء الامام زين العابدين (عليه السلام) لختم القرآن : « واجعل القرآن لنا في ظلم الليالي مونساً » . أي امنحنا الفهم والعشق لنألف كتابك ونأنس به في ظلمات الليالي .

(٢) سورة الفرقان ـ آية : ٥٢ .

فيكون القرآن له كل شيء ، يعد له الجند ، ويهيء السلاح والعدة ، وأخيراً يجبر العدو على الخضوع والتسليم ، ويجتذب افراد العدو لينحنوا أمام رسول الله ، وهكذا يفي الله بما وعد[1] .

عندما يسمى القرآن لغته بلغة القلب ، إنما يقصد ذلك القلب الذي يريد أن يصقله ويهذبه بآياته ويثيره . وهذه غير لغة الموسيقى التي تغذي أحياناً رغبات الإنسان الشهوانية ، وهي كذلك غير لغة المارشات العسكرية والأناشيد الحربية التي يعزفونها في الجيش لاستثارة روح الحرب في الجنود ، بل انها تلك اللغة التي تجعل من أعراب البادية مجاهدين قيل فيهم : « حملوا بصائرهم على اسيافهم » .

أولئك الذين وضعوا معارفهم ونظراتهم وأفكارهم النيرة ومداركهم الإلهية والمعنوية على اسيافهم التي شهروها في سبيل تلك المعتقدات. لم تكن لديهم منافع شخصية ولا مسائل فردية . وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا معصومين من الخطأ، وكانت تصدر عنهم أخطاء. إلا أنهم كانوا

(١) يتحقق وعد الله الحق هذا في زماننا أيضاً ، فيظهر رجل من ذرية الرسول ، يؤمن ، كجده ، بالقرآن وحده ، فينزل بجند الكفر وجيش الباطل هزيمة مهلكة ـ الناشر .

يمثلون مصداق القول : « قائم الليل وصائم النهار » . كانوا دائماً على ارتباط عميق بالوجود ، فيقضون ليلهم بالعبادة ونهارهم بالجهاد[1] .

فالقرآن بالنظر لخصوصيته في كونه كتاباً للقلب والروح ، يثير الأشجان ، ويسيل الدموع ، ويهز الأفئدة . ويصدق هذا حتى على أصحاب الكتب الأخرى :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ، وإذا يُتْلىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمنَّا بِهِ إنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّنا ﴾[2] .

ويؤكد في آية أخرى إن النصارى من أهل الكتاب

---

(١) في الخطبة رقم ١٩٣ من خطب نهج البلاغة المعروفة بإسم « المتقون » يعدد امير المؤمنين (عليه السلام) صفات المتقين . وبعد أن يذكر كيف هم قولاً وفعلاً ، يصف حالهم في الليل ، أو كما يقول سعدي : يصف ليالي رجال الله قائلاً :
« أما الليل فصافون أقدامهم ، تالين لأجزاء القرآن ، يرتلونها ترتيلاً ، يحزنون به أنفسهم » أي إنهم يقرأون القرآن قراءة تفهم وتأمل ، لا كما يقرأ بعضنا القرآن اليوم ، بغير أن نفهم شيئاً من معناه ، وهم يقرأونه بلحن محزون خاص ، ينبعث من قلوبهم ، وإذا ما بلغوا آية فيها إشارة إلى رحمة الله ، نظروا بشوق . وإذا ما بلغوا آية تشير إلى غضب الله . هلعت قلوبهم ، وكأنهم يسمعون صراخ أهل النار .

(٢) سورة القصص ـ آية : ٥٣ .

أقرب إلى المسلمين من اليهود والمشركين :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا اليَهُودَ والَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ﴾(١) .

ثم يصف النصارى الذين يؤمنون عند سماع القرآن فيقول :

﴿ وإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلىٰ الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾(٢) .

وعند الإشارة إلى المؤمنين عموماً . يصفهم هكذا :

﴿ الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ الله ﴾(٣) .

في هذه وفي كثير غيرها من الآيات (مثل الآية : ٥٨ من سورة مريم ، والآيات الأول من سورة الصف) يشير

(١) سورة المائدة ـ آية : ٨٢ .
(٢) سورة المائدة ـ آية : ٨٣ .
(٣) سورة الزمر ـ آية : ٢٣ .

القرآن صراحة إلى أنه ليس كتاباً علمياً وتحليلياً فحسب . بل إنه في الوقت الذي يستفيد فيه من منطلق الإستدلال . كذلك يتحدث مع مشاعر البشر وأذواقهم ، ويضع أرواحهم تحت تأثيره .

من يخاطبهم القرآن :

من النقاط الأخرى التي ينبغي استنباطها من معرفة القرآن هي معرفة الذين يخاطبهم .إننا نجد في القرآن تعابير مثل : ﴿ هدى للمتقين ﴾ و ﴿ هدى وبشرى للمؤمنين ﴾ و ﴿ ولينذر من حي ﴾ . وهنا نتساءل : إن الهداية لا لزوم لها للمتقين . لأنهم متقون .

ومن جهة أخرى نجد القرآن يعرف نفسه قائلاً :

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾[1] .

---

(١) سورة ص ـ آية : ٨٧ .

هذه واحدة من آيات القرآن العجيبة . فعند نزولها كان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في مكة ، وكان يحادث أهل إحدى القرى . لقد كان مما يثير ضحك الناس أن يسمعوا شخصاً وحيداً يقول بكل اطمئنان : إن خبر هذه الآية سيأتيهم =

إذن ، هل نزل الكتاب لكل الناس أم للمؤمنين دون غيرهم ؟ وفي آية أخرى يخاطب الله رسوله فيقول :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾[1] .

سيأتي توضيح ذلك مفصلاً عند الكلام على التاريخ في القرآن . ولكننا هنا نجمل قائلين إن الآيات التي تخاطب أهل العالم كلهم ، يقصد منها القول في الواقع بأن القرآن لا يختص بقوم أو بجماعة بعينها ، فمن يقترب صوب القرآن ينج .

أما الآيات التي تخاطب المؤمنين والمتقين ، فالمقصود هو الإشارة إلى نوع الناس الذين سيجتذبهم القرآن اليه ، والنوع الذي سيبتعد عنه في نهاية الأمر . والقرآن لا يشير إلى قبيلة بعينها أو قوم معينين على أنهم عن المرتبطين به والمؤيدين له . وهو لا يقول إنه يختص بقوم دون قوم ولا هو يضع اصبعه على منافع طبقة معينة كما تفعل باقي المذاهب ، فلا يقول إنه جاء لحماية مصالح الطبقة الفلانية فحسب . إنه لا يقول مثلاً إنه جاء ليحمي مصالح الطبقة

= فيما بعد ، أي سيعرفون ما فعل هذا الكتاب بالعالمين في مدة وجيزة .

(١) سورة الأنبياء ـ آية : ١٠٧ .

العاملة دون غيرها ، أو لتأييد طبقة الفلاحين فقط ، بل إنه يؤكد كونه كتاباً جاء ليبسط العدل .

ويقول بشأن الرسل :

﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الكِتَابَ وَالمِيْزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ ﴾[1] .

يريد القرآن القسط والعدالة لكل المجتمعات الانسانية ، لا لهذه لطبقة أو لتلك ، أو لقوم دون قوم . يريد القرآن ، بخلاف بعض المذاهب ، كالنازية ، أن يجتذب الناس ، فيضع اصبعه على مواطن عصبيتهم . وكذلك هو ، بخلاف الماركسية مثلاً ، لا يستند إلى ما في الانسان من روح النفعية والمصلحية ، ولا يحركه عن طريق منفعته[2] .

وكما إن القرآن يقول باصالة الانسان العقلية . يقول أيضاً باصالته الوجدانية والفطرية . وإن فطرة البحث عن الحق والعدالة هي التي تحمل الانسان على السير والحركة .

(١) سورة الحديد ـ آية : ٢٥ .

(٢) حيث في هذه الحالة لا تكون العدالة والحق من اهداف أتباعه ، بل سيكون هدفهم الوصول إلى منافعهم واتباع رغباتهم .

لذلك فرسالة الرسول ليست موجهة إلى العمال أو الفلاحين أو المحرومين أو المستضعفين . إن القرآن يخاطب كلا الظالم والمظلوم ، يدعوهما إلى طريق الحق .

موسى يبلغ رسالته لبني اسرائيل ولفرعون كليهما ، ويطلب منهما الإيمان بالله والمسير في طريقه . كذلك عرض محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) رسالته ودعوته على سراة قريش ، وعلى امثال أبي ذر وعمّار . يورد القرآن نماذج عديدة لتحريض الفرد على التمرد على ذاته ، والرجوع عن طريق الضلال والفساد إلى طريق التوبة . لا شك إن القرآن ذاته يعلم إن توبة الذين كانوا يعيشون في رفاه ونعيم أصعب بكثير من توبة المحرومين والمظلومين ، فهؤلاء يسيرون بمقتضى الطبع في طريق العدالة . أما الأولون فعليهم أن يتنازلوا عن مصالحهم الشخصية وامتيازاتهم القبلية وأهوائهم .

يقول القرآن إن اتباعه هم ذووا الأرواح الطاهرة النقية . وإن تبعية هؤلاء للقرآن متأتية من حبهم الفطري للبحث عن الحقيقة والعدالة ، وليس لميولهم الدنيوية ومنافعهم المادية وأهوائهم الخاصة .

العقل في نظر القرآن

تكلمنا في الفصل السابق باختصار على لغة القرآن ، وذكرنا إن القرآن يستعين بلغتين في ابلاغ رسالته ، وهما لغة الاستدلال المنطقي ، ولغة الاحساس . ولكل من هاتين اللغتين مخاطبوها المختصون . فالأولى تخاطب العقل . والثانية تخاطب القلب . في هذا الفصل سوف نتناول بالبحث وجهة نظر القرآن في العقل .

علينا أن نعرف إن كان القرآن يعتبر العقل سنداً ، أو ، كما يقول علماء الفقه والأصول ، هل العقل حجة ؟ أي إذا كان المكتشف حقاً من مكتشفات العقل الصحيحة . فهل ينبغي على البشر أن يحترموه وأن يعملوا بموجبه أم لا ؟ فاذا عمل به وارتكب في ذلك أحياناً خطأ ما ، فهل سيعذره الله على ذلك أم سيعاقبه ؟ وإذا لم يعمل به ، فهل سيعاقبه الله على عدم العمل به مع إن عقله قد حكم بذلك ، أم لا ؟ .

دلائل كون العقل حجة :

إن كون العقل حجة وسنداً في نظر الإسلام أمر ثابت ، كما إن علماء الاسلام جميعاً ، ومنذ البداية وحتى الآن ـ عدا مجموعة صغيرة ـ لم يشكوا في سندية العقل ، واعتبروه أحد مصادر الفقه الأربعة .

١ ـ الدعوة الى التعقل في القرآن :

بما اننا نبحث في القرآن ، فلا بد لنا من الرجوع إلى القرآن نفسه للحصول على الدليل الذي يثبت كون العقل حجة . إن القرآن يضع توقيعه على مستند سندية العقل بطرق مختلفة . وأوكد : بطرق مختلفة . فمن الآيات يمكن أن نعد ستين أو سبعين آية وردت في القرآن تشير إلى أن موضوعاً ما قد طرح لكي يتدبره العقل . ولنضرب مثلاً احدى الآيات العجيبة في القرآن :

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُون ﴾[1] .

من الواضح بالطبع ، إن المقصود بالصم البكم ليس العضوي منهما ، بل المقصود هو الجماعة من الناس الذين

---

(١) سورة الأنفال ـ آية : ٢٢ .

لا يـريدون أن يسمعـوا الحقيقة ، وإذا سمعـوها لا يعتـرفـون بها بألسنتهم . فـالأذن التي تعجز عن سمـاع الحقائق ، ولا تعجـز عن سماع لغـو الكلام الفـارغ ، لهي في القـرآن أذن صـماء . واللسان الـذي يقتصر على الشقشقـة والهراء ، لهـو في القرآن لسان أبكم .

أمـا « الـذين لا يعقلون » فـهم الـذيـن لا ينـفعـهم تفكيـرهـم . وهؤلاء لا يـراهم القـرآن جـديـرين بصفــة (الإنســان) ، فـأدرجهم في سلك الحيـوانـات والـدواب ، فيخاطبهم بهذا المنظور[1] .

وفي آية أخرى تطرح مسألة التوحيد ، بقوله :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إلاّ بِإذْنِ الله ﴾[2] .

وعـلى اثر طـرح هذه المسـألـة الغـامضـة التي لا يتسـع بعض القول لدركها . تستأنف الآية قولها :

﴿ وَيَجْعَلِ الرِّجْسَ عَلَىٰ الّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾[3] .

---

(١) يورد سعدي هذا المضمون في بيت شعر جميل :

به نطق آدمی بهتر است از دواب

دواب از تو به کر نکوئی صواب

« الإنســان خير من الـدواب بنطقـه لكن الدواب خـير منك إن لم تقل صوابا » .

(٢) و (٣) سورة يونس ـ آية : ١٠٠ .

في هاتين الآيتين اللتين اوردتهما مثالين ، يدعو القرآن إلى إعمال العقل بدلالة التطابق ، حسب تعبير أهل المنطق . هنالك آيات كثيرة أخرى يؤكد فيها القرآن سندية العقل بدلالة الالتزام[1] . أي إنه يتكلم بأمور يستحيل قبولها دون القبول بسندية العقل وحجته . فهو مثلاً يطلب من الخصم استدلالاً عقلياً ، حيث يقول :

﴿ قُلْ هَاتُوْا بُرْهانَكُمْ ﴾[2] .

أي إنه يريد أن يبين ، بدلالة الالتزام ، إن العقل حجة وسند . أو إنه لكي يثبت وحدة الوجود صراحة يعتمد القياس المنطقي :

---

(١) عندما يقودنا وجود امر الى امر آخر ، نطلق على ذلك إسم الدلالة . والدلالات انواع شتىٰ . ومنها الدلالة اللفظية ، وهذه تتخذ صوراً ثلاثاً :

الأولى : دلالة التطابق أو المطابقة ، أي ان اللفظة تدل على كل معناها ، كأن نقول : سيارة ونقصد كل اجزائها .

الثانية : دلالة التضمين ، أي إن اللفظة تدل على جزء من المعنى ، كأن نقول : السيارة هنا ، ونفهم من ذلك ان هيكلها أو محركها موجود ايضاً .

الثالثة : دلالة الالتزام ، أي إن في اللفظة دلالة على أمر خارج معناها ، كأن نسمع اسم حاتم فيخطر لنا جوده وكرمه .

(٢) سورة البقرة ـ آية : ١١١ .

﴿ لَوْ كَانَ فِيْهِمَا آلِهَةٌ إلاّ الله لَفَسَدَتَا ﴾[1] .

وهنا يقيم القرآن قضية شرطية ، فقد استثنى المتقدم وأهمل المتأخر . إن القرآن ، بتوكيده العقل ، يريد إبطال أقوال بعض الأديان التي تقول إن الإيمان غريب على العقل ، وإنه ، لكي يؤمن المرء ، عليه أن يعطل عمل العقل ، وأن يكتفي بعمل القلب ، لكي يدخله نور الله .

٢ ـ الاستفادة من العلة والمعلول :

إن من الأدلة الأخرى على قول القرآن باصالة العقل هو تبيان بعض المسائل باستخدام العلية والمعلولية .

فالعلة والمعلول ، وأصل العلية ، قواعد للفكر العقلاني ، وهذا ما يحترمه القرآن ويعمل به . وعلى الرغم من أن القرآن كلام الله ، وأن الله هو خالق العلة والمعلول ، وأن الكلام يدور على ما وراء ما تقع العلة والمعلول دونه ، فانه مع ذلك لا يغفل عن ذكر السببية والمسببية لهذا العالم ، ويضع الوقائع والظواهر تحت سيطرة هذا النظام .

من ذلك الآية التي تقول :

---

(١) سورة الأنبياء ـ آية : ٢٢ .

﴿ إنَّ الله لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[1] .

وهو بهذا يريد أن يقول إنه مع إن كل المصاير بيد الله ، فإن الله يحمّل البشر مصايرهم بسبب اختيارهم وتصميمهم وعملهم ، ولا يقوم بعمل جزافاً ، بل حتى المصاير لها نظام ، ولن يغير الله مصير مجتمع على عواهنة وبغير بديل ، إلا إذا غير المجتمع ما به ، كأن يغير نظامه الأخلاقي أو الاجتماعي . . .

والقرآن من ناحية اخرى يحث المسلمين على النظر في احوال الأقوام السالفة ومصايرها ، يستخلصون منها الدروس والعبر . من البديهي إنه لو كانت مصاير الأقوام والملل وانظمتها قد سارت خبط عشواء ، ومصادفة . أو لو كانت تلك المصاير مفروضة من فوق ، لما كان ثمة داع لدرس أو عبرة . فبهذا التوكيد يريد القرآن أن يشير إلى أن مصاير الأقوام تتحكم بها أنظمة واحدة ، أي لو تشابهت ظروف مجتمع ما مع مجتمع آخر لتشابه مصيراهما .

وقد جاء في آية اخرى :

---

(١) سورة الرعد ـ آية : ١١ .

﴿فَكَأَيِّن مِنْ قَرْيَـةٍ أَهْلَكْنَاهَـا وَهِيَ ظَالِمَـةٌ فَهِيَ خَاوِيَـةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْـرٍ مَشِيدٍ . أَفَلَمْ يَسِيـرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُـونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَـا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُـونَ بِهَا ﴾[1] .

نجد في كل هذا ان قبول النـظم بدلالـة الالتزام يؤيـد النـظام المبني عـلى العلة والمعلول . والقبـول بحجـة العلة والمعلول ، قبول بسندية العقل .

٣ ـ فلسفة الأحكام :

من الدلائل الأخرى على القبـول بحجة العقـل في نظر القرآن، هو القول بوجـود فلسفة للدسـاتير والأحكـام . أي إن العلة في وضـع الـدستعـور هي المصلحـة . يقـول علماء الأصـول ان المصـالـح والمفـاسـد تتـدرج في سلسلة علل الأحكام . فمثلاً ، يقول القرآن : أقيموا الصلاة .

ثم يذكر في مكان آخر فلسفة هذا الأمر :

﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ ﴾[2] .

فيشـرح الأثـر الـروحي للصـلاة ، وكيف أنها تـرتفـع

---

(١) سورة الحج ـ آية : ٤٥ و ٤٦ .

(٢) سورة العنكبوت ـ آية : ٤٥ .

بالانسان عن الفحشاء ، فيبتعد عن المفاسد والموبقات . أو أنه يذكر الصوم ، ويأمر الناس به ، ثم يقول :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامَ كَمَا كُتِبَ عَلَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1] .

وهكذا الأمر فيما يتعلق بأحكام اخرى ، كالزكاة والجهاد ، فقد بين القرآن في جميع الموارد مردوداتها الفردية والاجتماعية . وعليه فإن القرآن يمنح هذه الأحكام جانبها الدنيوي ، على الرغم من كونها سماوية ومن الأعلى ، ويطلب من الإنسان أن يتأملها ، ويتفكر فيها ، لكي يستبين له كنه الأمور ، ولئلا يحسبها مجرد سلسلة من الرموز أسمى من فكر البشر .

٤ ـ مكافحة شطحات العقل :

ثمة دليل آخر ، اقوى مما سبق ، على اصالة العقل في نظر القرآن ، وهو مكافحة القرآن لشطحات العقل . ولكي نوضح هذا الأمر لا بد لنا من ايراد مقدمة قصيرة .

لا شك ان فكر الانسان يقع في الخطأ في كثير من الأحيان ، وهذا أمر معروف وشائع ، ولكنه ليس مقصوراً

---

(١) سورة البقرة ـ آية : ١٨٣ .

على العقل ، فالحواس والمشاعر تخطيء أيضاً ، وقد أحصوا لحاسة البصر عشرات الأنواع من الأخطاء . ففيما يتعلق بالعقل ، كثيراً ما يتفق أن يستدل الانسان على أمر ، ويتوصل الى نتيجة ، ومن ثم يتضح ان استدلاله كان خطأ من أساسه . وهنا يطرح هذا السؤال نفسه : أيجب علينا أن نلغي عمل العقل بسبب خطأه هذا ، أم ينبغي أن نوجد وسائل وأسباباً تحول دون العقل وارتكاب الخطأ ؟ في الرد على هذا السؤال يقول السفسطائيون إن الاعتماد على العقل غير جائز ، بل إن الاستدلال لغو لا طائل وراءه . ويرد الفلاسفة عليهم ردوداً مفحمة ، قائلين ، مثلاً ، إن الحواس تقع ايضاً في الخطأ كالعقل ، غير إن أحداً لم يحكم بتعطيل الحواس وبعدم استعمالها . ولما لم يكن بالامكان الاستغناء عن العقل اضطر المفكرون إلى الحيلولة دون وقوعه في الخطأ .

وفي غضون بحثهم في هذا الموضوع لاحظوا أن كل استدلال يتكون من قسمين : المادة ، والصورة ، كما هي الحال عند تشييد عمارة ، إذ نكون بحاجة إلى السمنت والحديد والجص الخ . . (المادة) وإلى هيكل البناء وشكله (الصورة) . ولكي تبنى العمارة على خير ما يكون ، علينا أن نهيّء أفضل المواد ، وأجمل خريطة مكتملة لا نقص فيها . كذلك الأمر في الاستدلال ، فلكي يكون صحيحاً

لا بد أن تكون مـادته وصـورته صحيحتـين . وللتوصـل الى صـورة صحيحـة لـلاستـدلال ، ظهـر منـطق ارســطو ، أو المنطق الصوري . وكـانت وظيفة المنـطق الصـوري هذا أن يبـين صحة صـورة الاستـدلال ، أو عـدم صحتهـا ، فيعين العقل لكيلا يخطيء في صورة الاستدلال(١) .

إن القضيـة الرئيسيـة في ضمان صحـة الاستـدلال هي إن المنــطق الصــوري وحــده لا يكفـي لأثبــات صـحــة الاستدلال . فهذا المنطق إنما يضمن جـانباً واحـداً ، ولكي نـطمئن إلى صحـة مـادة الاستـدلال لا بـد من اللجـوء إلى

---

(١) من جملة الأخـطاء التي ظهـرت منـذ عـدة قــرون في دنيـا العلم وكـانت سببا في كثـير من سوء الفهم ، هـو اعتقـاد بعضهم بـأن وظيفـة المنطق الأرسـطي هي الحكم على صحـة مادة الاستـدلال أو عـدم صحتـه ايضـاً . ولمـا لم يكن هــذا من وظـائف المنــطق الأرسطي . فقد أفتوا بعدم صلاحية هـذا المنطق إطـلاقاً . وإنـه لما يؤسف له ان هذا الخطأ ما يزال يتكـرر في زماننـا هذا ، وهـو أمر يدل عـلى ان المفتين لم يعـرفوا منـطق أرسطو ولم يفهمـوه . لو عدنا الى مثالنا السـابق عن العمارة ،لنـا أن نقول ان مثـل وظيفة منـطق ارسطو في تعيـين صحة الاستـدلال ، كمثل الشـاقـول في تعيـين استقامـة الجـدار . إن الشيء الـوحيـد الـذي يكشفـه لنـا الشـاقـول هـو استقـامـة الجـدار ، أو اعــوجـاجــه . إن منـطق أرسـطو ، الذي اكتمـل عـلى يـد علماء آخـرين وازداد غنى ، لا يصدر حكمه إلا على صورة الاستدلال ، لا على مادته .

منطق المادة أيضاً ، أي إننا نحتاج الى معيار نقيس به المادة الفكرية كذلك .

لقد سعى علماء من أمثال « بيكن » و « ديكارت » لوضع منطق لمادة الاستدال ، مثلما وضع أرسطو منطقه لصورة الاستدلال. ولقد نجحوا في ذلك الى حد ما ، ولكنهم لم يبلغوا به الكمال الذي اتصف به منطق أرسطو وإن استطاع الانسان أن يستعين به لدرء أخطاء الاستدلال . ولكن الذي قد يثير عجبكم هو أن القرآن قد عرض بهذا الخصوص أموراً لها على مقترحات أمثال ديكارت فضل التقدم وتقدم الفضل .

منشأ الخطأ في نظر القرآن :

من جملة مناشىء الخطأ التي ذكرها القرآن هي إن الانسان يأخذ الشك مأخذ اليقين[١] . إذا تقيد الانسان دائماً باليقين ولم يقبل بالظن ، فلن يقع في الخطأ[٢] . وهذا

(١) وهذه هي القاعدة الأولى عند ديكارت . إذ يقول إنه لا يصدق شيئاً إلا بعد التأكد ، فإن وجد فيه ١٪ من احتمال الخطأ ، نبذه ولم يأخذ به . وهذا هو معنى اليقين .

(٢) لا بد ان نشير هنا إلى أنه في حالات الظن والشك ، حيث لا يمكن بلوغ اليقين ، يجب أن نأخذ تلك الحالات بنظر =

مـا يؤكده القـرآن كثيراً ، حتى إنـه يصرح بـأن أكبـر مـزالق الفكر البشري هو اتباعه الظن .

وفي مكان آخر يخاطب النبي قائلاً :

﴿ إنْ تُـطِعْ أَكْثَـرَ مَنْ في الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيْـلِ الله إنْ يَتَّبِعُونَ إلاّ الظَّنَّ وَإنْ هُمْ إلاّ يَخْرُصُونَ ﴾[1]

وفي آية اخرى :

﴿ وَلاَ تَقفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾[2] .

هـذه تـذكـرة تصـدر من القـرآن لأول مـرة في تـاريـخ البشر ، تنهي الانسان عن ارتكاب مثل هذا الخطأ .

المنشـأ الثـاني لحصـول الخـطأ في مـادة الاستـدلال ، وبخـاصـة في الأمـور الاجتمـاعيـة ، هـو التقليـد . فبعض النـاس يثقون بصحـة الأمر مـا دام المجتمـع يثق بصحتـه . أي إن الأمـر المقبـول عنـد المجتمـع ، أو إن الأسـلاف الأقـدمين قـد ارتضوه ، يكـون مقبولاً عنـد الجيـل الحـاضر ايضاً[3] .

= الاعتبار . أي أن نقبل بالظن على أنه ظن ، والاحتمـال على أنـه احتمـال ، لا أن نأخـذ الظن والاحتمـال على انهما يقـين ، إذ إن هذا يقود إلى الخطأ .

(١) سورة الأنعام ـ آية : ١١٦ .

(٢) سورة الاسراء ـ آية : ٣٦ .

(٣) لقـد ورد هـذا المـوضـوع في احـدى محـاضرات « بيكن » حيث =

أما القرآن فيقول : عليكم أن تزنوا كل أمر بميزان العقل . لا أن تثقوا بكل ما كان أجدادكم يفعلون ، ولا أن تنبذوه كلياً لهذا السبب . ثمة مسائل كثيرة طرحت في الماضي ،، وكانت خطأ في الوقت نفسه ، ولكن الناس تقبلوها . وثمة مسائل أخرى كانت صحيحة في زمانها ، ولكن الناس رفضوها من باب الجهل . لا بد من أخذ رأي العقل في قبول الأمور أو رفضها ، لا أن نقلد الآخرين فيها تقليداً أعمى . والقرآن يضع اتّباع الآباء والأجداد ، في معظم الأحوال ، في تعارض مع العقل .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾(١) .

يؤكد القرآن إن قدم الفكرة لا يكون دليلاً على صحتها أو خطأها . إن لتقادم الزمن أثراً في الأمور المادية ، ولكن حقائق الوجود لا يمكن أن يصيبها البلى مهما تقادم عليها الزمان . فحقيقة ﴿ **إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ**

= يطلق على هذا النوع من التقليد الأعمى اسم « عبادة الصنم الاجتماعي » ضمن الاصنام الأخرى التي يعبدها الناس

(١) سورة البقرة ـ آية : ١٧٠ .

حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ تظل صادقة ما دامت الدنيا قائمة . يقول القرآن إنه تجب مواجهة الأمور بسلاح العقل والفكر . فلا ينبغي نبذ عقيدة صحيحة لمجرد كون بعضهم يلصقها بالناس ، ولا أن نتقبل أخرى لمجرد كونها تقترن باسم هذا أو ذاك من الشخصيات المعروفة . بل يلزم القيام بالدرس والتحقيق في كل المسائل(١) .

من العوامل المؤثرة في حصول الخطأ والمذكورة في القرآن هو اتباع هوى النفس ، وميولها ، أغراضها المريضة . وفي ذلك يقول مولوي ما مضمونه : إذا ما برزت الأغراض حجب الفن ومد مئة ستار بين القلب والعين . فما من انسان استطاع ان يكون سليم التفكير إلا إذا ابتعد عن شر التغرض والتحيز . أي إن العقل يستطيع أن يعمل في محيط يخلو من أهواء النفس .

هنالك بهذه المناسبة ، حكاية تروى عن العلامة الحلي جديرة ان نضرب بها مثلاً هنا . سئل العلامة الحلي مرة

---

(١) إن مسألة تقليد الاسلاف ، والكبار ، والبدع المعاصرة ، والصيغة الاجتماعية ، التي نهى القرآن عنها بشدة يجب ألا تختلط بمسألة تقليد المجتهد الأعلم والأعدل ، المذكورة في الفقه ، إذ هي أمر واجب ومبني على الاستفادة من العلم والتخصص .

عن مسألة فقهيـة ، وهي أنه إذا مـات حيوان في بئـر وبقيت الميتـة النجسـة في البئـر ، فكيف يمكن الاستفـادة من مـاء البئـر ؟ وقـد حـدث من بـاب المصـادفـة والاتفـاق أن وقـع حيـوان ميت في بئر دار العـلامة الحـلي نفسه . الأمـر الـذي اضطر معه إلى أن يستنبط لنفسه حكماً شـرعياً بهـذا الشأن . لم يكن امـامه غـير طريقـين : فإمـا أن يعمي البئـر نهائيـاً ، ويستفيـد من بئر اخـرى ، أو أن يستخرج مقـداراً معيناً من مـاء البئر ، ومن ثم يستعمـل البئر دون وازع . ولكنـه رأى إنـه لا يستطيـع أن يحكم في هذه المسـألة دون أن يلتفت الى مصلحته الشخصية . فكـان أن أمر بـدفن البئر أولاً . ومن ثم راح يفكـر براحـة بال ودون وسـوسة النفس في استنبـاط الحكم .

وفي القـرآن اشـارات كثيـرة إلى اتبـاع هــوى النفس ، منها :

﴿ إنْ يَتَّبِعُونَ إلاّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَىٰ الأنْفُسُ ﴾[1] .

---

(١) سورة النجم ـ آية : ٢٣ .

القلب في نظر القرآن

لعله لا حاجة بنا إلى أن نقول ان المقصود بالقلب في المصطلح الأدبي والديني ليس ذاك العضو العضلي الذي يقع في الطرف الأيسر من الجسم ويضخ الدم كالمضخة في العروق . ففي قول القرآن : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾[1] .

أو ما جاء في هذا التعبير الأدبي اللطيف لحافظ :

« هلع قلبي وإني أيها الدرويش غافل
فماذا جرى يا ترى لهذا الصياد الحائر »[2]

يتضح إن المقصود من القلب شيء سام ورفيع ، يختلف عن عضو الجسم هذا كل الاختلاف . وإن أصابه

---

(١) سورة ق ـ آية : ٣٧ .

(٢) دِلَم رَمِيدَه شُدُ غافِلم من دَرْويش
كه اين شِكارى سَركشتِه راجه آمد يش

المـرض أيضـاً ﴿ فـي قُلُوْبِهِمْ مَـرَضٌ فَـزَادَهُـمُ الله مَرَضاً ﴾[1] .

إلا أن معـالجـة هـذه الأمـراض ليست من اختصـاص أطبـاء القلب . وإذا كانت ثمـة طبيب يعالجها ، فـذاك هـو الطبيب المختص بالأمراض الروحية .

تعريف القلب :

إذن مـا المقصود بـالقلب ؟ علينا أن نبحث عن جـواب هذا السؤال في حقيقة وجـود الانسان . فعـلى الرغم من إن الانسـان كائن فـرد واحـد . فـإن لـه مئـات الأبعـاد ، بـل آلافـها . فـالـ(أنا) إنسـان يتألف من العـديد من الأفكـار والآمـال . ومن الخوف والـرجاء والحب ، الـخ . . . وكـل هذه الأفكار أشبه ما تكـون بالأنهر والنهيـرات التي تلتقي في مركز واحد . وهذا المـركز نفسـه بحر عميق ، لم يـدّع أحد من البشر بعد أنه قد سبر أعماقه وعرف كنهه . على الرغم من أن الفـلاسفـة ، والـروحـانيـين ، وعلماء النفس ، قـد وصـل كـل منهم الى كشف بعض أسـراره . ولكن الـظاهـر ان الـروحانيـين ، كانـوا أكثر تـوفيقاً من غيـرهم . فـالـذي يسميه القرآن بـالقلب هو في الحقيقـة ذلك البحـر ، وإن ما

---

(١) سورة البقرة ـ آية : ١٠ .

نسميه نحن بالروح إن هو إلا الأنهر ، والروافد ، التي تتصل بهذا البحر .

وبما أن القرآن يتحدث عن الوحي ، فإنه لا يذكر العقل ، بل يقتصر على التوجه إلى قلب الرسول . وهذا يعني ان القرآن لم يحصل للرسول عن طريق قوة العقل ، ولا بالاستدلال العقلي . وانما هو قلب الرسول الذي بلغ حالة لا نستطيع نحن تصورها . فأصبح فيها قادراً على إدراك تلك الحقائق السامية وشهودها . إن كيفية هذا الارتباط مبينة إلى حد ما في آيات من سورتي النجم والتكوير(١) .

---

(١) نقرأ في سورة النجم الآيات التالية :
﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ، إنْ هُوَ إلاّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ، عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوىٰ ، ذُوْ مِرَّةٍ فاستَوىٰ ، وَهُوَ بِالأُفُقِ الأعْلَىٰ ، ثُمّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أوْ أدْنَىٰ ، فَأوْحَىٰ إلىٰ عَبْدِهِ مَا أوْحَىٰ ، مَا كَذَّبَ الفُؤادُ مَا رَأىٰ ﴾ .
يذكر القرآن كل هذه الأمور لكي يبين إن مستوى هذه المسائل أرفع من مستوى العقل ، فالحديث هنا عن الرؤية والسمو .
ونقرأ في سورة التكوير : ﴿ إنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِيْ العَرْشِ مَكِينٍ ، مُطَاعٍ ثُمَّ أمِين ، وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ، لَقَدْ رَآهُ بالأُفُقِ المُبِيْنِ ، وَمَا هُوَ عَلَىٰ الغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ .
يقول اقبال اللاهوري في تعبير لطيف بهذا الخصوص : « إن =

وإذ يتحدث القرآن عن الوحي ، وإذ يخاطب القرآن القلب ، يكون بيانه أوسع من العقل ولكنه ليس ضده . ذلك لأن ما يعرضه القرآن أوسع في منظوره من منظور العقل والشعور ، بحيث لا يقدر العقل على إدراكه ويعجز عن نيله .

مميزات القلب :

القلب في نظر القرآن أداة من أدوات المعرفة، إذ إن القرآن في معظم رسالته يخاطب القلب ، تلك الرسالة التي تستطيع أذن القلب وحدها سماعها وما من أذن أخرى قادرة على سماعها . لذلك فالقرآن كثيراً ما يعني بالحفاظ على هذه الأداة . وبتعهدها وتربيتها . هنالك الكثير من الآيات في القرآن نقرأ فيها عن تزكية النفس ، ونور القلب ،وصفته :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾(١) .

﴿ كلاَّ بلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(٢) .

﴿ إنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلَ لَكُمْ فُرْقَاناً ﴾(٣) .

= الرسول هو من تفيض عنه الحقائق إذ يمتلىء بها ، فيعرض مما أوتي على الناس لكي يغير ويبدل ويرتب وينظم » .

(١) سورة الشمس ـ آية : ٩ .

(٢) سورة المطففين ـ آية : ١٤ . (٣) سورة الأنفال ـ آية : ٢٩ .

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾(١) .

وبالنظر إلى أن السيئات تلقي الظلام على روح الانسان وتكدر صفاءه ، وتبعد عنه حبه للخير وسعيه اليه ، فقد تكرر القول في القرآن بهذا الشأن ، وقد جاء على لسان المؤمنين :

﴿ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾(٢) .

أو يقول في وصف المسيئين :

﴿ كلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(٣) .
﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ ﴾(٤) .

أو إنه يتحدث عَنْ إغْلاق القلوب وختمها وقساوتها :

﴿ خَتَمَ الله عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصارِهِمْ غِشَاوةً ﴾(٥) .
﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾(٦) .
﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله عَلَىٰ قُلُوبِ الكَافِرِينَ ﴾(٧) .
﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾(٨) .

---

(١) سورة العنكبوت ـ آية : ٢٩ . (٥) سوررة البقرة ـ آية : ٧ .
(٢) سورة آل عمران ـ آية : ٨ . (٦) سورة الأنعام ـ آية : ٢٥ .
(٣) سورة المطففين ـ آية : ١٤ . (٧) سورة الأعراف ـ آية : ١٠١ .
(٤) سورة الصف ـ آية : ٥ . (٨) سورة الحديد ـ آية : ١٦ .

كل هذه الآيـات تؤكد إن القـرآن يرى الانسـان في جو روحي ومعنـوي عـال . ويـرى أيضـاً إن عـلى الانسـان أن يحافظ على هذا الجو نظيفاً ، نقياً . ولما كان كل سعي يقوم بـه الفرد في الحفـاظ على طهـارته ، في مجتمـع غـير سليم ، يعود في الأغلب عقيماً غـير موفق ، فـإن القرآن يحث النـاس على بذل الجهد لتصفية مجتمعهم ، وتزكية محيـطهم . ويشير القـرآن صـراحـة إلى أن مـا تستثيـره آيـاتـه من العشق ، والايمان ، والرؤى ، والتطلعات السامية ، وتقبـل النصح ، وغـير ذلـك ، يتـوقف كله عـلى تجنب المجتمـع الانسـاني والانسـان نفسـه الـرذائـل ، والـدنـاءات ، وحب الـلذات والشهوات .

يؤخذ من تاريـخ البشر أنه كلما ارادت القـوى الحاكمـة أن تبسط سيطرتها عـلى مجتمع مـا ، لاستغلالـه ، سعت الى ذلـك المجتمع فنشـرت فيه الفسـاد ، فتيسر لافراده مجـالات اشباع الشهوات ، وتحثهم على اتباع الملذات .

لقد ظهرت أمثولة هذا الاتجاه الشائن ، الفاجـع ، ذي العبرة ، في اندلس الاسلام ـ الأندلس الذي كان يعتبـر من منـابع عصر النهضـة ، وكان من اكـثر دول اوربـا تقـدمـاً ـ فلكي ينتـزع المسيحيـون الأنـدلس من المسلمـين ، أخـذوا يفسدون روحية الشباب المسلم وأخلاقـه ، فلم يألـوا جهداً

في توفير أسباب اللهو واللعب ، والانغماس في الملذات للمسلمين ، ولقد نجحوا في هذا إلى درجة أن القادة ، وكبار رجالات الدولة ، وقعوا في حبائلهم ، فلوّثوا نفوسهم ، وبذلك تمكنوا من أن ينتزعوا ما كان في المسلم من عزم ، وارادة ، وقوة ، وشجاعة ، وايمان ، وطهارة روح ، فأحالوهم الى أفراد جبناء ، ضعفاء ، شهوانيين ، يشربون الخمر ، ويرتكبون الموبقات . ومما لا ريب فيه هو أن قهر شعب هذا شأنه ليس بالأمر العسير .

لقد انتقم المسيحيون من حكومة المسلمين ، ذات القرون العديدة إنتقاماً يخجل التاريخ أن يذكره ، ويشمئز من ترديد تلك الجنايات الشائنة ، لقد كانوا هم أولئك المسيحيون الذين كان المسيح (عليه السلام) قد علمهم أن يديروا خدهم الأيسر لمن يصفعهم على خدهم الأيمن . لقد اجروا في الاندلس بحاراً من دماء المسلمين ، فبيضوا بذلك وجه جنكيز (المغولي) . وبالطبع كان السبب في هزيمة المسلمين ضعف همتهم ، وفساد روحهم ، جزاء اهمالهم تعاليم القرآن ودستوره .

وفي زماننا هذا ، حينما وضع المستعمرون قدماً في بلادنا ، كان اعتمادهم على الحالة نفسها التي حذر منها القرآن . أي إنهم سعوا الى افساد القلوب . وإذا فسدت

القلوب ، انقلب العقل الى قيد أكبر ، يغل أيدي الناس وأقدامهم . ولهذا نجد إن المستعمرين ، والمستغلين ، لا يخشون إنشاء المدارس والجامعات ، بل يؤسسونها بأنفسهم ، ولكنهم يسعون ، في الوقت نفسه ، وبكل قواهم ، الى افساد روح الطالب وقلبه . انهم يدركون حق الادراك ان القلب المريض لن يكون قادراً على المقاومة ، بل يستكين الى كل انحطاط ، واستغلال ، واستثمار .

لذلك يولي القرآن أهمية كبرى لطهارة روح المجتمع ، إذ يقول : ﴿ **وَتَعاوَنُوا عَلَىٰ البِرِّ وَالتَقْوَىٰ وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَىٰ الإِثْمِ والعدوان** ﴾[1] .

فيطلب من الناس ان يتوجهوا اولاً الى عمل الخير ، وتجنب الأثم ، ثم ان يكون توجههم هذا جماعياً ثانياً .

فيما يتعلق بالقلب ، سأورد لكم بعض اقوال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة (عليهم السلام) لتكون حسن الختام لهذا الموضوع . جاء في كتب السير ، ان رجلاً قدم على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال إن لديه ما يسأل عنه . فقال له الرسول : أتريد أن تسمع الجواب أم تريد ان تسأل ؟ فقال أريد الجواب .

(١) سورة المائدة ـ آية : ٢ .

فقـال الرسـول : لقـد جئت تسـأل عن البـر والخـير ، وعن الأثم والشر . فقال الرجـل هو ذاك . فضم الـرسول ثـلاثة اصـابع وضـرب بها صـدر الـرجـل بلطف وقـال : استفت قلبك ، ثم قال : لقد صنع قلب المرء بحيث يكون متصلاً بـالخير ، فهـو يهدأ بـالخير ، ويضـطرب بالشر . مثـل ذلـك مثـل الجسم ، إن دخله ما لا يتجـانس معه ، اختـل نظامـه وتـوازن اعضائـه . كذلـك روح الانسان ، يختـل بالأعمـال القبيحـة . إن ما يسمى عنـدنا بعـذاب الضمير ، ينشـأ من عدم انسجام الروح مع الآثام والأعمال الشائنة .

﴿ اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإنْ افْتَاكَ المَفْتُون ﴾(١) .

هنا يضع الرسول اصبعـه على أمـر مهـم ، وهو أنـه اذا كـان الانسان بـاحثـاً عن الحقيقـة بتجـرد ، وخلوص نيـة ، فـان قلبـه لن يخـونـه أبـداً ، وإنمـا يهـديـه الى الـطريق الصحيـح . في الحقيقة إن الانسـان ما دام بـاحثـاً عن الحق والحقيقة ويتقدم على طريق الحق ، فإن كل ما يصادفه هو الحق والحقيقة . إلا أن ثمة نقطة ظريفة تبعث على سوء الفهم ، وهي أنه إذا ضل الانسان طريقه ، فالسبب هو انه كان منذ البداية متوجهاً وجهة خاصة ، بعيدة عن

---

(١) اوضحت في كتاب « جولة في نهج البـلاغـة » إن الاسـلام يضع فرقاً بين أن يكون للمرء علاقة بالدنيا وأن يكون متعلقاً بها .

البحث عن الحقيقة بخلوص النية .

لقد أجاب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الشخص الذي سأله عن « البر » قائلاً له إنك إن كنت حقاً تبحث عنه ، فاعلم انك إن وجدت ضميرك قد استراح إلى أمر ، فذاك هو البر ، ولكنك إن رغبت في شيء لم يرتح له قلبك ، فاعلم إن ذاك هو الإثم .

ويسألون النبي عن معنى الايمان فيقول : إن من إذا ارتكب القبيح قلق وندم ، وإذا عمل صالحاً سر وفرح ، فهذا له نصيبه من الايمان .

ينقل عن الامام الصادق (عليه السلام) إنه قال : إذا تحرر المرء من تعلقه بالدنيا احس بحلاوة حب الله في قلبه ، فيرى الأرض قد ضاقت به ، ويسعى بكل وجوده للتحرر من عالم المادة ، والخروج منه . وهذا ما أكد أولياء الله والمنقطعون اليه صحته بطريقة معيشتهم . لقد جاء في سيرة حياة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إنه زار مرة بعد صلاة الصبح أصحاب الصفة ، وكانوا جماعة من الفقراء ، لا يملكون من متاع الدنيا شيئاً ، يعيشون بجوار مسجد النبي . فوقع نظر الرسول على واحد منهم اسمه زيد ، أو حارث بن زيد ، ورآه واهناً نحيفاً ، قد غرقت عيناه في محجريهما ، فسأله :

كيف اصبحت ؟ فقال الرجل : أصبحت وحالي حال أهل اليقين .

فقال النبي : هذا زعم كبير . فما علامة ذلك .

فقال الرجل : علامة يقيني هي إن النوم قد جفا عيني ليلاً ، وأنا بالنهار في صوم دائم ، أقضي الليل حتى الصباح مضطرب الجوانح في العبادة .

فقال النبي : هذا لايكفي ، زدني .

فأخذ الرجل يسرد العلامات الأخرى ، فقال : يا رسول الله ، انا الآنا في حالة وكأني أرى أهل الجنة وأهل النار وأسمع أصواتهم ، وإن اجزتني أخبرتك بباطن أصحابك فرداً فرداً .

فرد النبي قائلاً : صمتاً ، صمتاً ! لا تزد . بل قل لي ما ترجو .

فقال : أرجو أن أجاهد في سبيل الله .

يقول القرآن ان صقل القلب يوصل الانسان الى مقام بحيث إنه إذا رفعت دونه الحجب - كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام) - لما زادته يقيناً .

إن ما يرمي اليه القرآن بتعليماته هو تربية الانسان ، مستفيداً من سلاح العلم والعقل ، ومن سلاح القلب

أيضاً . وهو يستعملها بأفضل أسلوب ، وأرفع طـريقة ، في سبيـل الحق ، ذلـك الأنسـان الـذي يجسـده في أمثلة حيـة أئمتنا وتلامذتهم الصالحون حقاً .

* * *

سورة الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

﴿ الْحَمْـدُ لله رَبِّ العَالَمِين (٢) الـرَّحْمٰنِ الرَّحِيمْ (٣) مَالِكِ يَوْمَ الدِّيْنِ (٤) إيّـاكَ نَعْبُدُ وإيّـاكَ نَسْتَعِينُ (٥) إهْدِنـا الصِّـرَاطَ المُسْتَقِيم (٦) صِـرَاطَ الَّـذِينَ أنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْـرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الظَّالِّيْنَ (٧) .

عند البدء بكتابة القرآن ، كانت كـل سورة تفتتـح بسم الله الـرحمن الـرحيم ـ بـاستثنـاء سـورة البـراءة ـ أي ان كل سورة تبدأ بـاسم الله . ولكن حصل خـلاف كبير منـذ زمن طويل بين الشيعة والسنّـة حول مـا إذا كانت البسملة جـزءاً من كـل سورة أم لا . أهـل التسنن يرون إنها ليست جـزءاً من أيـة سورة ، وإنمـا يعتبرون البسملة في بـداية كـل سورة مثـل البدء بهـا عند الشـروع في أي عمل ، مـع انها ليست

جزءاً من العمل . وهم قد يقرأون سور القرآن بغير أن يقرأوا البسملة . وفي الصلاة عند تلاوة سورة الفاتحة أو أية سورة أخرى ، لا يقرأون البسملة معها .

غير إن الشيعة باتباعهم الأئمة الأطهار (عليهم السلام) يخالفون أهل السنّة في ذلك ، حتى نقل عن الأئمة قولهم : « قتل الله الذين يحذفون اكبر آية من آيات القرآن » .

فلو حذفنا هذه الآية من بدايات السور كلها ، لما بقيت هذه الآية في القرآن ، سوى في سورة النمل حيث جاءت بصيغة مقول القول نقلاً عن ملكة سبأ يوم أن جاءتها رسالة سليمان ، فقالت : ﴿ **إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ** ﴾ .

إن الشيعة ، على كل حال ، يرون إن هذه الآية جزء من القرآن ، وليست منفصلة عنه كانفصالها عن أي عمل إذا ما قرأت عند الشروع فيه ، أي إنها لست إضافة تضاف إلى السور القرآنية[1] .

---

(١) يتفق أهل التشيع جميعاً بهذا الشأن ،غير ان أهل التسنن يختلفون فيما بينهم ، فبعض يؤيد الشيعة فيما ذهبوا اليه ، وبعض يخالفهم أشد المخالفة ، وبعض قائل بالتفصيل. =

. . . .

= فأما الذين يؤيدون البسملة جزءاً من السورة ، فمنهم : ابن عباس ، وابن مبارك ، وعاصم ، والكسائي ، وابن عمر ، وابن زبير ، وابو هريرة ، وعطاء ، وطاووس وكذلك الامام فخر الدين الرازي في التفسير الكبير ، وجلال الدين السيوطي ، وفي الاتقان ، حيث يقولون بتواتر الروايات بهذا الشأن .

وبعض آخر ، مثل مالك وأبو عمر ويعقوب ، يقول انها جزءاً من السورة ، بل وضعت في أوائل السور تيمّناً ، وبمثابة فواصل بينها .

وهنالك بعض آخر من اتباع الشافعي ، وحمزة ، يقولون بالتفصيل ، أي ان البسملة جزء من سورة الفاتحة فقط وليست في السورة الاخرى ويرى بعض المؤرخين أن أحمد بن حنبل يؤيد القول الأول (تفسير ابن كثير ج١ ص١٦) ، ويقول غيرهم انه يؤيد التفصيل (تفسير الألوسي ج١ ص٣٩) .

أما من حيث قراءة البسملة في الصلاة من وجهة نظر الفقهاء عموماً ، فهي هكذا :

١ ـ الحنفية قالوا : يسمي الإمام والمنفرد سرّاً .

٢ ـ المالكية قالوا بكره الأتيان بالتسمية في الصلاة المفروضة .

٣ الشافعية قالوا : البسملة آية من الفاتحة فالاتيان بها فرض .

٤ ـ الحنابلة قالوا التسمية سنّة وليست آية من الفاتحة . « نقل بإيجاز من كتاب الفقه على المذاهب الأربعة) . =

ابتداء الأعمال بسم الله :

إنكم تلاحظون إن الآية التي نحن بصددها تتألف من جار ومجرور ، وليست جملة تامة ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف ، وقد اختلفت آراء المفسرين في هذا المحذوف وما هو . ومن ذلك قولهم إن المحذوف : « أستعينُ » أو « أبتديءُ » أو « أسمُ » وهو الاحتمال الأقوى .

تكون الدوافع والأهداف عند التسمية متنوعة . فقد يرىٰ أحدهم أن يطلق اسماً فردياً على مؤسسة ما ، وهو يرمي بذلك إلى الحصول على فائدة مادية من ذلك الاسم . أو حسبما جرت العادة أن يسموا الوليد باسم شخص كان ذا حظوة عندهم في الماضي ، مستهدفين تجديد حياة ذلك الشخص في المولود الجديد لكي تبقى ذكراه حيّة .

= لكن الشيعة ، استناداً إلى روايات من أهل البيت ، وتمسّكاً بسيرة المسلمين ، فقد أفتوا بأنها جزء من السور ، وأوجبوا الاتيان بها . ويمكن الرجوع الى هذه الروايات في « فروع الكافي » باب قراءة القرآن ص٨٦ ، وفي « الاستبصار » باب الجهر بالبسملة ج١ ص٣١١ ، وفي « التهذيب » باب كيفية الصلاة وصفتها ص١٥٢ ، وفي « وسائل الشيعة » باب ان البسملة من الفاتحة ج١ ص٣٥٢ .

ولكن ترى ما هو الدافع وراء الطلب من البشر أن يبدأ كل أعماله بسم الله ؟ الدافع هو أن تتسم أعماله بالقدسية والعبادة ، وأن تنال أعماله البركة .

إن الانسان الذي يضم في قلبه إحساساً فطرياً بالله ، ويراه وجوداً قدسياً ومنبعاً للخير ، يعني بوضعه اسم الله على أعماله إنه يريد أن يضفي القدسية على عمله في ظل قدسية الله وسموه وكرمه .

وبما أن الابتداء باسم شخص يعني اعتباره قدوساً ، منزهاً عن جميع النقائص ومنبعاً للكمال ، وإنه يريد أن ينتسب عمله الى ذلك الشخص ابتغاء بركته ، لذلك لا يمكن الابتداء بأي اسم كان ، حتى باسم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهذا هو السر في الأمر بالتسبيح باسم الله الوارد في سورة « الأعلى » .

يتكرر في القرآن ورود تعابير مثل : ﴿ يُسَبِّحُ لله ﴾ أو ﴿ سَبَّحَ لله ﴾ أو ﴿ سُبْحانَ الله ﴾ ، ولكن التسبيح باسم الله لم يرد في القرآن إلا في سورة « الأعلى » ، حيث يقول : ﴿ سَبِّح اسمَ رَبِّك الأعلىٰ ﴾ .

أرى ان خير نظرية بهذا الشأن هي نظرية صاحب « الميزان » ، إذ يقول إن معنى تسبيح اسم الله هو إنه

عندما يكون المقام مقام تقديس وتكريم ، فينبغي ألا يردف اسم مخلوق باسم الله ، أو إذا كان لا بد من ذكر اسم الله ، فلا يجوز ذكر اسم كائن آخر ، أي إنه لا يجّوز ذكر اسم أحد مع ذكر اسم الله ، ولا يجوز ذكر اسم أحد بمكان ذكر اسم الله ، فكلا الحالتين شرك .

لقد شكّ مؤخراً بين الجماعات التي تدّعي مكافحة الشرك ، أمر هو نفسه من مظاهر الشرك . فبدلاً من أن يبدأوا أعمالهم باسم الله ، يقولون : بّسم الشعب ! .

فإذا كان وضع اسم الرسول بمكان اسم الله يعد شركاً ، فان الابتداء باسم الشعب يعد أيضاً بمثابة اصطناع خليفة لله . إنها شريعة القرآن التي تطالبنا بالتسبيح باسم الله دائماً ، والشروع في أعمال البشر باسم الله ، لا بإسم آخر ، لكي تتسم تلك الأعمال بالقداسة وبالبركة .

الله :

الله اسم من اسماء الخالق . إن التسمية التي توضع للأفراد قد تكون علامة وقد تكون صفة . ففي الحالة الأولى لا تكون معاني الأسماء هي المقصودة ، على الرغم من أن لتلك الأسماء معانيها الخاصة . بل يكون المقصود هو التشخيص والتعرف ، لذلك لا يزيد حكمها على حكم

العلامات . وقد يتفق الاّ يطابق الاسم المسمى ، بل وقد يكون ضده ، كأن تسمي زنجياً باسم كافور ، مثلاً .

في القسم الثاني من التسمية يحكي الاسم جانباً من جوانب المسمى ، فيبين صفة من صفاته .

ليس لله سبحانه وتعالى اسم من اسماء العلامات ، فكل اسمائه تبين حقيقة من حقائق ذاته القدسية .

نجد في القرآن ما يقرب من مئة اسم من اسماء الله ، وهي في الحقيقة مئة صفة من صفاته ، وقد جاء بعض منها في هذه السورة : الله ـ الرحمن ـ الرحيم ، مالك يوم الدين . ولكن أياً منها لا يتصف بالشمول كاسمه هذا ، لأن كل واحد منها يدل على واحد من كمالاته ، غير أن هذا الاسم يبين جميع صفاته الكمالية ذاتها .

كلمة « الله » كانت في الأصل « الأله » ثم حذفت الهمزة بالاستعمال .

أما من حيث أصل الكلمة فثمة آراء متعددة . منهم من يقول إنها من « آلَهَ » ويقول آخرون إنها من « وَلَهَ » وإن « آلـه » فِعال بمعنى المفعول ، كالكتاب بمعنى المكتوب .

فاذا كانت مشتقة من « ألَهَ » فتكون بمعنى « عَبَدَ » ، فتعني كلمة « الله » الذات الكاملة الحقيقة بالعبادة وذلك

لأن أي كائن هو نفسه مخلوق وفيه ما فيه من نقص ، فلا يكون جديراً بالعبادة فاذن ، كما قلنا ، الإله يعني تلك الذات التي استجمعت كل صفات الكمال ، وتنزهت عن كل عيب ، فحقت علينا عبادتها .

أما إذا كانت مشتقة من « وَلَه » بمعنى تحيّر ، ووالـه بمعنى الحيران أو العاشق المفتون ، فان كلمة « الله » تكون بمعنى الذي يحار العقل في ذاته المقدسة ، أو أنه يتوجه اليه توجه العاشق الواله ويحتمي به .

سيبويه ، العالم النحوي العربي المعروف الذي عاش في أواخر القرن الثاني واوائل القرن الثالث الهجري ، والذي يعتبر نابغة زمانه ، ويعد كتابه المعروف بـ« الكِتاب » من الكتب الفريدة في بابها ، مثل المنطق لارسطو ، والمجَسْطي لبطلميوس في علم الهيئة (علم الفلك) ، ويعتبر رأيه في اللغة والأدب سنداً موثوقاً به ، يرى إن أصل كلمة « الله » من الحيرة في قبال عظمة الخالق ، أو من الوله والعشق .

وقد جاء ذلك في مثنويات مولوي الذي يقول في هذين البيتين :

« في معنى الله قال سيبويه
يولهون في الحوائج هم لديه

قــال : الهــنــا في حــوائجـنــا الــيــك
والتمسنــاهــا وجــدنــاهــا لــديــك »

يشـير مـولـوي هنـا إلى حــالات من الحـاجـة تصيب الانســان فيحار في أمـره ولا يجد ملجـأ يلجأ اليـه ويحتمي به سوى « الله » ومن ذلك أيضاً قوله[1] :

« مئــات الألــوف من العقــلاء عنــد الألم
يئنــون جميعــاً امــام الــدّيــان الفــرد
بــل كــل الأســمــاك في الأمــواج
وكــل الــطيــور في عــليــائــهــا
بــل كــل الأمــواج الــلعــوب
مــشتــاقــة الــيــه جهــاراً وعــيــانــاً »

ليس الانسان وحده هـو الذي يتـوجه وقت الحـاجة الى الله ، بـل أسماك البحـار بين الأمـواج ، والطيـور في عنـان

---

(١) صــد هــزاران عــاقــل انــدر وقت درد
جـمـله نــالان پـيش آن ديــان فــرد
بـلكــه جمله مــاهـيــان در مــوجـهــا
جمـله پــرنــدكــان در أوجــهــا
بـلكــه جمله مــوجـهــا بــازيـكـنــان
ذوق وشــوقش راعـيــان انــدر عيــان
مثنوى : طبع كلاله خاور ص ٣٤ الأبيات ٣٧)

السماء ، بل وحتى تلك الأمواج الميتة نفسها في اليم ، تئن في حضرة الله ! .

وهناك احتمال قوي في أن تكون كلمتا « أَلَـهَ » و « وَلَـهَ » لغة واحدة ، أي إن الكلمة كانت في البداية « وله » ثم تطور استعمالها فصارت « أله » ثم دخل على صورتها معنى العبادة . وعلى ذلك يكون معنى « الله » هكذا :

تلك الذات التي تعشقه الموجودات كلها بوله ، بغير أن تدري ، وهي الحقيقة التي تستحق العبادة .

ترجمة كلمة « الله » :

نستطيع أن نقول إننا في اللغة الفارسية ليست لدينا كلمة يمكن أن تكون مرادفة لكلمة الله بحيث تقوم مقامها ، فجميع ما عندنا لا يفي بايصال معنى الله ايصالاً كاملاً . إذ لو وضعنا كلمة « خُدَا » مكان « الله » لقصرنا عن ايصال المقصود ، لأن كلمة « خُدَا » مخففة كلمة « خُـدْآي » وهذه تعطي المعنى الذي يطلق عليه الفلاسفة اسم « واجب الوجود » ، أو لعلها أقرب إلى صفة « غني » الواردة في القرآن منها إلى كلمة « الله » . وإذا استعملنا كلمة « خُداوَنْد » لكنا قاصرين ايضاً ، لأن هذه الكلمة

تعني « صاحب » (صاحب الشيء) مع إن الله « صاحب » أيضاً ، ولكنه ليس مرادفاً له ، فكونه صاحباً يعتبر شأناً من شؤونه .

الرحمن الرحيم :

هنا ايضاً ليس لدينا في الفارسية ما يمكن أن يقوم مقام هاتين الكلمتين بحيث يكون ترجمة صادقة لهما . أما قولهم « بَخْشَنْدِهء مِهْرَبانْ » فليس ترجمة صادقة ، لأن « بَخْشَنْدِه » تعني « الجواد » ، و « مِهْرَبانْ » ، تعني « رؤوف » وكلاهما من صفات الله الواردة في القرآن .

الجواد « بَخْشَنْدِه » هو الذي عنده ما يعطيه إلى الآخرين بغير عوض . ولكن « الرحمن » و « الرحيم » كلاهما مشتقان من « الرحمة» ، وفيها معنى اضافي كالآتي :

عندما يكون المرء محتاجاً ومستحقاً ، يكون ، لفظياً ، كمن يمد يده طلباً للصدقة ، فهو يستحق أن يوصل اليه شيء ، وفي هذه الحالة يكون هذا الشيء هو الرحمة ، غير أن رحمة الانسان لا تصل الى المستحق ، إلا إذا وقع تحت تأثير المستحق ورق قلبه له ، ولكن الله منزه عن هذه الحالات .

إذن عندما نقول « الرحمن الرحيم » ، يتجسد في ذهننا معنيان : الأول هو حاجة البشر العظيمة ، وكل المخلوقات التي تمديدها جميعاً ، كل بطريقته ، نحو الغني بتضرع متوسلين . والثاني هو إنه يرسل اليهم رحمته الواسعة فيعطي سؤلهم ، ويقضي حاجتهم .

لذلك فقد رأى بعض المترجمين المتأخرين انه ما من كلمة تستطيع أن توصل معاني تلك الكلمات في الآية الشريفة : بسم الله الرحمن الرحيم ،فترجموها هكذا :

« بِه نامِ اللهِ رحمن رحيم »

الفرق بين الرحمن والرحيم :

من اللازم أن نوضح بأن وزن « فَعْلان » في العربية يدل على الكثرة ، مثل عطشان ، اي العطش الكثير . والكلمات التي تأتي على وزن فعيل تسمى « الصفة المشبهة » وتدل على نوع من الثبات والدوام .

فالرحمن ، التي هي على وزن « فَعْلان » تدل على الكثرة والسعة ، وتدل على أن رحمة الله منتشرة وتشمل كل شيء .

إن شيئية كل شيء أصلاً تساوي رحمة الله ، أي أن الكينونة ذاتها هي الرحمة عينها ، كما ورد في سورة

الأعــراف ، الآيــة ٥٦ : ﴿ ورحمتي وسعــت كــل شيء ﴾ ونقرأ في دعاء كميل « ورحمتك التي وسعت كل شيء » .

هذا النوع من الـرحمة ليس فيـه استثناء ، فـلا يعني أنه يشمـل الانســان ولا يشمـل غـير الانسـان ، أو أنـه يشمـل الانســان المؤمن فحسب ، كـلا ، بــل إن الكـون بــأكمله تشمله رحمـة الله ، أو أنـه هــو رحمـة الله . أي إن مــا هــو موجود في عالم الوجود هو رحمة الله .

إن الــدرس الـذي نستــطيـع أن نستخلصـــه من آيـة ﴿ بسم الله الـرحمن الرحيم ﴾ هـو أن كل مـا يصـل من الله الى العــالم ليس الخير والشر ، بـل ان ما يصـل منه كله خـير ورحمــة ، وهي رحمـة تشمــل الجمـاد والنبــات والحيــوان والانسان ، لأن الوجود قد افتتح برحمة الله .

أمـا الرحيم ، عـلى وزن فعيل ، فتـدل عـلى رحمـة من الله دائمة لا تنقطع . قلنا إن « الرحمن » تدل على رحمة الله الواسعة التي تشمل كل الموجودات ، غـير إن في هذا العــالم مجمـوعـات من المـوجـودات التي تفنى ، و(الـرحيم) تـدل عـلى تلك الرحمـة الخالـدة التي لا تشمل إلا الـذين وضعـوا أنفسهم في مهب هذه الرحمة بايمانهم وأعمالهم الصالحات .

وعلى ذلك، فان لله رحمة عامة ورحمة خاصـة. فبرحمتـه الغـامـة يضم جميـع الكـائنــات، ومنهـا الانســان، ولكن

الانسان هو الكائن الوحيد المكلف وهو المسؤول عن نفسه ، فاذا أنجز ما بعهدته من تكاليف ووظائف ، شملته رحمة الله الخاصة . فالرحمن اشارة الى الرحمة الشاملة بغير تفريق بين مؤمن وكافر ، وحتى الانسان والجماد والنبات . والرحيم اشارة الى الرحمة الخاصة التي تقتصر على الانسان المطيع(١) .

الحمد لله :

هنا أيضاً لا بد من القول بأننا لا نملك في الفارسية كلمة نترجم بها كلمة (الحمد) . هنالك في الواقع كلمتان يمكن أن يقاربا معنى « الحمد » ، ولها مرادفان بالفارسية يستفاد منهما في ترجمة « الحمد » . الأولى هي « المدح » ويرادفها بالفارسية كلمة « سِتايِشْ » والأخرى « الشكر » ويقابلها « سِپاسْ » بالفارسية ، ولكن لا يمكن لأي منهما بمفردها أن توصل معنى كلمة « الحمد » .

كلمة « المدح » قريبة في المعنى من « الحمد » ، بل

---

(١) ورد في الروايات عن الفرق بين الرحمن والرحيم كما يلي : عن الصادق (عليه السلام) (في حديث) : « والله آله كل شيء الرحمن لجميع خلقه ، والرحيم بالمؤمنين خاصة » . (الكافي ـ توحيد الصدوق ـ تفسير العياشي) .

يـرى بعضهم ان هناك احتمـالاً قـويـاً أن تكـون اللفـظتـان لكلمة واحدة . إذ إن في العربية الكثير من نظائـرها ، مثـل خلص ولخص ، وأيس ويئس ، حيث نـرى إن حـروفهـا واحدة وإن اختلفت مواضعها .

والمدح من المشاعر التي يختص بها الانســان . فالانسـان هو وحده الـذي يبلغ من الأدراك والاحساس بحيث انـه إذا واجـه الكمـال والجـلال والجمـال والبهـاء ، أثـار فيـه هـذا الشعـور رد فعـل يحمله عـلى المـدح . هـذا الأحسـاس لا وجـود له في الحيـوان ، فلا هـو يدرك ذاك الكمـال والجلال والعظمة ، ولا هو قادر على أن يمدح تلك الأوصاف .

قـد يتدنى المـدح في الانسان أحيـانـاً فيـظهـر في صـورة منحـطة ، وهو مـا يطلق عليـه عندئـذٍ اسم « المـداهنـة » . وهذه من الرذائـل ، وهي تحدث عنـدما يمـدح المرء أمـراً لا حقيقة له . إنه لمن القبيح أن يستعمل الانسان تلك القدرة التي وهبهـا الله لـه كي يمـدح الجمـال والعـظمـة عـلى حقيقتهـا ، فيمـدح بها مـا لا يستحق المـدح بـالمرة لمجـرد الـطمـع . ومـا تلك القـدرة السـامية عـلى تمجيـد الكمـال وتكريمه إلا لكي يشبعهـا الانسان ويـرضيها ، لا أن يضعهـا في خدمة اللطمـع ، ذلك النـوع الخسيس من الأحساس . أما المدح الحقيقي فلا يخالطه شيء من الطمع ، انما هو أمر

فطري وطبيعي في الانسان عندما يصادف مظهراً من مظاهر الجمال ، فلو رأى ، مثلاً ، ورق القرآن الذي كتبه (بايْسنْقَر) قبل سنين لدهش من جماله ولما وسعه إلا أن يمدحه ويثني عليه . فلو سئل هذا الانسان : ما الذي حملك على المدح ، أيدفعون لك شيئاً لقاء ذلك ؟ ترى ماذا سيكون جوابه ؟ سيقول : وهل يلزم أن يدفع أحد شيئاً ؟ أنا إنسان ، والانسان اذا وقف امام الجمال والكمال والعظمة والجلال لا يسعه إلا أن يحني رأسه ، وأن يمدح ما يرى . هذا هو معنى كلمة « المدح » ، ولكن كلمة « الحمد » لا تعني المدح فقط .

في الانسان ثمة احساس آخر ، الاحساس بالطهارة ، وهذا ايضاً من خصائص الانسان ، و هو ما يسمى بالشكر . ويحصل هذا عندما ينال الانسان خيراً ، حيث تقضي انسانية الانسان أن يظهر امتنانه للذي اناله الخير . فلنفترض ان رجلاً في سيارته يريد العبور فيصادف سائق سيارة آخر له حق السبق بالمرور ، فاذا توقف هذا وسمح للأول بالمرور ، فان الآداب الانسانية، وهي فطرية ، تقضي أن يشكر صاحب الحق على كرمه ، أو حتى أن يلوح له بيده أو برأسه . إن هذه الخصلة ، وإلى هذا الحد ، غير موجودة في الحيوان ، بل يختص بها الانسان . وما سؤال القرآن : ﴿ **هل جزاء الاحسان إلا الاحسان** ﴾

إلا خطاب موجه الى فطرة الانسان السليمة ، والمجيب هو ضميره الطاهر ووجدانه .

لقد قيل ان من عرف نفسه فقد عرف ربه . وهذا أمر صادق وعظيم ، إذ إن معرفة الانسان نفسه توصله الى معرفة ربه . وان من طرق معرفة الانسان نفسه هو أن يعرف مشاعره الانسانية الخاصة ، ومنها هذا الاحساس بالشكر والامتنان ، والذي يهيمن عليه الضمير ، ولا علاقة له بالتربية والمحيط والعادات المحلية ، ولا يتعلق باقليم دون آخر . فالآداب والعادات يغيرها الزمان والمكان ، بل قد ينقلب الى ضده . فقد تجد في بلد ما إنهم يرفعون قبعاتهم ويعيدونها الى رؤوسهم تحية ، ولكنك قد لا تجد هذا سائراً في بلد آخر . ولكن لا يمكن ان يكون جزاء الاحسان إساءة في بلد معين ، ثم يقال ان هذا من عادات ذلك البلد وآدابه ! .

والحمد لا هو مدح خالص ولا هو شكر خالص : فما هو إذن ؟ يمكن القول اننا إذا مزجنا الأثنين كان الحمد . اي تلك الحالة التي تستوجب المدح لجلالها وعظمتها وحسنها وكمالها وبهائها ، وفي الوقت نفسه تستوجب الشكر أيضاً لما وصلنا منها من خير واحسان . ههنا يكون موضع استعمال (الحمد) .

الحمد يكون لله :

ليس من المستبعد ان يكون للحمد مفهوم آخر ، وهو مفهوم العبادة . وعلى ذلك يدخل في مفهوم الحمد عناصر ثلاثة في وقت واحد : المدح ، والشكر ، والعبادة . فالحمد ، بعبارة أخرى ، هو مدح الشاكر العابد . وقد جاء في الآية : ﴿ لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ ﴾ فلعل هذا هو منشأ مفهوم العابد في كلمة « الحمد » .

يجمع المفسرون على أن معنى الآية هو أن « الحمد » كله لله ، فاذا لم تكن الكلمة تتضمن معنى الخضوع والتواضع ، بالأضافة الى معنى العبادة ، وأنها تعني الشكر فقط ، فلماذا يمتنع الانسان عن الشكر ازاء النعم التي وهبها الله له ؟ بل ان على الانسان ان يشكر حتى المخلوقات التي جعلها الله وسيلة لأيصال الخير الى الانسان ، حتى لقد قيل : « من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق » كالأب والأم ، والمعلم ، وكل أولئك الذين كان الانسان مشمولاً دائماً بخيرهم واحسانهم . ولا يقبل الاعتذار بأن على الانسان أن يشكر الخالق ، وليس عليه ذلك تجاه المخلوق ، فينساهم وينسى احسانهم . والمسألة ليست ان نعلم انه ليس مستقلاً بذاته ، وانه انما كان بعون الله أن أوصل الينا خيره ، فوجب الشكر لله قبل

ذلك .

يتضح من اختصاص الحمد بالله أن معناه ليس الشكر فقط ، بل المدح والعبادة ايضاً .

ولما كان الله هو وحده الجدير بالعبادة ، وبما أنه هو الرحمن الرحيم ، فاننا نمدحه ونشكره ونعبده .

الخلاصة هي ان « الحمد » من الأحاسيس الانسانية الباطنية الطاهرة . احساس يعجب بالجمال والجلال ، فيثني عليهما ويخضع لهما . لذلك فان سورة الفاتحة تستلزم معرفة الله . أي إذا لم يعرف الانسان ربه معرفة كاملة ، فلن يكون قادراً على قراءة سورة الفاتحة قراءة صحيحة واقعية ، فتكون مجرد لقلقة .

مثلاً ، إذا صادفت انساناً ذا روح عالية كبيرة وملكات وفضائل ، وإذا ألمّت بك حاجة وجدته يسرع الى نجدتك ورفع حاجتك بدون تحفظ أو تقاعس ، فيصل اليك خيره واحسانه ، تجد انك تكبره في نفسك وتجله ، وإذا ما ورد ذكره في مجلس تسرع ، كالبلبل الواله امام الورد ، بمدحه والثناء عليه بكل ما في قلبك من امتنان وعرفان بالجميل . إن ثناءك هذا ينبع من اعماق روحك ، وانك لتشعر باللذة والراحة إذ تفعل ذلك .

والانسان تصيبه حالة مماثلة في الصلاة . لقد سبق أن

قلنـا مراراً اننـا نعتقد ان العبـادة لازمة لمعـرفـة الله ، واذا لم تكمل معرفة الله ، لم تبلغ العبادة مراقي السمو .

هنا تجدر الاشارة الى ان هناك بعـد « الحمد لله » أربـع صفات هي : « رب العالمـين ـ الرحمن ـ الرحيم ـ مالـك يوم الدين » . وكل صفـة منها بـاب الى معرفـة الله ، مما سـوف يرد توضيحه .

ولكن قبـل أن نصـل الى تلك الصفـات ، نجـد ان اختصـاص « الحمـد » بـالله ـ تلك الـذات التي تستحق العبادة والثناء ـ يدل على أرفـع الدرجـات . اي انه الـذات التي يجـدر بنا ان نحمـدهـا ونعبـدهـا ، بصـرف النـظر عن نعمهـا علينا واحسـانها الينـا ، وبصـرف النـظر عن معـرفـة البداية والنهـاية في العلم والمعـرفة ، وخلق الانسـان ، وهذا الكون الفسيح .

لا شـك ان بلوغ هـذه الـدرجـة ليس في متنـاول كـل انسان ، فذاك عـلي بن ابي طالب الـذي يقول : « إلهي مَـا عَبَدْتُك طَمعـاً في جَنَّتِك ولا خـوفاً مِنْ نـارِك ، بَل وَجَـدتُكَ أهلاً للعبادة فَعَبدْتُكَ » .

أي إن عبـادتي لـك ليست لأنـك خلقتني وأحسـنت الي ، وليست لأنـك وعدت عبـادك بأن لهم الجنـة في الـدار

الآخرة ، بل لأنك أنت أنت ، وإنك أهل للعبادة[1] .

يقول سعدي ما معناه :

« إذا كانت عينك من الصديق على احسانه فانت تحب ذاتك لا الصديق . وهذا خلاف « الطريقة» أن يتمنى الأولياء من الله غير الله »[2] .

رب العالمين :

فيما يتعلق بكلمة « رب » لا بد أن نشير الى انه ليس في الفارسية كلمة تقوم مقامها ، فهي قد تكون بمعنى المربي ، ولكن يجب الانتباه الى ان « رب » تأتي من « رَبَبَ » لا من « رَبيَ » . فالمربي مأخوذة من مادة « ربّي » . وقد تأتي أحياناً بمعنى « صاحب » أو « ولي الأمر » كما جاء في قول عبد المطلب : « أنا رَبُّ الإبلِ وللبيت رَبٌّ » .

---

(١) جاء في نهج البلاغة ان عبادات العابدين انواع ثلاثة : « قوم عبدوا الله رغبة ، فتلك عبادة التجار ، وقوم عبدوا الله رهبة ، فتلك عبادة العبيد ، وقوم عبدوا الله شكراً ، فتلك عبادة الأحرار » .

(٢) كر از دوست جشمت به احسان اوست
تو دبند خويشي نه در بند دوست
خلاف طريقت بود كاوليـاء
تمنا كنند از خدا جز خدا

على كل حال ، إن أي اشتقاق من هذين لا يفيد المعنى المتضمن في « رب » ، على الرغم من أن كلاً منهما صفة من صفات الله ، ولكن يبدو ان في كلمة « رَبّ » مفهوماً يؤدي معنى الألوهية ، وكذلك معنى ولي الأمر أو صاحبه ، ومعنى المربي . والله هو وحده ولي أمر العالم كله ، وموصله الى مرتبة الكمال .

لا شك إن الله قد خلق عوالم وموجودات كانت منذ البداية كاملة لا نقص فيها . أي انها لا تملك أية قوة أو استعداد للتكامل ، بل انها قد خلقت متكاملة منذ بدء خلقها ، أي إن « بدءها » و « عودها » شيء واحد ، وهي من حيث كونها مخلوقة ومُبدَعة ، تكون مربوبة لله ، والله ربها .

أما العالم الذي نعيش فيه نحن ، عالم المادة هذا ، فانه عالم متدرج ، يبدأ نظامه من النقص ويتجه نحو الكمال . أي إن « بدءه » و « عوده » ليسا شيئاً واحداً ، بل هما شيئان اثنان . موجوداته مخلوقات الله ، وهي مربوبة له .

وفي الوقت نفسه يختلف عالم الطبيعة عن العوالم الأخرى ، بالنظر لما فيه من التنوع . ولكل نوع من أنواعه عالم خاص به ، مثل عالم الجماد ، وعالم النبات ، وعالم

الحيوان ، وعالم الانسان ، وعالم الأفلاك . وكلها تسير من النقص الى الكمال في حركة مستمرة ، وان أياً منها لم يكن منذ خلقه كاملاً ، وان الله هو الذي يوصل هذه العوالم الى الكمال ، فهو رب العالمين .

يستفاد من القرآن أن هذا العالم عالم التربية . والانسان ، الذي ينقسم بدوره الى مجموعات مختلفة ، منها الصالح ومنها الطالح ، يمر بفترة التربية . وان مما يلفت النظر ان العالم يبدو وكأنه محيط زراعي يصلح لكل انواع البذور ، تنمو فيه وتترعرع . والصالح هو وحده الذي يسير نحو التكامل ، فالطالح (أي الذي يبذر بذوراً طالحة) يمر كذلك في هذا العالم بمراحل تطوره . لقد جاء في سورة اسرائيل :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجّلْنَا لَهُ فِيهَا ما نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْموماً مَدْحوراً (١٨) وَمَنْ أرادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشكُوراً (١٩) كـلاً نُمدُّ وهؤلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (٢٠) ﴾ .

أي إن من يطلب الدنيا ويبذر بذراً دنيوياً فسوف يجعل الله تلك البذور تثمر ، انما الى الحد الذي يريده الله ، وللشخص الذي يشاء . أي ان ذلك لا يتبع نظاماً

قاطعاً بحيث انه يعطي كل باذر بذرة دنيوية ثمراً .

والسبب في ان وصول طالب الدنيا الى نتيجة ليس قطعياً هو ان هذه الدنيا تعج بالآفات ، والتزاحم ، والعقبات ، وليست لتربية امثال هذه البذور . ولكن الله يقول ان من كان هدفه محصوراً بالدنيا وخرج عن مسيرة الانسان الصحيحة ، فان مصيره النار .

ولكن الذي لا يستهدف اهدافاً دنيوية ، فيبذر بذوراً للآخرة ويجتهد في سبيل ذلك ، فان الله لن يضيع عمله ويوصله الى غرضه ﴿ **كُلًّا نُمِدُّ هؤلَاءِ وَهؤُلَاءِ** ﴾ .

وعليه فان نظام هذا العالم قد وضع بحيث ان كل من يبذر بذراً يجد في النظام عوناً على نمو بذرته وتربيتها نفسها ، غير ان بعض البذور تصل الى نتيجة كاملة مئة بالمئة ، وتلك هي البذرة التي توضع على الصراط المستقيم . وثمة بذور فيها إمكانية النمو ، الا انها قد لا تنمو النمو الكامل المطلوب منها . وعلى ذلك فان الذين يخططون لأعمال قبيحة ويصلون الى بعض نتائجها ، لا يمكن ان يحتجوا بأنهم لم يكونوا ليصلوا الى النتيجة لو ان خططهم لم تكن صحيحة . كلا ، ان وصول اية نظرية الى نتيجة لا يدل على صحتها وأحقيتها ، بل هو نظام الكون الذي يقول ﴿ **كلا نمد هؤلاء وهؤلاء** ﴾ .

الرحمن الرحيم :

سبق ان بحثنا بعض الشيء في هاتين الصفتين ، ولعلنا نضيف هنا فنقول ان وصف الله بهاتين الصفتين يتطلب معرفة كاملة بالله ، فالرحمن صفة من كانت رحمته كثيرة ، ولكنها ليست بالضبط بالمعنى الذي نفهمه من كلمة (كثيرة) ، بل المعنى ان كل ما في الوجود قد جاء منه ، وان كل ما يجيء منه خير ورحمة . والرحيم صفة من تفيض رحمته على الانسان دائماً .

هاتان صفتان : أولاهما ترتبط بنظام الوجود ، والأخرى تختص بعالم الانسان . إن الإنسان ليحتاج الى معرفة عميقة جداً حتى يستطيع ان يدرك اتصاف الله بالصفة الأولى بحيث يقدر أن يبصر ارجاء العالم وقد غرقت في فيض رحمة الرحمن ، وحتى يبعد عن نفسه الثنائية لكي لا يقسم العالم الى خير وشر ، بل يرى العالم الذي نشأ عنه وعاءٌ من الرحمن والخير ليس غير . وهذا هو مصداق العدل الالهي .

ينبغي على العبد ان يتذكر دائماً هذا الأمر ، وكما جاء في بعض الأدعية ، كالدعاء الذي يقرأ بعد التكبيرة الخامسة من التكبيرات المستحبة قبل الصلاة :

« لبيكَ وَسَعْدَيك والخير في يَديكَ ، والشرُّ لَيْس اليك » .

فاذا عرفنا الله انه هو الرحمن ، فقد عرفنا العالم على انه المظهر الأتم لحكمة الله البالغة ونظامه الأكمل . على الانسان عندما يصف الله بهذه الصفة أن يرى في نظام الكون نظاماً كله خير ورحمة ونور . أما الشر ، والحقد ، والظلمة ، فهي أمور نسبية وغير حقيقية . لا شك انه ليس بمقدور كل فكر ناضح أن يزعم ان لهُ مثل هذا المنظور الى العالم . وليس بامكان احد ان يكون له هذا المنظور بالقوة أو حتى بالتعبد . فاذا أرادنا القرآن ان نحمد الله بهذه الصفة ، فانه يريدنا ان نعرف الله والعالم بهذه الصورة . وان معرفة كهذه تعني اننا ندرك امراً شامخاً عظيماً كهذا بطريقة صحيحة ، عن طريق العقل والبرهان . وفي هذا كله دعوة ضمنية للتفكير في الالهيات وتأييدها .

أما فيما يتعلق بالصفة الثانية « الرحيم » ، فهنا ايضاً يجب ان نقول ان معرفة الله بهذه الصفة تقتضي ان يكون الانسان على معرفة تامة بموقعه بين الكائنات في هذا العالم .

إن مَا يمتاز به الانسان بين الكائنات ، هو انه الأبن البالغ لهذا العالم . انه ليس الأبن القاصر لهذه الأسرة

ليبقى تحت قيمومة الأب والأم الأجبارية ، وانما هو قد بلغ من الرشد والتعقل الى درجة قيل له ان عليك أنت أن تختار طريقك . بينما نرى الكائنات الأخرى تقع بالأكراه تحت سيطرة عوامل هذا العالم . فالانسان هو وحده الذي يستطيع بعقله أن يكون حراً في اختيار أحد طريقين امامه :

.. ﴿ إنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إما شاكراً وإمَّا كفُوراً ﴾[1] .

فإذا سار الانسان في الصراط المستقيم وطريق الحق ، أصبح تحت رحمة من الله خاصة شاملة ، لكأن العالم قد صيغ بحيث ان السائر في طريق الله لابد أن يكون الله في عونه ، فيهديه وأخذه يده ، ويسبغ على قلبه النور والقوة :

﴿ والَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[2] .

ويهيء له اسباب الرزق وسبله « من حيث لا يحتسب » ،ويبلغ بعد ذلك مرحلة يشعر فيها أنه في مرحلة الأخذ والعطاء مع ربه ، إذ يرى انه كلما ازداد خلوصاً في عمله ، ازدادت عناية الله ورحمته به . تلك هي مرحلة الرضا والتسليم .

---

(١) سورة الدهر ـ آية : ٣ .

(٢) سور العنكبوت ـ آية : ٦٩ .

مالك يوم الدين :

تقرأون في « الرسائل العملية »: إن هذه الآية يجوز أن تقرأ على وجهين : « مالكُ يوم الدين » و « مَلِكِ يَوْمِ الدِّين » . فهل يؤدي هذا الاختلاف في القراءة الى اختلاف في المعنى ؟ .

ملك ومالك لهما في الاستعمالات اليومية معنيان مختلفان ، فالأول علاقة سياسية ، والآخر علاقة اقتصادية . فحيثما يكون الانسان مالكاً لشيء يكون معنى ذلك ان له أن ينال فائدة من ذلك الشيء . أما قول ملك فيعني وجود قوة فوق اخرى لها حق السياسة والتدبير .

غير ان كلا الجانبين يفتقر ان الى الواقعية ، بل هما اتفاق ليس غير . أي اننا اذا قلنا أن فلاناً مالك الدار الفلانية ، فهذا يعني انه اتفق على ان يكون الأمر كذلك في الوقت الحاضر ،واذا قيل ان فلاناً ملك الناحية الفلانية ، فهذا ايضاً لا يزيد على ان يكون مجرد اتفاق واعتبار . وعليه ،فاذا صادف أن تبدل هذا الاعتبار ونقض الاتفاق ، لم يعد لأي منهما وجود ،أي يمكن في لحظة واحدة ان يصبح مالك تلك الدار وملك تلك الناحية شخصين آخرين وباتفاقين جديدين .

ففي حالات مثل هذه حيث تتعين المالكية والملكية في

نطاق الاعتبارات والاتفاقات ، يكون لكل منهما معان ومميزات تختلف عما للأخرى ، أي إن ملك لا تقوم مقام مالك ، ولا هذه مقام تلك ، فههنا واحدة مُلك وواحدة مِلك .

ولكن في حالات اخرى تكون هذه الروابط حقيقية وواقعية . فإذا قال احد، مثلاً ، انه مالك قواه البدنية ، فيعني انه حرفي الاستفادة منها ، أي إن فيه قوة يستطيع استعمالها وقتما يشاء ، كأن يتحدث بها ، وان لم يشأ لم يفعل . وهكذا ترون إن مفهومي ملك ومالك شيء واحد هنا ، أي إننا مالكوا أعضائنا وجوارحنا ، وفي الوقت نفسه هن ملكنا ونحن مسلطون عليها ، وذلك لأنه أمر تكويني وليس مجرد اتفاق .

أما فيما يتعلق بالله ، وهو خالق الكون ، وارادته فوق كل ارادة ، فان توحد المعنى في ملك ومالك أمر بيّن ، وههنا تكون الرابطة الحقيقية بين المالك والمملوك . وقد جاء في القرآن بخصوص يوم القيامة :

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ للهِ الوَاحِدِ القَهَّارْ ﴾(1) .

وفي آية أخرى :

﴿ قُلِ اللّٰهُمَّ مَالِكِ المُلْكِ ﴾(2)

---

(1) سوره المؤمن ـ آية . 11 .

(2) سورة آل عمران ـ آية . 26 .

في هـذه الآية يصبح «ملك» و « مـالك » كـلاهمـا تحت عنـوان « مملوك » . وهـذا هـو معنى « لِمَن المُلكُ » ، فـالـلام هنا لام الأفادة ، أي : من المالك ؟ فيكـون الجواب : الله وهكذا يتّضح ان « مِلك » و « مُلك » ليستـا بعيدتـين بعض عن بعض ، ولا هما تمشيان في خطين منفصلين .

فهـل الله مـالـك وملك في يـوم القيـامـة فقط ، لا في الدنيا ؟ فالله مالك الدنيا والآخرة وملكها معاً ،وانمـا الفرق هو ان الانسان في هـذه الدنيـا لا يملك عيناً تـرى الحقيقة ، لذلك فهو ينظر الى المالكين والملاك نظرة اعتبـارية مجـازية ، ويرى نفسه وغيره مالكاً للأشيـاء وملكا عليها ، فيقول : أنـا مالـك هذه الـدار ، ولكنه عنـدمـا تنكشف لـه حقـائق الدنيا وينظر الى العالم نـظرة واقعية ، عنـدئذ سيـرى ان كل مـالـك وملك مصـطنـع ومـا مـالـك أو ملك حقيقي الا وجوده :

﴿ وَلَقَدْ كَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ اليَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[1] .

والرواية التالية تؤيد هذا الموضوع أيضاً :

« عن جـابر عن أبي جعفـر (عليه السـلام) أنه قـال : الأمـر يومئـذ واليوم كله لله . يـا جابـر اذا كان يـوم القيامـة

(١) سورة الاحقاف ـ آية : ٢٢ .

بادت الحكام فلم يبق حاكم إلا الله »[1] .

إياك نعبد وإياك نستعين :

على الرغم من أن المرء يحسب ان التوحيد واحد من المسائل الاسلامية ، وان هناك آلاف المسائل الأخرى الى جانب التوحيد ، ولكن النظرة الدقيقة تكشف له ان الاسلام كله توحيد ، أي ان جميع المسائل ، سواء أكانت ترتبط بأصول العقائد ، أم ترتبط بالأخلاقيات وبالتربية وبالتعاليم اليومية ، كلها توحيد .

ثمة اصطلاح في المنطق اسمه التحليل والتركيب ، وهما كلمتان مأخوذتان من ميدان العلوم الطبيعية ، حيث يكثر استعمالهما . والمقصود بهما هنا هو إنه مثلما يوجد تركيب وتحليل في عالم المادة ، أي ان جميع المركبات قابلة للتحليل الى عناصرها الأولية ، وانه اذا أعيد تركيب تلك العناصر عاد المركب ثانية ، كذلك الأمر في الآراء والأفكار .

يقول الفلاسفة ان أفكار البشر وآراءهم تعود جميعاً الى أصل واحد هو عدم التناقض ، أي إذا حللناها فان رجوعها الى هذا الأصل أمر حتمي .

---

(١) الميزان ج٢ ص٢٢٩ .

إن في الاسلام أصلاً كهذا هو التوحيد ، أي إننا إذا حللنا جميع المباني الاسلامية لعادت جميعها الى التوحيد .

إذا أخذنا النبوة والمعاد ، وهما أصلان من أصول العقيدة ، أو لو حللنا الأمامة ، لرأينا انها هي التوحيد .

إذا بحثنا القواعد الأخلاقية أو الأحكام الاجتماعية الاسلامية ستتضح انها شكل من اشكال التوحيد .

إلى هنا نكتفي بهذا المقدار من هذا البحث ، مؤجلين التفصيل فيه الى مناسبة أخرى ، كما إن في « تفسير الميزان » تفاصيل أكثر .

التوحيد النظري والتوحيد العملي :

في الاسلام توحيدان : نظري وعملي . التوحيد النظري يتعلق بعالم المعرفة والفكر ، أي معرفة الله بالوحدانية . والتوحيد العملي هو جعل الذات عملياً ذاتاً واحدة باتجاه الذات .

وبعبارة أخرى ، التوحيد النظري يعني معرفة وحدانية الله ، والتوحيد العملي يعني بلوغ وحدانية الإنسان ! إن النقطة التي أود ذكرها هي ان ما ذكرناه حتى الآن من سورة الفاتحة يتعلق بالنوع الأول من التوحيد ، أي التوحيد النظري ، ولكننا من هنا (إياك نعبد) نبدأ ببيان التوحيد العملي . وههنا يستطيع الانسان ان يدرك عظمة

هـذه السورة الصغيـرة التي لا نظير لها ، والتي تعد نمـوذجاً واضحـاً لأعجـاز هـذا الكتـاب الكـريم . الحق ان المـرء لا يستـطيع ان يمنـع نفسـه من الـدهشـة والعجب ، إذ كيف يمكن لـرجل أمي ، لم يـدخل مـدرسة وعـاش في محيط أمي يجهـل كل شيء عن العلوم والحضـارات ، أن يجري لسـانـه بـذلك العمق الـذي حمل علماء الـلاهوت عـلى الأنغمـار في التفكـير والتأمـل ، وبتلك السلاسـة والعذوبـة ، بحيث أن المرء لا يشبع أبداً من تكراره .

واليكم توضيح ذلك :

إن الجمـل والكلمـات التي مـرت بنـا من أول السـورة حتى « مـالك يـوم الدين » كـانت مجموعـة من المسائـل التي تتعلق بمعــرفـة الله ، فهـــو « الله » وهـــو« الــرحمن » وهـــو « الرحيم » وهو « رب العالمين » وهو « مالك يوم الدين » . ويضـاف الى ذلك أنـه « محمود » عـلى الاطلاق ، وكـل حمد وشكر يختص به .

في الــواقـع ان جميــع الألهيـات قــد تضمنتهــا هــذه الكلمات ، فهي تشمل أهم المسائل الالهية .

لقـد صدق العلماء والحكـماء عندمـا استنبطوا بـأن قيـام القرآن بطرح هـذه المسائـل انما هـو دعوة الى ولـوج أعماقـه وسبر أغوار حقائقه . لا يريدنا القرآن أن نـدير كلمـاته عـلى

السنتنا في لقلقة فارغة ، بل يريدنا ان ندرك حقائقها .

إن من يذكر الله في صلاته بهذه الصفات ، فانه يدّعي ،في الحقيقة ،بأنه يعرف الله بصفاته وأسمائه تلك .

إن معرفتنا بأنه هو « لله » تعني معرفتنا ذاته الكاملة الجديرة بالعبادة ، وإن كل الكائنات تتوجه اليه بالفطرة . وبعبارة أُخرى ، هي معرفة موجود مطلق الكمال والأعتراف به ، وعلى انه منزه عن كل نقص وعدم وحاجة ، ولذلك فان كل شيء منه وإليه .

أما معرفتنا بأنه (رحمن) فيجب حقاً - كما سبق لنا قوله - أن يكون الانسان دقيقاً جداً في تفكيره حتى يقدر على معرفة الله متصفاً بهذه الصفة . أي أن يدرك أن الوجود بكلية مظهر من مظاهر (رحمانيته) وأن ما يصدر عنه ليس إلا الخير والرحمة ، وان كل موجود من حيث كونه موجوداً ، ومن حيث كونه منتسباً الى ذات الله ، ومن حيث كونه أمراً واقعياً ، ليس سوى الخير والرحمة . أما الشر والحقد وغيرهما فلها جانبها العدمي أو النسبي أو هي حالات اضافية ، وليس لها وجود في نفس الانسان[1] .

معرفة الله على أنه (رحيم) تعني إن من يصف الله

---

(١) للحصول على تفاصيل أوفى راجع « العدل الإلهي » للأستاذ مطهري .

بهذه الصفة يدّعي بأنه قد بلغ مرحلة من المعرفة بحيث إنّه لا يدرك نظام الخلق وصدور الأشياء فحسب على أنها من مظاهر ذات الله ، بل ويدرك أيضاً أن نظام رجوع الأشياء إلى الخير نظام خير ورحمة أيضاً ، أي إن الكائنات قد جاءت من الرحمة وإلى الرحمة تعود .

وهذا يعني ان الرحمة سابقة على النقمة ، وبعبارة أخرى ، لو عرفت النقمة أو العذاب معرفة جيدة لظهرت أنها رحمة في لبوس نقمة .

بتعبير آخر : إن الله سبحانه وتعالى يتصف بصفات الجمال ، كالعلم والقدرة والحياة والجود والرحمة ، ويتصف بصفات الجلال ، فهو القدوس وهو الجبار وهو المنتقم . . .

وهو ، سبحانه وتعالى ، ليس ثنائياً في ذات وجوده ، أي إنه لا ينقسم الى نصفين ، فنصف رحيم وخير وجواد وربوبية ، ونصف قدوس وجبار ومنتقم . كما انه في الوقت الذي يكون فيه خيراً وجوداً ورحمة لا يكون جباراً ومنتقماً ، بل ثمة تقدم وتأخر في اسمائه وصفاته .

لقد أجرى أهل الحكمة والمعرفة بحوثاً عميقة كثيرة ولافتة للنظر في هذا المجال ، تعتبر من أثمن نتائج الفكر البشري ، لأنها خلاصة أعمال اشخاص وهبوا قرائح

عبقرية ، وقدرة على المتابعة بغير كلل ، إضافة الى التعمق والتمحيص للوصول الى حقائق الأمور .

أجل هنالك ضرب من التقدم والتأخر في أسماء الله وصفاته ، أي أن بعض الأسماء والصفات تلدهن أسماء وصفات أخرى . وعلى العموم ، تتقدم الصفات الجمالية على الصفات الجلالية ، فهذه وليدة الأولى . أما الذي تتقدم فيه جباريته وانتقاميته على كل شيء فهو (يهوه) إله اليهود الذي اصطنعوه ، وليس « الله » الحقيقي ، رب العالمين ، الذي يعرفه القرآن .

ومن هنا يمكن أن ندرك لماذا يقترن « اسم الله » في القرآن بالرحمن الرحيم ، لا بالجبار المنتقم ، وذلك لأن بيان الوجود في نظر القرآن هو بيان الله الرحمن الرحيم ، وما جبروته وانتقامه إلّا من مظاهر رحمانيته ورحيميته .

من الواضح ان رحمة الرحيم هي الرحمة التي تشمل جميع الكائنات عند رجوعها الى الله ، وهي تشمل بالدرجة الأولى أهل الايمان ، وهم الذين كل ما يصلهم بالظاهر والباطن خير ورحمة ، رحمة ليست في صورة نقمة ، بل رحمة مطلقة لا نسبية .

أما القول بأن الفرق بين « الرحمن » و « الرحيم » هو أن الأول يختص بالدنيا ، والثاني يختص بالآخرة ، أو

القول بأن « الرحمن » تشمل جميع الناس بكفارهم ومؤمنيهم ، وإن « الرحيم » تشمل المؤمنين دون غيرهم ، فالمقصود من ذلك هو ما أوضحناه من قبل .

إن الدنيا والآخرة ، من حيث كونهما عالمين ، لا يختلفان ، حتى يقال إن أحدهما يعتبر الرحمة تعود على (الرحمن) ، ويرى الآخر انها تعود على « الرحيم » ، أن يقال إن الرحمة التي يشترك فيها الكافر والمؤمن مأخوذة من مادة واحدة ، وإن الرحمة التي تختص بالمؤمنين دون غيرهم مأخوذة من مادة أخرى .

ليس في عالم الوجود تقسيمات كهذه . إن الوجود ينقسم ، من حيث الرحمة ، الى القول بأن في العالم « مجيئاً » وأن فيه « رجوعاً » . ففي العالم « منه » و « اليه » . فالله رحمن يعني « المجيء منه » وهو مظهر من مظاهر الرحمة . والله رحيم يعني « الرجوع اليه » . وهو مظهر من مظاهر الرحمة أيضاً . وحتى جهنم والعذاب باعتبارهما من مظاهر جبروت الله وانتقامه ، فانهما وليدتا رحمته . وليس بالمستطاع ايضاح أكثر هنا .

مالك يوم الدين :

إنه مالك يوم الدين . هنا يطرح نوع آخر من

المعـرفة . وهنـا العبد يـدّعي معرفـة نهايـة الخلق . أي انـه يعـرف يوم الجـزاء حيث ينكشف عدم اصـالة أيـة وسيلة أو سبب ، سوى الله المالك والملك .

كـل هـذا والـذي قيـل من قبـل ينـطوي تحت لـواء التـوحيـد النـظري ، أي التـوحيـد الـذي هـو من مقـولـة المعـرفة ، وهي معـرفة لازمـة وضـروريـة ، اذ لا ينبغي أن يقـال انها مـرحلة فكـريـة لا ضـرورة لهـا . ابـداً ، لأن الاسلام يرى ان للمعـرفة نفسهـا اصالتهـا ، وانه لـولا هذه المرحلة لما تقدم الانسان .

لكن هـل تكفي هذه المـرحلة ؟ أي اذا عرف الانسـان وفهـم ، فهل يعد موحداً ؟ .

كـلا ، إذ ان هذه المعـرفة والفهم ليستـا سوى المقـدمة لكي يكـون مـوحـداً . أي إن عليـه أن يعـرف وأن يفهـم لكي يصبح موحداً (التوحيد العملي) .

وعندما نقـول « إياك نعبـد » نكون قـد بدأنـا التوحيـد العملي ونريد أن نعلن الوحدانية .

أصل كلمة عبادة :

يطلق في العربية على حالة الشيء الـذي يكون طيعـاً ،

ليناً ، ومطيعاً ، بحيث لا يعصى ولا يقاوم ولا يعتدي ، اسم حالة التعبد .

لم تكن الطرق في الأيام القديمة مثلما هي عليه اليوم ، حيث تقوم مكائن خاصة بتعبيدها ومن ثم يكون السير عليها . بل كان السير هو الذي يصنع الطرق ، لذلك فقد كانت الطرق في أوائل أيامها مليئة بالأحجار والصخور والأشواك ، مما كان يعيق المرور ، ولكن بازدياد المرور تصاغرت تلك الأحجار ، ولانت ، ولم تعد تعترض سبيل المارين ، ولا تؤذي أقدام الناس وحوافر الحيوان ، إذ غدت مرنة طيعة ، وهي التي كانت أحجارها من قبل شكسة ، قلقة ، عاصية . أما بعد أن أصبحت هينة طيعة ، أطلق عليها اسم : الطريق المعبد[1] .

والانسان العبد والمعبد يعني الانسان المطيع المسالم الطيع الذي لا يعصى ، فهي حالة الاطاعة والانقياد والرياضة ، وعدم العصيان مقدار ذرة ، تلك الحالة التي يجب ان يتصف بها الانسان أمام خالقه ، فان تكون عبداً لله يعني أن تكون في تلك الحالة نحو الله تعالى . أما التوحيد في العبودية والعبادة ، فيعني انك لا تكون في تلك الحالة امام أي كائن وتحت أي آمر ، بل ان تكون في حالة

---

(١) يقال طريق معبد أي مذلل ـ مفردات راغب .

عصيان وتمرد في غير حضرة الله . وعليه ، على الانسان أن يكون في حالين متضادين : التسليم المطلق لله ، والعصيان المطلق لغير الله . وهذا معنى اياك نعبد . أي انني اعبدك أنت وحدك ، ولا اعبد غيرك .

لا بد هنا ان نشير الى ان اطاعة الذين أوجب الله طاعتهم ، كالأب والأم ، والأمام القائد الجامع للشروط ، تعد كلها في الواقع في حكم طاعة الله ، فما دام الله هو الذي يأمرنا فعلينا ان نطيع وكل ما يشبه هذا يعتبر عبادة لله ، ولكن كل ما يقف بازاء الله عرضياً ، لا طولياً ، شرك .

أنواع الشرك والتوحيد :

ورد في القرآن ذكر انواع من الشرك ، نشير الى بعض منها بحيث نلقي مزيداً من الضوء على معنى التوحيد العملي بصورة اجمالية :

١ ـ ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾[١] .

في هذه الآية عد الانسان العابد لشهواته مشركاً . وفي هذا يقول مثنوي :

---

(١) سورة الفرقان ـ آية : ٤٣ .

« أم الأصنام صنم النفس
فتلك أفعى وهذه تنين
النفس صخر وحديد والصنم الشرر
ومن الماء يأخذ حكمه الشرر
كيف يسكن الصخر والحديد الماء
كيف يأمن الانسان مع هذين »(١)

وعليه عندما نقول « إياك نعبد » ننفي بذلك العبودية لغير الله ، ونؤيد في الوقت نفسه كوننا نطيع أوامره هو ، ولا نطيع أوامر ميولنا وأهوائنا وشهواتنا .

٢ ـ ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ ﴾(٢) .

في الوقت الذي يذم فيه القرآن اليهود والنصارى ، يقول انهم ، بغير أن يكون عندهم أي أمر من الله ، اتخذ

---

(١) مادرِ بُت ها ، بُتِ نَفسِ شُماست
جُونكه آن بُتْ ، مارُواين بُتِ ازدَهاست
آهَنُ وَسَنْك است نفس وبت شرار
آن شَرار از آب ميكيرد قرار
سنك وآهن زاب كى ساكن شود
آدمى با اين دوكى أيمن شود

(٢) سورة التوبة ـ آية ٣١ .

اليهود علماءهم والنصارى رهبانهم آلهة يعبدونهم .

إن الذي نعلمه هو أن اليهود والنصارى لم يعبدوا علماءهم وقد يسيهم مثلما يعبد عبدة الأصنام أصنامهم ، أي انهم ، مثلاً ، لم يسجدوا لهم ، ولكنهم كانوا يتعبدون أمامهم . أي انهم كانوا يطيعونهم مستسلمين بغير اذن من الله ، وكانوا في الواقع يطيعون أهواءهم وميولهم ، فما كان يأمر به أولئك اتباعاً لشهواتهم كان هؤلاء يطيعونهم، يقول الله إن الطاعة من الحقوق الخاصة به فاذا ما جاء أحد بأمر من الله فلا بد من طاعته ، ولكن الله لم يرسل الأحبار والرهبان بأمر منه ، فلماذا يطيعونه ؟ .

فبقولنا « إياك نعبد » نخاطب الله قائلين اننا لن نعبد أحداً باسم الروحانيين ، أو القديسين أو أي اسم آخر، ولا نطيع أحداً طاعة عمياء ، انما نطيع من أمرتنا أنت بأطاعته ، ولا نطيع من لم تأمرنا بطاعته . كنا نطيع رسولك، فذلك لأنك أنت الذي أوجبته علينا . وإذا كنا نطيع الأئمة الأطهار على أنهم أولوا الأمر منا ، فذاك بأمر منك . واذا أطعنا العلماء المجتهدين جامعي الشروط ، أي العلماء العدول المتقين ، فذلك لأن الرسول والأئمة الأطهار ، الذين أوجبت علينا اطاعتهم ، قد أمرونا بذلك .

٣ ـ ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالُوا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا

وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ ﴾(١) .

هذه الآية هي الرسالة التي أرسلها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) سنة خمس أو ست هجرية الى ملوك العالم . انها مظهر من مظاهر التوحيد العملي في العالم : ليس للانسان أن يتخذ إنساناً آخر رباً ، ولا أن يكون انسان مربوباً لآخر . وهكذا فان « اياك نعبد » تعني : إلهنا أنت وحدك ربنا المطاع ، وليس لنا رب اجتماعي ، ولا نضع انساناً بإزائك ، ولا نطيع أمراً غير أمرك .

٤ - ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾(٢) .

عندما واجه موسى بن عمران فرعون ودعاه للأيمان بالله ، رد عليه فرعون غاضباً : أولست الذي كنت في بيتي وكبرت تحت يدي ، وقمت بعملك الكبير القبيح (يقصد قتل القبطي) ؟ فأجابه موسى : أتمن عليّ ذلك حتى تستعبد بني اسرائيل ؟ أتريد لي الصمت لأنك اتخذت بني اسرائيل عبيداً لك ؟ .

---

(١) سورة آل عمران ـ آية : ٦٤ .

(٢) سورة الشعراء ـ آية : ٢٢ .

تلاحظون أن موسى (عليه السلام) يصف موقف فرعون من بني اسرائيل على انه (تعبيد) مع ان بني اسرائيل لم يسجدوا لفرعون ، انما كان قد أذلهم وأجبرهم على طاعته والعمل له ، سالباً منهم كل حق وحرية اختيار ، مستغلاً اياهم ، فكانوا بهذا المنظور ، مستسلمين لفرعون مطيعين له . لذلك فان « اياك نعبد » تعني : ربنا إننا لن نستسلم للتعبيد ، ولا للإذلال ، ولا للإكراه على العمل ، ولا للطاعة ، ولا لسلب حق الاختيار والحرية .

هذه هي نماذج مما ورد في القرآن توضح معاني التوحيد العملي . فالتوحيد العملي هو ذلك الذي يصطلح عليه علماء الاسلام بالتوحيد في العبادة ، أي التوحيد في الواقع الخارجي ، بمعنى ان واقع وجود الانسان قد توحد أيضاً .

خلاصة ما قيل هو إنه لا يكفي في الاسلام أن يكون المسلم موحداً في مرحلة الرأي والفكر فيعرف الله في ذاته وصفاته وأفعاله بالوحدانية ، وأن يكون قادراً ، إن طلب منه ، على ان يتحدث ستة شهور حول معرفة الله . ان شخصاً هذا شأنه لا يملك من التوحيد الا نصفه ، والنصف الثاني هو أن يكون في الأفعال توحيدياً أيضاً ، بل ان يكون موحداً . عندئذ يكون قد عرف الله بكمال صفاته ، ويكون موحداً في التسليم بطاعته ويمكن ان نقول

انه أصبح موحداً .

ههنـا ، كما قلنـا من قبل ، تبـدو عظمـة سورة الفـاتحة وتتضـح ، وانه لمـدعاة للعجب حقـاً ان يستطيـع شخص لم يقـرب الدرس عمـره ، ولا خـالط فيلسـوفـاً ، ولا جـالس عالماً ، أن يأتي في أولى سور كتابه بكلمـات ، وأن يرتبهـا ، بحيث يضع رسالتـه كلها في مقـطوعة صغيـرة ، وأن يصوغ فكرة التوحيـد النظري بـأرفع جـلالها في جملة قصيـرة ، وأن يبين التوحيد العملي في جملة « اياك نعبد » القصيرة ! .

حصر العبادات :

في اعـراب جملة « إياك نعبـد » تكون ايـاك مفعـولاً بـه للفعـل نعبد ، فكـان حقها أن تـأتي بعد الفعـل ، فتكون الجملة « نعبـدك » ، ولكنها لـو جاءت هكـذا لكان المعنى : ربنا إننا نعبدك ولكن رجال الأدب واللغة يقولـون : تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر

وهذا يختص باللغة العربية ، ففي الفارسية مثله أيضاً لذلك فان معنى الجملة يصبح : ربّنا نعبدك وحدك ونستسلم لك ونطيعك ، ولا نطيع أمراً لا يكون صادراً عنك . فتلك الجملة إذن جملة واحـدة بـدلاً من أن تكـون جملتـين : جملة مثبتة : نستسلم لله ، وجملة منفية : لا نستسلم لغير الله .

وعلى ذلك نجد في هذه الجملة شعار التوحيد الذي يجمع الايمان والكفر ، كقول المسلم لا إله إلا الله ، حيث يبرز الايمان والكفر معه ـ الايمان بالله والكفر بغير الله .

لقد جاء في آية الكرسي :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ ، فَمَنْ يَكْفُر بِالطَّاغُوتِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَىٰ ﴾(١) .

الايمان في الاسلام ، بغير الكفر ، لا يكون عملياً ، إذ يجب دائماً أن يكون بجوار التسليم لله انكار لمظاهر الطغيان ، حتى يكتمل الايمان .

ضمير الجمع :

في هذه المرحلة عند بلوغ التوحيد العملي ومرحلة (تكوّن) الانسان ، تجدر الاشارة الى نقطة لافتة للنظر ، وهي ان الفاعل في (نعبد) ضمير يدل على الجماعة ، فلم يقل (اعبد) فيكون الفاعل عندئذ مفرداً ، أي لم يقل « انا اعبدك وحدك » بل قال « اننا نعبدك وحدك » ففي هذا المقام ، مقام صنع الانسان وصياغته ، تجري عملية صنعه في ضوء معرفة الله والتوجه اليه ، لا في حالة اغفاله

(١) سوُرة البقرة ـ آية ؛ ٢٥٦ .

وعدم معرفته ، في مضمار العمل والنشاط ، لا بالنظرية والفكر المحض .

يصاغ الإنسان في خضمّ العمل الاجتماعي وبمسايرة المجتمع الموحد والانسجام معه ، وليس منفصلاً عن قافلة أهل التوحيد ان الإنسان كائن فكري إلهي ، عملي ، واجتماعي .

فالانسان بغير الفكر والمعرفة ليس انساناً حقيقياً . ان الانسان المنقطع عن الله والغافل عنه ليس انساناً ان انسان الفكر الالهي المنقطع عن العمل ليس انساناً حقيقياً كذلك ، انه انسان ناقص ، بمثل ما هو ناقص ذلك الانسان المفكر الذي يعرف الله معرفة عملية ، ولكنه منقطع عن المجتمع الموحد . لذلك فان معنى جملة « اياك نعبد » في الحقيقة هو :

ربنا ، نحن أناس المجتمع الموحدين، نسير في حركة متناسقة ومعاً متوجهين اليك بآذان صاغية لأوامرك .

إياك نستعين :

منك وحدك نريد العون ، ولا نريد العون من غيرك .

هذه الجملة تفيد التوحيد في الاستعانة ، ومعنى ذلك

هو اننا نطلب العون والمساعدة منه واننا نعتمده وحده .
هنا يمكن أن نطرح سؤالاً ويمكن ان يطرح هذا السؤال على صورتين :

الأولى عن أصل الاستعانة . يرى علماء التربية والتعليم وعلماء الأخلاق ، ان الانسان يجب أن يعتمد نفسه ، لأن اعتماد المرء غيره والاستعانة بالآخرين يجعل منه انساناً ضعيفاً واتكالياً ، بخلاف اعتماد النفس الذي يوقظ فيه القوة والحيوية .

فبموجب هذه القاعدة ينبغي على الانسان ان يتكل على نفسه ، لا على غيره ، سواء أكان اتكاله على الله أم على غيره . ولهذا فان علماء اليوم يرون أن كلمة (توكل) ، التي تعني التوكل على الله ، وسلب التوكل على النفس ، تعتبر ذات مضمون سلبي لا أخلاقي .

ويمكن أن يطرح هذا السؤال بصورة أخرى : لماذا ينبغي ألّا نطلب العون من غير الله ؟ لماذا ينبغي ألّا نعبد غير الله ، ولكن ما المنطق في ألّا نطلب المساعدة من غيره ؟ لقد جعل الله العالم عالم الأسباب ، وجعل الناس يحتاج بعضهم بعضاً ، فلا مندوحة عن طلب عون الآخرين في سدّ الحاجات اليومية وغيرها .

للإجابة على هذا يجب أن نقول : ليست القضية هكذا ، وانما هي شيء آخر ، فليس كل طلب للمعونة وكل توكل على الآخرين قبيحاً ، أبداً . بل إن الله قد خلق الإنسان محتاجاً الى غيره من خلق الله ، أي ان المجتمع الانساني قد بني على أن يكون الناس محتاجين بعض الى بعض ، وانه لمن هذا المنطلق أننا نرى ان التعاليم الاسلامية تحثّ على التعاون . لقد جاء في القرآن المجيد :

﴿ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾(١) .

وكلمة « التعاون » من مادة « عون » ، ولو كانت الاستعانة بغير الله غير جائزة بكل الحدود ، لما حث الله الناس على التعاون لكونهم يحتاج بعضهم الى بعض ، ولذلك فلا بد أن يتعاونوا فيما بينهم .

جاء في الأخبار ان رجلاً دعا الله بالدعاء التالي وهو في حضرة أمير المؤمنين (عليه السلام) : اللهم لا تحوجني إلى خلقك . فقال الامام : لا تقل هذا . فقال : فكيف أقول ؟ فقال الامام : قل اللهم لا تحوجني الى لئام خلقك .

وذلك لأن الجملة الأولى مستحيلة ما دامت طبيعة الانسان وتكوينه الاجتماعي يقتضيان التعاون . جملة

---

(١) سورة المائدة ـ آية ؛ ٢ .

(إيـاك نستعـين) لا تقـول إن عـلى الانســان ألاّ يستعـين بالآخرين ، فما هي المسألة ؟..

إن مـا في الآيـة هو ان الاعتماد النهائي ، وان مـا يتكـل عليه قلب الانسان ، اي ما يتكل عليـه الانسان في نفســه ، ينبغي ان يكـون الله ، وأمـا الـذين يستمـد منهم العـون في الدنيا فانما هم وسـائل . فـالانسان نفسـه ، وطاقتـه ، وقوة عضـلاته ، وقـوة فكره ، كلهـا وسائـل خلقها الله ووضعهـا تحت تصـرفـه ، ولكن الأمـور بيـد الله . لذلك فقـد يتكـل الانســان في دنياه عـلى وسائـل كثيـرة ، ثم يخيب ظنـه فيهـا لأنها لم تقدم له العـون الذي كـان ينتظر . بـل قد يعتمـد قـواه الخـاصـة ، ولكنـه يجـدهـا قـد خيبت أمله . إن القـوة الوحيدة التي يستـطيع الانسـان أن يتكل عليها وينظم بـرنامجـه معها دون خوف ، هي الله .

جـاء في التاريخ انــه في احـدى الحروب ابتعـد النبي (صـلى الله عليه وآلـه وسلم) قليـلاً عن المعسكـر وارتقى مرتفعاً من الأرض وتمدد ليستريـح ، فغلبه النـوم . واتفق أن مـر به أحـد فرسان العـدو الشجعان ، فـأبصر الـرسـول ، فعرفه ، ففرح بذلك وقال في نفســه إنه سيقتله . وفيـما كان الـرسول نـائماً وقف هـذا على رأسه وصـاح به : يـا محمد ، أهذا أنت ؟ .

ففتح الرسول عينيه ، وقال : أي والله إنه أنا .
فقال الرجل : فمن تراه يقدر على خلاصك مني ؟
فقال الرسول دون تردد : الله .
وإذا لم يكن الرجل ينتظر هذا الرد قال له : سوف نرى . وتأخر خطوة حتى تزداد ضربته قوة ، واذا به يعثر بصخرة ويقع على الأرض. فأسرع الرسول يقف على رأسه وقال : فمن تراه يقدر على خلاصك مني ؟ وعندها قال الرجل مفتوناً : كرمك . فعفى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عنه .

خلاصة القول هي ان هذه الآية لا تعني ان الانسان يجب ألّا يمد يده طلباً للعون أبداً ، ولكنه يجب الّا ينسى ، وهو يطلب العون ، سبب الأسباب ، وأن يدرك ان الوسائل كلها بيده .

إهدنا الصراط المستقيم :

إننا لكي نلقي الضوء على الصراط المستقيم يجب ان نبين بعض النقاط :

١ ـ كل الموجودات تسير في مسيرة كونية لا ارادية حتمية نحو الله في صيرورة :

﴿ ألا إلى الله تَصِيرُ الْأُمُورُ . وإنَّ رَبَّكَ

الْمُنْتَهَىٰ ﴾[1] .

والانسان لا يخرج عن هذا بحكم كونه من الموجودات :

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيه ﴾[2] .

٢ ـ هنالك بين الطرق الكثيرة طريق مستقيم لا حب واحد ، هو طريق السعادة ،وهو اختياري ، أي ان على الانسان أن يختاره بنفسه .

٣ ـ بما ان ما يختاره الانسان هو طريق من الطرق . فانه لذلك يتحرك في مسيرة ويطوي الطريق نحو هدفه . وبعبارة أخرى ، انه يريد أن يتقدم نحو الكمال . وعليه فان الانسان كائن يطلب الكمال ويبحث عنه . فجملة : إهدنا الصراط المستقيم تعني : ربّنا ارشدنا الى الطريق المستقيم الذي يوصلنا الى التكامل .

٤ ـ طريق التكامل طريق يجب أن يكتشف ، لا أن يبتدع ، بخلاف نظرية الوجوديين التي تدعي انه لا وجود لأي طريق ولا لأي هدف ، وإن الانسان هو الذي يخلق

---

(١) سورة الشورىٰ ـ آية : ٥٣ .

(٢) سورة الانشقاق آية : ٦ .

بنفسه مكانة وهدفاً وطريقاً ، فهو نفسه خالق الهدف وخالق الطريق وخالق الكمال ، أي انه هو الذي يخلق كمال كماله وقيمة قيمته . في نظر القرآن الكمال والطريق ، وكمالية الهدف ، وتقويم القيمة ، متعينة منذ بدء الخليقة والوجود ، وعلى الانسان أن يكتشفها ، وأن يعثر على الهدف ، ويقطع الطريق .

٥ ـ الطريق المستقيم هو طريق وجهته معروفة منذ البداية ، بخلاف الطرق غير المستقيمة المنحنية أو المتعرجة أو المنكسرة التي يفترض فيها أيضاً أن توصل الانسان الى الهدف بعد كثير من تعدد الوجهات . وعلى ذلك فان طريق الانسان نحو الكمال ليس ذلك الطريق الذي يمر عبر الأضداد والانحراف من ضد الى ضد كما يقول الدايلكتيكيون .

٦ ـ إن القول بأن طريق التكامل طريق يجب أن يكتشف لا أن يبتدع لا يعني انه كالطرق المكانية ، وانه كان موجوداً قبل وجود السائر ، ومخططاً ، وذا معالم كالشوارع ، وان على الإنسان أن يمشي فيه بل يعني وجود مسير بوجود السائر ، يوصل إلى الكمال الحقيقي الذي يقترب من حضرة الله ، أي ان في جبلة الإنسان استعداداً فطرياً لبلوغ الكمال الحقيقي ، كالاستعداد الكامن في نواة التمر للتخلق والنمو شجرة كاملة .

٧ ـ على الرغم من أن للانسان استعداده الفطري ، الا انه محتاج الى المرشد الهادي . ذلك لأن الانسان يختلف عن جميع الكائنات ذوات الاستعداد الفطري اختلافاً رئيساً .

فالموجودات الأخرى طريقها في الطبيعة واضح مرسوم ، وليس امام أي منها الا ان يسير في الطريق المرسوم ، وليس الانسان كذلك . ويعبر عن ذلك في الفلسفة بمقولة : ان لكل موجود طبيعة ، عدا الانسان ، فانه لا طبيعة له .

يصر الوجوديون على القول بأن الانسان كائن عديم الماهية وعديم الطبيعة . لقد سبق لنا أن بحثنا هذا الموضوع في مكانه ، وأثبتنا انه ليس صحيحاً بالشكل الذي يشرحونه .

إن للانسان طبايع مختلفة ومتضاربة ، وعليه ان يختار طريقه من الطبائع العليا والسفلى أما الحيوانات الأخرى فلم يعهد اليها بحرية الاختيار ، بل الحصان والشاة والقطة الكلب لكل منها غرائز خلقت معها وهي التي تعين طريقها ، ولذلك نرى كلاً منها في كل ارجاء الأرض تختص بطبائع وميول موحدة ، وهي متشابهة في أفعالها وسلوكها . فالنحل والنمل لكل منها عاداتها في بناء مساكنها واعداد غذائها ، لا تتحول عنه مدى الدهر .

ولكن امام الانسان مئات الطرق والأساليب، له أن يختار منها ما يشاء .

لقد جاء في سورة الليل : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ .

لا شك إن هذا دليل على كمال الانسان ، لا نقصه .

بقي علينا أن نرى ان كان هذا يستلزم الاّ يكون للانسان أي طريق مطلقاً .

على الرغم من ان الماديين يرون هذا الرأي ، الا أن القرآن لا يقبل بذلك . يقول القرآن ان هناك مساراً مرسوماً بين الانسان والله ،وهو مسار كمال الانسان. إن أمام الانسان ألوفاً من الطرق ، غير ان واحداً منها هو الطريق المستقيم اللاحب الذي يتجه نحو الله وينتهي اليه . إلا أن للانسان ملء الحرية في الاختيار ، فان اختار الطريق المستقيم فيها ،وإلاّ فان جميع الطرق الاخرى غير صحيحة ومضللة .

هنالك حديث يروى عن الرسول الكريم انه كان يوماً جالساً وحوله جمع من الناس ، وراح الرسول يرسم خطوطاً على الأرض ، وكان واحداً منها مستقيماً والخطوط الأخرى غير مستقيمة ، ثم قال : هذا خطي دون باقي الخطوط .

هـذا هـو السر في ان الـظلمـة تـرد في القـرآن بصيغــة الجمـع ، والنـور بصيغـة المفـرد : ﴿ الله وَلِيُّ الَّـذِينَ آمَنُـوا يُخْـــرِجُهُمْ مِنَ الـظُّلُمَـــاتِ إلىٰ النُّـور ﴾ فـــطرق الضـــلال متنوعة ، وطريق الحق طريق واحد .

هنـا تتجلى الحـاجة الى هـداية الأنبيـاء ، اذ ان الطريق المستقيم الـــذي يـوصـــل الانســان الى الكمـــال النهـائي لا يستطيع الانسان الاهتداء إليـه بغير هدايتهم ، وهـم الذين أرسلهم الله لهداية الانسان .

يقول « تفسير الميزان » أن كلمة « سبيــل » قد وردت في القـــرآن بمعنى « الــطريق » ولـكنــه يختلف في المـعنى عـن « الصـراط » ، ولـذلـك فقـد يـأتي « السبيـل » في صيغــة الجمـــع ، ولكن لم يـرد « الصـــراط » إلاّ بصيغـة الفـرد . والسبيـل هو ذلـك الطريق الفـرعي الذي ينتهي الى الـطريق الرئيس . والصراط هـو ذلك الـطريق الفرعي الـذي ينتهي الى الطريق الرئيس . والصراط هو ذلك الطريق الـرئيس .

قـد لا يكون للوصول الى نقطة مـا غير طـريق واحد ، غـير أن الـطرق الفرعيـة التي تـأتي من الأطـراف والأكنـاف كثيـرة ومتعـددة ، ولكنهـا تلتقي ذلـك الـطريق الـرئيسي في النهاية .

نحن البشر أشبـه ما نكـون بالقـافلة ، نكون معاً أثناء سيرنا نحو الكمال ، ولكن علينـا ، للوصول ، الى الكمـال

النهائي ، أن نجتاز الطريق الرئيس ، إلا أننا قد نصل إليه عن طريق طرق فرعية . فإذا قام كل امريء ، في مكانه الوظيفي ومركزه الاجتماعي ، بالسير على وفق الموازين الانسانية والأخلاقية والشرعية ، يكون في الواقع قد اختار طريقاً سيوصله في النهاية الى الطريق الرئيس ، حتى وان كانت البدايات متفرقة مختلفة كأن يكون أحدنا طبيباً مثلاً ، والآخر عاملاً ، والثالث تاجراً . فهذه كلها طرق يستطيع المرء بالمسير فيها أن يقترب من الصراط المستقيم .

صِراطَ الذين أنعمتَ عليهِمْ غَيْرِ المَغْضوب عليهم ولا الضالين :

الناس من حيث مقام العبودية وما يريدون بلوغه ، ومن حيث حريتهم في أي طريق يختارون ، ينقسمون الى اقسام ثلاثة :

فأولاً : أولئك الذين يطوون طريق العبادة وهم ، كما قلنا في شرح كلمة (الرحيم) ، مشمولون برحمة الله الخاصة ، تنزل عليهم النعمة تلو الأخرى على الدوام ، ويشعرون كأن يداً من الغيب تجرهم جراً . هؤلاء هم المقربون الى الله ، كالأنبياء والأولياء ومن ثم الأشخاص الذين بلغوا الكمال . فعلى المرء أن يجعل هؤلاء قدوة

يقتـدي بهم ويقتفي أثـرهم . فـالانسـان في الجملة الأولى يطلب من الله أن يضعه في طريقهم .

وثانياً : أولئك الذين يقفـون مقابـل الجماعـة الأولى ، والـذين عصـوا الله ، وعبـدوا إلهـاً غيــره ، فبـانت عليهم اعمالهم الواحـد بعد الآخـر ، وكأن يـداً تبعدهم دائـماً عن الـطريق الصواب ، فبـدلاً من أن يتجهوا نحـو الأعلى مثـل الجمـاعة الأولى ، فيكـونوا مـوضع نعمـه المتواليـة ، تـراهم مــوضـع غضب الله ، وقــد فقـدوا سبيلهم نحــو الكمـال كلياً ، متجهين الى هاوية الشقاء المخوفة :

﴿ وَمَنْ يَحْلُلْ عَلَيْـهِ غَضَبِي فَقَدْ هَـوَى ﴾ . هؤلاء في الـواقع ، أنـاس تخلوا عن طريق الانسـانية واتبعـوا طـريق الحيـوانية ، فمسخت انسـانيتهم ، فهم يتأخـرون بـدلاً من التقدم ، وهـم الذين يعبـر عنهم القرآن بقـولـه « المغضـوب عليهم » .

وثـالثاً : هنـالك فيـما بين هؤلاء وهؤلاء جمـاعة ثـالثة ، مــذبـذبــة ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، لا يرون طــريقـاً واضحـاً امامهم ليسيـروا فيـه ، تـراهم حيـارى ضـائعين، يتخـذون في كـل لحـظة سبيـلاً ولا يصلون نهايــة . وهؤلاء يعبر عنهم القرآن « الضالين » .

فعنـدمـا نقـول : إهـدنـا الصـراط المستقيم ، صـراط الـذين أنعمت عليهم، غير المغضـوب عليهم ولا الضـالـين نـدعـوا الله تعـالى قـائلين : ربنـا ارشـدنـا الى الـطريق الصحيح ، طريق أوليائك الصـادقـين المـطهـرين ، طـريق الـذين لا تفتأ تشملهم بنعمـك المتتاليـة ، لا طريق عبيـدك الذين مسخوا وتغربوا عن الإنسـانية، فبـاؤوا بغضب منك، ولا طريق التائهـين الضائعـين الذين يـظهرون في كـل لحظة بمظهر مختلف ومع جماعات مختلفات .

خاتمة سورة الفاتحة

سورة البقرة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيم

﴿ ألم (١) ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدَى
لِلمُتَّقِين (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إلَيْكَ وَمَا
أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُؤْمِنُونَ (٤) أُوْلَئِكَ عَلَىٰ هُدَىً
مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ (٥) إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُون (٦) خَتَمَ
اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِم وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظيم (٧) .

وجه تسمية السورة :

تسمى هذه السورة باسم سورة البقرة بالنظر لورود

اسم بقرة بني اسرائيل فيها . وهي أول سور القران ، وتتألف من حوالي جزءين ونصف من أجزاء القرآن .

الحروف المقطعة :

هذه سورة مدنية ، وتبدأ ، مثل ثلاث عشرة سورة أخرى ، بحروف مقطعة ، ونقصد بها أحرف الهجاء بدون أن تتركب مع بعض .

قد تبدأ هذه السورة بحرف واحد ، مثل سورة « ن والقلم » أو سورة « ق » . وقد يبدأ بعضها بحرفين اثنين ، مثل سورة « يس » وسورة « طه » وسورة « طس » . وقد تبدأ سور اخرى بثلاثة حروف، مثل سورة « طسم » وسورة « ألم » . وقد تكون اربعة حروف، مثل سورة « المر » ، وبعض بخمسة حروف ، مثل سورة « حمعسق » وسورة « كهيعص » .

يختص القرآن وحده بهذه الخصوصية ، إذ لم يسبق أن ابتدأ كتاب ، سماوياً كان أم غير سماوي ، بحروف مقطعة . فما هو المقصود من هذه الحروف ؟ .

لقد طرح هذا السؤال منذ الأيام الأول من صدر الاسلام ، وظهرت نظريات عديدة بهذا الشأن ، ويمكن القول بأنه لم يظهر لهذا السؤال جواب قاطع لحد الآن .

واليكم بعض هذه النظريات :

يرى بعضهم ان هذه الحروف سلسلة رموز بين القائل والسامع ، أي بين الله ورسوله ، تشير الى معارف ومعلومات أرفع في مستواها من مستوى العامة ، وانه لما لم يكن باستطاعة الناس أن يستوعبوا سماعها ، فلم تذكر صراحة ، بل جاءت على صورة رموز . وهذا أمر مألوف حتى بين الناس ، فحين يريد احدهم ان يقول شيئاً لا يفهمه إلا المخاطب المقصود ، فعندئذ يخاطبه بالرموز .

نظرية اخرى تقول ان هذه الرموز هي اسماء السور التي بدأت بها، أي ان اسم سورة البقرة هو « الم » ، وان اسم سورة طه هو « طه » .

ونظرية ثالثة تقول انها قسم ، فكما ان القرآن يقسم بساير مظاهر الخلق ، بالشمس ،بالقمر بالنجم، بالنهار ، بالليل ، وبالنفس ، فانه يقسم ايضاً بالحروف . أي ان معنى أ ـ ل ـ م ـ هو : اقسم بـ أ ـ ل ـ م .

عندما يقسم الانسان بشيء ، فانه في الحقيقة يقسم بشيء يكون محترماً عنده ، ويكون المخاطب عارفاً كذلك بأن صاحبه يحترم ذلك الشيء ولا يرتضي له اهانة أو تحقيراً ،ولذلك فهو يستند الى ذلك الشيء ليدل على صدقه

وانـه يقـول الحق . ولكن الانسـان قـد يقسم في حـالـة مختلفـة . فقـد يقسم ليفيـد أمـراً يقتضي القسم ، أي انـه يقسم لكي يعـرف المخـاطب انـه يقـدر الشيء ويحتـرمـه . فعندما يـريد امـرؤ أن يشعر النـاس انه يحتـرم فلانـاً ، فانـه يقسم بـرأس فـلان أو بحيـاتـه . ففي مثـل هـذه الحـالات يكـون المقصـود من القسم هـو المقسم بـه ،أي الـذي اقسم برأسه أو بحياته ، لا المقسم عليه ، أي موضوع القسم .

وهـذا النـوع الثـاني من القسم ، هـو الـذي يـرد في القرآن . فإذا أقسم القرآن بالقمـر والشمس والزيتـون والتين والنهار والليل ، فانه يريـد أن يوجـه انتباه البشر الى أهميـة تلك الأشياء .

إن من أهم الأمور التي كان لهـا دور اساس في حضـارة الانسـان وتمـدنـه هـو حـروف الهجـاء . فقـد لعبت هـذه الحـروف ، أو الأصـوات التي تخـرج بهيئة حـروف ، دوراً كبيـراً في حياة البشر الإجتمـاعية . إن للحيـوانات أصـواتاً وأغـاني ، ولكنهـا لا تقـدر أن تصنـع منهـا حـروفـاً . فلو لم يستطع الانسان أن يصنع من أصـواته حـروفاً ، كـالبكم ، ولـو لم يكن قـادراً عـلى التكلم وايصـال مقـاصـده الى الآخرين ، لما كـان هناك علم ولا تمـدن أو صناعـة . وحتى الكتـابة ورسم الخط ، تلك النعمـة الكبرى والتي يقسم بهـا

القرآن ايضاً ، فقد ظهرت بعد مرحلة التكلم . أي ان مقدرتنا على كتابة ا ـ ل ـ م منفردة هي من نتائج مقدرتنا على انْ نلفظها منفردة . فلولا هذه الحروف لكان علينا ان نرسم صورها لأيصال مقاصدنا . لكان علينا ، مثلاً ، أن نرسم بيتاً ليدل على البيت ، وصورة السيارة لتدل عليها . وهذا يعني استحالة ايصال ما لا يمكن رسم شكله .

ثمة نظرية أخرى تقول إن هذه الحروف اشارة الى اعجاز القرآن . وهم يشرحون نظريتهم كما يلي :

إن حروف الهجاء العربية التي تبلغ «٢٨» حرفاً ، (وقد تكون أكثر في بعض اللغات ، حتى قيل ان في بعض اللغات حوالي ٣٠٠ حرف من حروف الهجاء) تعتبر بمنزلة لبنة البناء ، وهي في متناول الجميع . ولكن هل يستطيع الجميع أن يقولوا قولاً رفيعاً ؟ كلا ، فالحروف مثل خيوط الغزل بيد الناسجين ، ولكن أتراهم من حيث الفن ينسجون على منوال واحد ؟ أبداً .

إن قدرات الكلام وفنون الخطابة تتألف من هذه الحروف ذاتها ، وكذلك الكتب والمقالات والقصائد الشعرية كلها نسيج هذه الحروف ، ولكن الناتج على درجات من التفاوت ، قد يصل تفاوت ما بين السماء والأرض .

نقـرأ في آيـات أخـرى أن القـرآن يتحـدى النـاس ويـطلبهم الى المبـارزة ، فليجمعـوا كـل خـطبـائهم ورجـال الكلام فيهم وليأتوا بآية من مثله . أفهل يستطيعون ؟ .

فالقرآن ، بـذكره هـذه الحروف ، عـلى سبيل المثـال ، يريد في الحقيقـة ان يقول : هـا هي المواد الأوليـة التي صنع منها القرآن . أيها الناس ، لم يصنع القرآن من مـواد غيرهـا حتى تقـولـوا لـو كـان عنـدكم مثلهـا لجئتم بمثله. إنمـا هي الحروف ذاتها وقـد ألفت في طراز بـديع ، فتعـالوا واصنعـوا منها مثله . لم يصنع القرآن في مصنع معين حتى تقولوا انكم لا تملكـون مكـائنـه ومـواده ، بـل ان مكـائنـه ومـواده بـين أيديكم .

هـذا بيان اعجـاز القرآن ، إذ كيف يمكن لشخص أمي لم يـر المدرسة ولم يقرأ كتـاباً ان يصـوغ كلامـاً لا يقدر عـلى الاتيان بمثله أحد ؟ .

قبـل بضع سنـوات قليلة طـرحت نـظريـة أخـرى فيما يتعلق بالحروف استـأثرت بـاهتمام الصحـافة والنـاس وهي ان مصـريـاً مختصـاً بـالكمبيـوتـر (العقـل الآلي) أجـرى دراسات دقيقة على هذه السور الأربع عشـرة ، فتوصـل الى ان دور حرف البداية في كل سورة أكبر بالنسبة إلى الحـروف الأخرى المستعملة في السورة نفسها . فمثلاً إن الحـروف ا ـ ل ـ م في سـورة البقرة تلعب دوراً أكبـر مما تلعبـه الحـروف

الاخرى الواردة في السورة ، وإن نسبتها من الدقة بحيث لا يستطيع العقل البشري حسابها ، إذ أن الكسور فيها تصل درجات لا يقدر عليها غير الحاسب الآلي .

وفي الختام اورد احتمالاً آخر بهذا الخصوص وهو :

هنالك بحث قديم يدور حول الوجود الأول في نظام الوجود هذا . أي ما الذي تقدم ، وما الذي تأخر . وقد جاءت نظريتان للأجابة على هذا التساؤل . فبعض يقول : في البداية كانت الكلمة والكلام ، ويقصدون بذلك ان البداية كانت في الفكر والفهم والادراك ، لأن الكلمة والكلام من علامات الكفر والتفكير ، ومن ثم ظهرت المادة . ويرى آخرون ان المادة كانت سابقة ، أي إن المادة والطبيعة قد ظهرتا في البداية ، وبعد تكاملها ظهر الفهم والادراك والشعور ، ومن ثم ظهرت الكلمة والكلام .

يبدو أن القرآن يؤيد أولى هاتين النظريتين ، إذ إنه عندما يشرح قصة الخليقة ، يقول :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون ﴾[1] .

أي ان الأول هو القول ، ثم يأتي سائر المخلوقات .

---

(١) سورة يس ـ آية : ٨٢ .

إنـه لمن الواضح هنا أن القـول لا يعني مجرد التلفظ ، الهـواء والصوت ، فحسب ، بل ان له معنى أشمل وأكمل .

يبـدو ان الله بهـذه الحـروف المقـطعـة يبـين اسلوب الشـروع بعمله ، أي ان القـول والكـلام والفكـر أسبق من الجسم والطبيعة وجوداً .

ومهـما يكن فـان الحـروف المقـطعـة من متشابهـات القـرآن ، وعلى الأخص اذا قبلنـا بالنـظرية الأولى وقلنـا انها رموز بين الله ورسوله .

ذلك الكتاب لا ريب فيه :

ذلـك الـكتـاب . لاحـظوا انـه لا يـقـول « هـذا الكتاب » ، بل يقول ذلك الكتاب ، وهذا يعني التعـظيم ، ففي العـربيـة إذا أرادوا الاشـارة الى شيء عـظيم استعملوا الاشـارة الى البعيد ، أي إن ذلـك الشي تفصله عنـا وعنكم الفواصل .

لا ريب فيـه . لا شـك فيـه . مـا معنى هـذا ؟ كيف ليس في القـرآن شك ؟ عـلى الـرغم من علمنـا بـوجـود من يشك في اصالة القرآن ، حيث هو نفسه يقول :

﴿ إنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمَّـا نَـزَّلْنَـا عَلَىٰ عَبْـدِنـا فَـأْتُـوا

بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾[1] .

في الأجابة يجبْ ان نقول انك قـد تقرأ كتـاباً وتجـد فيه امـوراً ، فتتساءل : أصحيـح كـل هـذا الـذي فيـه ، أم لا صحة له ؟ فـأنت متردد وشـاك . ولكي تتوكـد لك صحتـه أو عدم صحته ، يقتضيك أن ترجـع الى ما فيـه من أسانيـد فتتحقق منها .

نعم هكـذا الأمـر بشـأن هـذه الكتب ، وعـلى الأخص في كتب الاخبار والـروايـات والادعـاءات ، إذ إن اثبات صحتها يحتاج الى دليل وبرهان .

ولكن قد يتفق أحياناً ان الأمور تتـوكد للقـارىء بشكل ملمـوس ومحسّ بحيث لا يجـده محتـاجـاً الى اي شـاهـد ودليل .

فمثـلاً لو أن أحـداً لا سابق معـرفة لـك به ولم تخـالطه من قبـل ادعى انـه عـادل ، فـلا بـد انـه بهـذا يثـير فيـك الشك ، فتأخذ بالبحث عن البينة والشاهـد . فاذا ايـد لك ذلـك اثنـان ممن تعـرف فيهم العـدالـة وشهـدا عـلى صـدق دعواه ، فانك ستقتنع ، والاّ فلا .

أما إذا كان هذا الشخص المدعي العـدالة من المقـربين

---

(١) سورة البقرة ـ آية : ٢٣ .

اليـك ، زاملته في الحـل والترحـال وعرفت أعمـاله ودرست سلوكـه ، بحيث تجلت لـك عـدالتـه وتقـواه ، فهـل تـراك تحتاج الى دليل أو شاهد على ادعائه ؟ كلا .

كـذلك الأمـور في القضايـا العلمية والنـظرية . فبعض المسـائل يتـطلب اثباتهـا الى البرهـان ، وفي بعض آخر يجـد الانسان أن الموضـوع واضح أمـامه فـلا يحتاج الى بـرهان ، بل ان مجرد طرحه يعتبر دليلاً على صحته .

كـذلـك هـو القـرآن . فقـد يـرتـاب احـد في أصـالـة القرآن ، وهذا يكون ما دام بعيداً عنه ، فـأما أن يقترب منـه حتى يزايله الشك فيه .

ولكن لا بـد أن نعلم ان الاقتـراب من القـرآن عـلى نـوعـين : الأول هـو أن يقـرأ الانســان القـرآن ، فيفهمـه ويرجع الى التفاسير في مشكله ، والثاني هو أن يعمل به .

ولما لم يكن القرآن مجرد كتاب نـظري ، فقد اقتـرنت ، فيه النظرية والعمل توأمين . وعليه فان هـذه الآية تـريد ان تقـول : يا أيهـا الذين تـرتابـون في القـرآن وتشكون فيـه ، لكم كل الحق في ذلك ، لأنكم لم تقتـربوا منـه ، ولم تنظروا فيه ، ولم تطلعوا عليه ، ولم تختبـروه في مراحـل العمل ! فلو اقتربتم منه ولمستموه ، لما وجدتم في اصالته ترديداً .

هدىً للمتقين :

أول ما يتبادر للذهن في معرض معرفة القرآن والتقرب اليه هو ان نعرف أولاً : لماذا نزل القرآن ، وما هي ماهيته ؟ ولا يخامرنا شك في اصالته ، لأن الكتاب الذي لا نعرف سبب كتابته وما هو هدفه ، لا نستطيع أن نعطي فيه رأياً .

فلننظر الآن أي كتاب هذا ولماذا ؟ أهو كتاب في الطب ؟ في الفلسفة ؟ في التاريخ ؟ في الرياضيات ؟ لا ، ليس أياً من هذه. فماذا إذن ؟ إنه كتاب هداية .

انه هدى :

فمن الذين يهديهم هذا الكتاب ، أيهدي الجميع ؟ أفلا يعود هناك أي ضال بعد نزول القرآن ؟ وهل سيهدي الناس جميعاً بالاجبار ؟ كلا . فهو وإن لم يهد الناس جميعاً ، فانه سيكون سبباً لضلالة بعض آخرين ؟ وذلك كما يقول هو :

﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيْرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثير ﴾[1] .

ولكن ينبغي ألاّ ننسى بالطبع ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلاّ الفَاسِقِينَ﴾ .

---

(١) سورة البقرة ـ آية : ٢٦ .

والفاسق هو الذي يخرج عن طريق الفطرة الانسانية .

وفي هذا المعنى يقول مولوي :

« ادع الله ان يجعلك نجيا
في نور هذه الأمور لتصل الغاية
فقد ضل بالقرآن كثيرون
اذ بهذا الحبل هووا في قعر بئر
ولكن الحبل لا ذنب له أيها العنيد
إنما أنت نفسك لم ترد الصعود »[1]

وهو بهذا يشير الى أن القرآن حبل الله .

فالقرآن إذن هدى للمتقين، والمقصود بالمتقين

---

(١) الفسق من فسقت التمرة ، وهي ان تضغط التمرة فتخرج النواة ، أي انشقت التمرة فخرجت النواة . (وقد جاء في القاموس المحيط : فسقت الرطبة عن قشرها ، خرجت ، كانفسقت . قيل : ومنه الفاسق ، لانسلاخه عن الخير - المترجم) .

اَزْ خُدا مِیْ خواهْ تا زِیْنْ نُکْتِه ها
دَرْ نَوَرْ زي ور رِسي دَر مُنْتَها
زانْکِهْ دَر قُرآن بَسي كُمرَه شُدَنْد
زِيْنْ رَسَنْ قومِی دَرُونِ چَهْ شُدَدْ
مَرْ رَسَنْ را نِيستْ جُرمِی اِیْ عَنُودْ
جُونْ تُرا سُود ایِ سرَ بالا نَبُودْ

(الطاهرين) وهم الباقون على فطرتهم الأولى . وهذا موضوع بحثناه في مكانه ، وسوف نبحثه مرة أخرى . فالقرآن ، على وجه العموم ، يرى أن كل انسان يولد طاهراً ، أي انه مجهز بتقوى ذاتية ، ولكنه قد يتلوث بالتدريج بمفاسد المحيط والبيئة ، فيخرج عن باطن الفطرة ، فيكون مسخاً .

يقول القرآن ، انه لو بقي الانسان على فطرته الأولى لأوصله هذا الكتاب وهداه الى القصد والغاية ، بمعونة كل ما فيه من بذور الكمال والفضيلة .

الذين يؤمنون بالغيب :

أول ما يهدي القرآن اليه هو أنه يهدي الانسان الى الايمان بالغيب . والغيب والشهادة مصطلحان من مصطلحات القرآن .

عالم الوجود ، من حيث وجهة نظر القرآن ، ليس منحصراً بالأمور التي تحسها فحسب ، بل ان المحسّات هي الطبقة الخارجية من العالم ، والقسم الأعظم منه وراء ذلك . فالمحسّ يسمى الشهادة ، وغير المحسّ اسمه الغيب .

إن ما يسميه الفلاسفة عالم الطبيعة ، من شجر ، وورد ، وبحار ، وصحارى ، ومجرات ونجوم . . . وكل ما

يـراه الانسان أو يشمـه أو يحسـه عمـومـاً ، هـو مـا يسميـه القرآن عالم الشهادة .

ولـو كان العـالم هو كُلِّ هذا ، لكـان منـظور الانسـان منظوراً خاصاً ، أي انه كـان يرى الانسـان يولـد ، ويعيش مـدة من الزمن في هـذه الـدنيـا ، ثم يمـوت ويتـلاشى ، ولم يكن يـرى غير هـذا شيئاً ، فـلا يرى لـه بدايـة ولا نهايـة ، ولا يخطر له أن يسأل : من أين ظهر هذا الانسان ، والى اين سوف يذهب ؟ .

انمـا رسالـة القـرآن هي أن يخـرج الانسـان من هـــذه النظرة الضيّقة، فيطلعه ويجعله يؤمن بأن عـالم الشهادة هـذا ليس سوى قشر الوجود ، وانما الوجود الحق العـظيم هو مـا وراء ذلك .

افضـل مثل نضـربه لعـالم الغيب هو الانسـان نفسـه . فجسم الانسـان من الأمـور التي يحســه الانسـان كـما اننـا نعـرف النفس ايضـاً ، ههنـا قسمـان من عــالم الشهـادة . ولكننـا لا نحس نفس الآخرين ، فنفـوسهم بالنسبـة لنا من عـالم الغيب ، اذ اننا حتى لـو قضينـا عمـرنـا مـع غيـرنـا ، فسنسمع صوته ، ونرى لـونه ، ونلمس جسمـه ، ولا شيء غـير هذا ، فنفسـه ستظل خـافية علينـا دائماً ، فـاذا اطلعنـا على ما يـدور في خلده فذلـك لأننا نستنتـج ذلك من حـديثه

معنا ، وإلاّ فليس باستطاعتنا أن نعرف مكنونات ضميره بصورة مباشرة ، ولا ما في قلبه .

يقال ان لنا نفساً ذاتيةالمعرفة ، وهو ما نعبر عنه بقولنا : إننا هكذا نفكر ، ونحس هذا ، ونحب الشيء الفلاني ، ونكره الشخص الفلاني . وثمة نفس غير ذاتية المعرفة ، وهي تؤلف القسم الأعظم من وجودنا . فالانسان نفسه ، أكثره غيب وأقله مشهود .

والقرآن يرى هذا في العالم كله ، ويمنح الانسان منظوراً جديداً . فالملائكة ، واللوح المحفوظ ، والعرش ، والكرسي ، كلها تتعلق بعالم الغيب وباطن هذا العالم ، وعلى الرغم من اننا لا نحسها بحواسنا فاننا لا نستطيع انكارها ، بل لا بد من الاعتقاد بأن عالم الغيب هو ما تعجز الحواس عن احساسه ، وان ما لا تعجز عن احساسه ، فهو العالم المشهود .

ويقيمون الصلاة :

بعد الايمان بالغيب يأتي موضوع اقامة الصلاة . يمكن القول ان الأصل الأول ، وهو الايمان بالغيب ، يتعلق بالنظام الفكري العقائدي عند المسلم ، والأصل الثاني يرتبط ببناءالذات ، والأصل الثالث هو الانفاق ، ويتعلق ببناء المجتمع ، وهذا ما سوف نعود اليه مرة اخرى .

تتضح من هذا أهمية الصلاة ، حيث اعتبرت من دعائم الدين ، واذا كان لكل مذهب اسلوبه في تكوين اتباعه ، فان العبادة على رأس برنامج التربية الاسلامية ، وعلى رأس كل العبادات الصلاة .

ولكن علينا أن نلاحظ ان القرآن لا يقول : يتلون الصلاة ، بل يقول : يقيمون الصلاة ، وهناك فرق بين أن نتلوا الصلاة وأن نقيمها . ففي المواضع التي يشير فيها القرآن على انها تقرأ هي مواضع يراد بها الذم ، أي ان الكلام يدور فيها على الذين في صلاتهم شبهة .

ما معنى اقامة الصلاة :

اقامة الصلاة تعني اعطاء الصلاة حقها ، أي انها يجب ألّا تكون كالجثة التي لا روح فيها ، بل أن تجعل الصلاة العبد متوجهاً الى الله خالقه حقاً . وهذا أيضاً هو معنى الآية :

﴿ أقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾[1] .

تذكُّر الله يساوي نسيان غير الله . لو أن الانسان ظل حتى فترة قصيرة يناجي ربه ويطلب عونه ، ويحمده ،

---

(١) سورة طه ـ آية : ١٤ .

ويصفه بأنه الله ، وأنه الرب ، وأنه الرحمن ، وأنه الرحيم ، وأنه أحد ، وأنه الصمد ، وأنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فسيكون لذلك أرفع الآثار في نفسه ، وتبنى روحه على ما يريده الاسلام ، ولا يكون هذا بغير ذلك .

ومما رزقناهم ينفقون :

فما هو الإنفاق ؟ لا يعني الانفاق بالطبع أن يجعل المرء من نفسه فقيراً خالي الوفاض ـ كما يظن بعضهم ـ بل الانفاق هو بذل المكتنزات . والانفاق قد يعني الازالة . أي ازالة النفق والفقر ، فهم يزيلون الفقر ويقضون على الحاجات .

والانفاق يقيم روابط الانسان بالمجتمع على اسس مستقرة ، مثلما ان الأصل الأول ، الايمان بالغيب ، يرتبط بمنظور الانسان للعالم ، والأصل الثاني ، اقامة الصلاة يرتبط بالرابط الدائم بين الانسان وعالم الغيب .

هل يختص الانفاق بالمال ؟ :

تقول الآية : ومما رزقناهم ينفقون . وللرزق معنى عام ، والكلمة تعني في القرآن الرزق المعنوي والمادي ، والعلوم والمعارف تدخل ضمن أرزاق الله ، وعلى الذين رزقهم الله منها أن ينفقوها ليستفيد منها الآخرون .

فلسفة الانفاق :

قد يحسب بعضهم ان فلسفة الانفاق الوحيدة هي ملء الفراغ الاجتماعي ، فيقولون لو أن الحكومات والدول تلتزم هذا الأمر فتنشيء مؤسسات تأخذ على عاتقها حل مشاكل الفقر ، فلن تبقى حاجة الى الانفاق الفردي لحلها . ولكن الأمر ليس كذلك ، أقصد ان فلسفة الإنفاق ليست ملء الفراغ لاجتماعي فحسب ، بل ان لها علاقة ببناء الانسان أيضاً .

إذ إن الانسان الذي يملك شيئاً فينتزعه من نفسه ليصبح مظهراً من مظاهر رحمة الله يكون قد قام بدور كبير في بناء نفسه وتكوينها . العطف يعني الميل نحو الآخرين ، والالتفات اليهم ، والتوحد معهم ، والأخذ بيدهم . وهذا بحد ذاته هدف أساس مهم . فاذا لم يسد المجتمع مفهوم كهذا ، يكون الأمر كالبيت اذا فقدت منه روح المحبة والعطف ، وأقيمت مقامها مؤسسات تربوية .

يقول (برتراند) راسل وأتباعه : وهل فلسفة حياة الأسرة غير أن يقوم الوالدان بتنشئة الأطفال ، وبالمحافظة عليهم ، وبتمريضهم عند المرض ؟ هذا الضرب من التربية كان سائداً في السابق القديم ، لكن بعد أن تكامل المجتمع ، كان لا بد من نقل هذه الوظائف

الأسرية الى مؤسسات حكومية كبيرة ، حيث يؤخذ الطفل من دار الولادة مباشرة الى دار الحضانة ، حيث يكبر مع غيره من الأطفال ، وهكذا تأخذ هذه المؤسسات مكان الوالدين والاسرة ، وتعود الحقوق التي كانت في عنق الأبناء تجاه الوالدين ، والتي كانت على الوالدين تجاه الأبناء ، الى روابط بين الشعب والدولة .

إن العيب الكبير في هذه المسألة هو الخروج من مسيرة الفطرة الانسانية . لقد خلق الابوان وفيهما عاطفة الأبوة والأمومة ، وخلق الأبناء وفيهم عاطفة البنوة ، أي ان الأم من حيث كونها أماً تجد في نفسها دافعاً يدفعها لكي تحتضن وليدها وتربيه بحنانها ، وهذه عاطفة فطرية ، بل انها أعمال تجري مجرى لا إرادياً ، حتى إن الأم لا تدري ما تفعل .

ومن جهة أخرى ، عندما تطبع الأم تلك القبلة الحنون على وجنة وليدها وتضمه الى صدرها ضماً فانها بذلك تربي فيه روح المحبة والحنان ، أي انه يتلقى حرارة حبها ويتقبله . ان هذا الحب والحنان يشحنان الطفل بالطاقة ، حتى اذا ما كبر ونما ، سطع نورها في نظرات حب وحنان يلقيها على من حوله . لذلك فان بعض الذين يتربون في دور التربية ولم يروا حضن ام ولا حب أب ، ينقلبون الى مجرمين خطرين .

فالإنفاق من هـذا القبيل أيضاً ، فينبغي ألّا نقول ان فلسفته هي اشباع الجيـاع فقط ، وانه يمكن تحقيقـه من باب آخـر ، اذ ان فلسفة الانفـاق هي بناء الانسـان ، فالانسـان تتـربى روحـه تـربيـة انسـانيـة في ظـل العفـو والتسـامـح والايثار .

وعـلى ذلك فـلا يستطيـع امرؤ أن يقـول انـه يستـطيـع القنـاعة والاكتفـاء بحبة لـوز ولا يريـد شيئـاً أبـداً . ويـرى نفسه بناء على ذلك انه انسان كامل . كـلا ، فمن يستطيـع ان يملك ،عليـه أن يملك ، وان يكمل نفسـه بالانفـاق . إذ ليس من الكمـال في شيء ألّا تملك وألّا تنفق . بل ان تنـال وأن تنتـزع ممـا تنـال وتنفق ، انـه عـامـل من عـوامـل بنـاء الذات .

وهـذا ما يتبين بـوضـوح من القـرآن المجيـد ، حيث يخاطب الرسول الكريم قائلاً :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُزَكِّيهِمْ ﴾[1] .

في هذه الآية اشارة الى فلسفة البنـاء التي ذكرنـاها ، لا إلى الفلسفة الاجتماعية عن اشباع الجيـاع ، لأنها تقول خـذ

---

(١) سورة التوبة ـ آية : ١٠٤ .

من أموالهم صدقة لكي تطهر بها نفوسهم ، وتوصلهم الى الرشاد . مثل النبات الذي يزداد نمواً بتشذيبه ، وهذا في الواقع شأن كل الموجودات ، فكلما أزلت عنها آفاتها ، ازدادت نمواً ورشداً .

والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك :

من صفات المتقين الأخرى الايمان بالوحي . فقد يتفق أن يؤمن المرء بالوحي وألّا يؤمن به في الوقت نفسه . أي انه يقبل بالقرآن كتاباً من أمهات الكتب في العالم ، ويعتقد بأنه يحتوي على تعاليم منجية ، الا إنه لا يراه كتاب وحي أنزله الله .

ولعل هذا أكثر ما يصح على غير المسلمين الذين يعتقدون بالقرآن ويعدونه من بين كتب التربية والتعليم .

صاحب كتاب « في احضان السعادة » يذكر القرآن في الفصل الخاص بالمطالعة والكتب ، على أنه من كتب التربية العظيمة .

وشبل شميل (المسيحي) اللبناني العربي المادي المذهب ، له ابيات جميلة بشأن الرسول والقرآن ، يوجهها الى رشيد رضا صاحب مجلة المنار المصرية ، منها قوله :

إني وإن أك قـد كـفـرت بـديـنـه
هـل أكفـرن بمـحـكـم الآيـات

ولكن هذا القبول بالقرآن ليس إيمـاناً بـه ، إذ الإيمان به هو الاعتقاد بأنه وحي قد نزل من الله :

﴿ نَـزَلَ بِـهِ الـرُّوحُ الأمينُ عَلَىٰ قَلْبِـكَ لِتَكُـونَ مِنَ المُنْذِرِينَ ﴾[1] .

لا بـد من الاشـارة الى ان الايمـان بـالغيب قـد شمـل الـوحي أيضاً ، ومـا ورد ذكـره إلّا من بـاب التفصيـل بعـد الاجمـال ، لأن مسألـة الـوحي ليست بمثـل وضـوح مسـألـة (الله) فوردت ثانية .

وبالآخرة هم يوقنون :

كلمة الآخرة مؤنث الآخـر ، وهذه ضـد الأول ومؤنثها الأولى . والسبب في ايـراد الكلمة في القـرآن بصيغـة المؤنث هـو أن هـذه الصفـة سبق أن وردت لـوصف (الـدار) أو (الحياة) ، فوردت مؤنثة ، لتبعيتها للموصوف .

وقـد تأتي « الآخـرة » في قبال « الـدنيـا » وقـد تـأتي في قبـال « الأولى » . وكلمة « دنيـا » يحتمل ان تكـون من مادة

---

(١) سورة الشعراء ـ آية : ١٩٤ .

« دَنَوَ » بمعنى : قرب ، وقد تكون من مادة « دَنِيَ » بمعنى : الدون . فاذا كانت من الدنو فتعني هذه الحياة الأقرب ، وبذلك يكون معنى الآخرة هو الحياةالأبعد . وإذا كانت من (دَنِيَ) ، فتعني هذه الحياة التي هي في الأدنى ، فتكون الآخرة هي الحياة ذات المرتبة الأعلى .

في سورة « الضحى » تقع الآخرة في قبال الأولى ، حيث يقول الله تعالى ، في معرض تعزية الرسول على انقطاع الوحي :

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ، وَللآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأولىٰ ﴾ أي ان نهاية اعمالك خير من بدايتها ، أي انك كلما تقدمت اقتربت من الكمال الأسمى .

على كل حال ، « وبالآخرة هم يوقنون » تعني الذين يؤمنون بوجود حياة أخرى وراء هذه الحياة ، وهي حياة الثواب والعقاب .

والاعتقاد بالآخرة اعتقاد بالخلود ، إذ الفرق بين الحياتين هو أن هذه تنتهي الى نهاية ، والآخرة خالدة لا نهاية لها ، سواء أكان الانسان فيها شقي أم سعيداً . صحيح أن شقاء بعضهم وقتي ، الا انهم يخلّدون بعد ذلك في سعادة دائمة . وقد وردت كلمة الخلود مرات عديدة في القرآن .

إن الايمان بالخلود من سمات الأديان الالهية ،وهي من الأفكار القادرة على توجيه العالم ، ذلك لأن المذاهب المادية التي لا تؤمن بالخلود ، وترى الانسان كالفقاعة التي اذا انفجرت ذهبت هباء ، لا تعني سوى اللاشيئية وسوء الظن بالوجود .

وهذا هو الذي يقلقهم أشد القلق ، حتى ان بعض الماديين لجأ مؤخراً الى حيلة ينقذ بها مذهبه من اللاشيئية هذه .

يقولون : صحيح ان الفرد فانٍ إلا انه يستمر في مسيرته ضمنياً بتقدم المجتمع عن طريق التكامل . فإذا ما قُتلنا انا وأنت ، فاننا نكون خالدين ما دام الطريق خالداً .

من الواضح أن مقولات كهذه ليست سوى محاولات للدفاع عن فلسفتهم . ولكن الذي يؤسف له حقاً هو أن بعض الناس يسعون الى مطابقة مفاهيم القرآن مع هذه التخرصات ، فيقولون ، مثلاً ، إن « بالآخرة هم يوقنون » تعني انهم يؤمنون بنظام أكثر تكاملاً في هذه الحياة ، أي ان الفرد ليس خالداً ، بل النوع هو الخالد . لكننا نقول لهم إنه إذا قلنا بعدم خلود الفرد ، فلا بد أن نقول بعدم خلود النوع ايضاً ، إذ انه بموجب الحسابات التي أجراها علماء الفيزياء ، يكون قد مضى على الأرض عدة ملايين من

السنين ، وسوف يأتي يوم لا تكون فيه ارض ولا انسان ، فما معنى خلود النوع في هذه الحالة ؟ .

أولئك على هدىً من ربهم :

إن الله الذي يربي العالم وينميه ، يرشد كل الكائنات الى طريق الكمال ، فبعض يهديهم هداية تكوينية ، وبعض يهديهم هداية تشريعية ، أي عن طريق الانبياء والمرسلين ، ولكن هؤلاء هم وحدهم الذين يحق لهم بلوغ الكمال عن طريق الهداية التشريعية .

وأولئك هم المفلحون :

هؤلاء وحدهم هم الناجون ، وما من أحد ناج غيرهم . وإلى هنا ينتهي قسم الايمان في هذه السورة ، ويبدأ قسم الكفر .

إن الذين كَفَروا سواء عليهم أأَنذرتَهم أم لَم تنذرهم لا يؤمنون :

علينا قبل البدء أن نشرح كلمتين ، ومن ثم نقوم ببحث مفهوميهما :

الكفر : وهي مأخوذة من مادة « كَفَرَ » ومعناها : ستر . ولكن القرآن يطلق على الذي ينكر الدين اسم « كافر » ، وذلك لأن الحقيقة جلية عندهم ، ولكنهم بدلاً من أن يصدقوا بها ، يخفونها .

الإنـذار : يخلط بعضهم بين معنى الانـذار والتخويف . فالتخويف هو أن يكون امرؤ ، مثلاً ، سائراً وإذا بأحدهم يفجر متفجرة على مبعدة منه ، فيخاف . والإنـذار ليس هذا ، بل هو اعلان عن الخطر ، أي انك إذا علمت بوجود خطر سوف يتهدد أحداً ، فأخبرته أنت بما ينتظره ، تكون قد أنذرته . فالرسل هم المنذرون .

والآن فلننظرْ الى القرآن . انه يقول عن الكافرين انهم لا يجديهم نفعاً ، سواء ان انذرتهم أم لا . فما معنى هذا ؟ أفهل يجب ان يكون الناس مؤمنين حتى يأتيهم الرسول بدعوته ؟ إذا كان الأمر كذلك ، فانه من تحصيل الحاصل ، كما يقال .

بل قد جاء الرسل ليجعلوا الكفار مؤمنين ، لا ليجعلوا المؤمنين مؤمنين .

يتذرع بعضهم بهذا ليزعم أن القرآن يوجه المجتمع والتاريخ توجيهاً مادياً ، أي أنه يقول إن الناس مجموعتان . مجموعة مستغلة (بالفتح) ومجموعة مستغلة (بالكسر) . فالمجموعة الأولى هي التي تملك الاستعداد لتقبل الدعوة ، فجاءهم رسول فعلاً ، وكانوا هم الذين يخاطبهم . أما المجموعة الأخرى فليست موضع دعوة الرسول .

هـذا كلام كله هـراء ، فالقـرآن للجميع ، والـرسـول يخاطب كل الناس :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾(١) .

والنـاس تعني عموم النـاس ، ولا صحـة للقـول بـأنّها تعني المحرومين منهم فقط .

عنـدما بعث الـرسول ، كـانت دعوتـه تشمـل الأسـود والأبيض ، المستعمـر والمستعمر ، الغني والفقـير ، وغيـرهم جميعاً ، فما معنى الآية اذن ؟ .

إذن كلمـة « كافـر » لا تطلق في القـرآن ـ إن لم نقـل في كـل الموارد ، ففي اكثـرها ـ عـلى كـل من لم يكن مسلماً، بـل إنه يقصد بـالكافـرين اولئك الـذين جاءتهم الـرسل ودعتهم الى الحقيقــة التي اكتشفت لهم ، ولكنهم واجهـوا الــرسـل وأنكروا . أي ان الناس ، ما لم تأتهم الـرسل ، لا يكـونون مؤمنين ، ولا كافرين ، ولا منافقـين ، بل هم النـاس ، كل الناس .

ولكن الناس ، بعد ان تـأتيهم الرسـل ، ينقسمون الى ثـلاثة أقسـام : فقسم يؤمن ، وقسم ينكر ، وقسم يتـظاهـر بـالقبـول .

---

(١) سورة الأعراف ـ آية : ١٥٨ .

فالمقصود بالكفار في الآية الشريفة ليس الذين لم يسلموا من قبل ، بل الذين وصلتهم دعوة الرسول وعرفوا الحقيقة ، ولكنهم خالفوا عقولهم وحكمتهم وأنكروا الدعوة :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلواً ﴾[1] .

إن من طبيعة الانسان المنفتحة نفسه على تقبل الحقيقة ، ان يتقبلها إذا ما تكشفت له . ولكن الذي يورد الانسان موارد الهلكة ، هو أن يقف موقفاً مناوئاً للحقيقة .

هنالك اناس كثيرون هكذا هم ؛ يتخذون مواضعهم مع المناوئين للحقيقة . وقد رسم القرآن لهؤلاء لوحة رائعة ، حيث يقول :

﴿ وَإِذَا قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فامْطِر عَلَيْنَا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ ﴾[2] .

إنهم يفضلون أن ترجمهم السماء بالحجارة على أن

---

(١) سورة النمل ـ آية : ١٤ .

(٢) سورة الأنفال ـ آية : ٣٢ .

يعترفوا بـالحق . أي بدلاً أن يقـولوا ربنـا إن كان هـذا حقاً ومن عنـدك ، فـوفقنـا لقبـولـه ، يقـولـون : إن كـان حقـاً فامحقنا .

وهـذا هـو معنى منـاوأة الحقيقـة . فـأنـاس من هـذا القبيـل ، لا تنفع فيهم النـذر ، ولا تفيدهم شيئـاً . فهؤلاء مقصرون ، لا قاصرون ، كما يصطلح عليهم الفقهاء .

بنـاء عـلى ذلـك ، إن من لم يكن مسلماً ، لا يستلزم بـالضرورة أن يكـون كافـراً ، أبداً . إنما الأمر كـما قلنا . والكفـر في مصطلح القـرآن يعني الأنكار ، وسـتر الحقيقة . والكفـار هم الـذين يتخنـدقـون في جبهـة ضـد الأنبيـاء والمرسلين ، ويناوئونهم من مواضعهم السلبية هذه .

قد يتبادر الى الذهن سؤال عن الذين لم يعـرض عليهم الاسلام ولا أي دين آخر ، ولم يظهروا ، بـالطبـع ، مخالفـة ولا موافقة ، فملذا يكون هؤلاء ؟ .

الجـواب هو إن هؤلاء ليسـوا من المؤمنين ، ولا ريب ، فلا يشملهم أحكام المؤمـنين الخاصـة ، ولكنهم ، في الوقت نفسـه ، لا تشملهم كـذلك آيـات مثـل هـذه الآيـة . في الحقيقـة ، إن دعوة الـرسل ، هي التي تـوجد تلك الأقسـام الثلاثة من الناس : المؤمنين ، والكفار ، والمنافقين .

الكفر المقدس :

لا بد ان نشير هنا الى انه ما دام أصل كلمة الكفر يعني ، الستر والإنكار والوقوف موقف المناوىء ، فانها قد ترتدي احياناً لبوساً مقدساً في القرآن ، أي إنها عندئذٍ تعني الوقوف ضد الباطل والكفر به . وأوضح ما يكون هذا في آية الكرسي :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّيْنِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنَ بِاللهِ ﴾[1] .

أي إن على كل مؤمن أن يكون كافراً ايضاً ، فما دام في موضع الحق ، لا بد له ان يكون من موضعه هذا ضد الباطل ، فينكره . وهذا هو الكفر المقدس .

يعتقد الشيعة إن فروع الدين عشرة ، فيكون التولي هو الفرع التاسع ، والتبرؤ هو الفرع العاشر . أي إن على كل فرد أن يؤمن بولاية علي بن ابي طالب . إلا أن هذا وحده لا يكفي ، بل يجب ان يكون لهذا جانبه السلبي في الوقت نفسه ، أي عليه أن يتبرأ أيضاً من كل ما هو ضد علي وخط سيره . فههنا ايضاً لا يكفي الايمان بالله ، بل يجب ان يصاحب ذلك انكار الطاغوت والكفر به .

---

(١) سورة البقرة ـ آية : ٢٥٦ .

﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ أبصارِهم غَشَاوَةٌ ﴾ :

عند الانتهاء من كتابة رسالة ما ، فانك تختمها بتوقيعك ، أو بختمك ، وبذلك لا تستطيع ان تضيف اليها شيئاً آخر . يقول القرآن إن قلب الانسان مثل الرسالة التي تكتب فيها السطور بالتدريج ، وقد تكون جيدة أو رديئة ، الى ان تصل حيث تنتهي ، فتختمها ، ولا تعود تستطيع اضافة شيء عليها .

فدعوة الرسول لأمثال هؤلاء لا تنفعهم شيئاً ، ولا تؤثر فيهم ، فيقول الله لرسوله : كف عن دعوتهم . وليس هذا لأن الدعوة منذ البداية لم تؤثر فيهم ، بل لأنهم قد تقولبوا ، فقد سمعوا الدعوة وألقيت عليهم الحجة ، ولكنهم رفضوا وأنكروا ، فظلت قلوبهم على هذه الحال .

يرى القرآن في الانسان كائناً دائم التحول والتبدل ، وما سمي قلبه بالقلب إلّا لتقلبه . وبالطبع ليس المقصود هو قلب الانسان الطبيعي ، بل هو تلك الروح ، أو النفس ، التي لها في كل لحظة حالة جديدة . يصف الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) القلب ، فيقول :

« مَثَلُ القَلبِ كَمَثَلِ رِيْشَةٍ في الفَلاةِ تَعَلَّقَتْ في

أصل شَجَرَةٍ يُقَلِّبُها الريحُ ظهراً لبطنٍ »[1] .

لقد ضمّن مثنوي هذا الحديث في بيتين ، وبالمعنى نفسه :

كُفْت پيْغَمْبَر كِهْ دِلْ هَمْچُونْ پَرى اسْتْ
دَرْ بِيابانى اَسِيرِ صَرْصَرِى اسْتْ
بادْ پَرْ راهَرْ طَرَفْ رانَدْ كِزافْ
كَرْ جَبُ وكَرْ راسْتْ باصَدْ اِخْتِلافْ

لا يكون الانسان في لحظتين بحالة واحدة ، فهو تحت تأثير اعماله قبل أي شيء آخر ، فالعمل الساطع يضفي عليه نوراً ، والعمل المظلم الكالح يسلب الانسان نوره ويبقيه في ظلام . إن العمل الطيب يهب الانسان لطفاً يجعله سريع التقبل للنصيحة وللحق وللحقيقة . أما الأعمال التي تخالف فطرة الانسان ، اعمال الكافرين ، فانها تورث القساوة في القلب ، وقد تحيل قلبه الى قطعة سواد ، وهي التي يصفها القرآن بأنها قد ختم عليها ، وانتهى أمرها ، إذ أن أصحابها يرون بأم أعينهم ، ثم يلوون كشحاً ، كأن ستاراً قد ضرب على أعينهم ، وعلى أبصارهم غشاوة .

---

(١) نهج الفصاحة والجامع الصغير ، ج ١ ، ص ١٠٢ .

هذه آثار الكفر ، لا أسبابها . وبهذا البيان تحل كل المسائل .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ المُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللهُ يَسْتَهْزِيءُ بِهِمْ وَيمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) .

ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين :

لما كان النفاق أخطر من الكفر ، فان القرآن المجيد لم يذكر هنا في الكفر سوى آيتين ، ولكنه أورد آيات عدةبشأن النفاق . ولعل هناك ١٣ سورة ورد فيها ذكر

النفـاق والمنافقـين في صـور شتّى، واختص القـرآن المنـافقـين بسـورة كـاملة هي السـورة ذات التسلسـل ٦٣ ، واسمهـا « المنافقون » .

ما النفاق ؟ :

النفـاق يعني ان يكون المـرء ذا وجهين ، أي أن يكـون في البـاطن شيئـاً ، وفي الـظاهـر شيئـاً آخـر . إن هـذه الخصلة ، وإن تكن مرفوضـة ومذمـومة ، إلا أنها في الـوقت نفسه ناشئـة عن كمال الانسـان . أي ، لما كـان الانسان ، من بـين الحيوانـات ، قد بلغ مـرحلة أكـثر تكـامـلاً ، فقـد أصبـح أقدر عـلى التصنع والتـظاهر . ومـا الحيوانـات ، أو اكثرها ، بقادرة على النفـاق ، باستثنـاء بعضها الـذي وصل من حيث الـذكـاء الى مـدى أبعـد ، مكنهـا من أداء بعض التصنـع . ولكن الحيوانـات الأخرى ، كـالطيـور ، أو ذوات الأربـع ، كـالحصـان ، والحمـار ، ليس في مقـدورهـا أن تتصنع . إنما القط قد يكون لـه بعض هذه المقـدرة ، حيث يستفيـد ، عند محـاولة اصـطياد فـأر أو عصفـور ، من هـذه المقـدرة ، فيخفي نفسـه ويصـطاد فـريستـه ، وهكـذا الثعلب ، ولذلك يـوصف بالمكـر ، وكذلـك يقال هـذا عن الذئاب التي تصل الى فرائسها بالحيلة .

ولكن ما من حيوان بقادر على التصنع مثل الانسان ، الذي يسبغ على تصنعه الواناً من التعابير الأدبية ، كالمخاتلة ، والمخادعة ، والمداهنة ، وكلها ضروب من النفاق ، أو يقال ان فلاناً يشارك الذئب طعامه ، ويشارك الراعي بكاءه ! .

وما قولي إن النفاق ناشيء عن تكامل الانسان ، إلا لأننا نرى انه كلما كان الانسان أقرب الى البداوة ، كان أقل نفاقاً . والطفل في صغره لا ينافق . ولذلك نراه اذا كان في مجلس ، وقدم اليه طعام ، يتناوله اذا كان راغباً فيه ، بل وقد يستعجله بالبكاء ، اذا أبطأوا في تقديمه له . ولكن الكبير في مجلس كهذا ، على الرغم من رغبته الشديدة في تناول الطعام ، فانه ، عندما يدعونه اليه ، يقول : لا أشتهي . هذه كذبة لا يقولها الطفل .

كلما تقدم الانسان في مضمار التمدن ، ازدادت قدرته على النفاق . لم يكن الانسان قبل الف سنة يعرف من النفاق عشر معشار ما يعرفه اليوم .

أفلا تلاحظون ان الألفاظ والتعابير السائدة اليوم اكثرها نفاقية ؟ خذ ، مثلاً كلمة (استعمار) فهي لغوياً ذات معنى جيد جداً ، وقد استعملها القرآن بمعناها الأصلي :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها فَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾[1] .

فاستعمار من باب استفعال ، ومن مادة عمر ، عمراناً . أي انه طلب منكم عمران الأرض . لقد خلقكم على سطح الأرض ، وكلفكم بعمرانها . فالاستعمار يعني طلب العمران .

وحيثما كانت تذهب الدول الاستعمارية ، لم تكن تقول لهم : اننا جئنا لنهب ثرواتكم ، وسلبكم خيراتكم . بل كانوا يقولون : جئنا لنعمر دياركم . وكانوا فعلاً يتظاهرون بفعل ذلك ، فكانوا يمهدون شارعاً أو شارعين ، ولكنهم كانوا يسرقون من الشعوب آلاف الأضعاف مما كانوا ينفقون ، وبهذا يستعبدون الشعوب . وعلى ذلك ، فإن كلمة استعمار كلمة منافقة ، أي انها على الرغم من معناها السليم . فإنها لا تستعمل بمعناها الحقيقي .

ان الذين كانوا يصطلحون على تسميتهم بالمبشرين المسيحيين كانوا في الحقيقة طلائع الاستعمار . أي انهم

---

(١) سورة هود ـ آية : ٦١ .

كانوا يمهدون الطريق لدخول الاستعمار الى البلاد لاستعمارها . فكانوا يدخلون باسم التبشير بالدين المسيحي، فيشغلون الناس بأوصاف عيسى المسيح وأمه مريم العذراء ، وبعد مدة كان الناس يحسون أنهم أخذوا يفقدون ثرواتهم المادية تحت ستار الثروة الروحية .

يقول احد الأفارقة : يوم أن وطئت اقدام الأوربيين بلادنا ، كنا نملك الأرض ، وكانوا يملكون الأنجيل . ولكن بعد مضي ٤٠ ـ ٥٠ سنة رأينا انجيلهم في ايدينا ، وأرضنا في أيديهم . ذلك هو النفاق .

والحقيقة ، إن كثرة تناول القرآن لموضوع المنافقين ليس سوى تحذير لنا نحن المسلمين ، لكي نكون على حذر دائم من المنافقين ، ولئلا نقع فريسة مخاتلاتهم . فالمنافقون ليسوا محصورين بصدر الاسلام ، ففي كل زمان منافقون ، يتسربون في صفوف المسلمين ، متظاهرين بالاسلام ، ثم يطعنونه بالخنجر في ظهره .

لعلكم قد سمعتم باصطلاح « الرتل الخامس » الذي ظهر خلال الحرب العالمية الأولى . اذ كان لأحدى الدول جيش يتألف من اربعة (ارتال) تحارب بالأسلحة المألوفة ، ولكنها كانت قد سربت قبل ذلك مجموعة من الجنود الى داخل جيش العدو ، يستغفلونه . يقال ان تأثير هذه

المجموعة كان أشد من تأثير الجيش العلني ، فأطلقوا عليه اسم الرتل الخامس ، إذ يتظاهر أفراده بالمحبة لأفراد العدو ، ولكنهم في الباطن يعملون لمصلحتهم .

فالقرآن يقول إن الرتل الخامس يتهدد المسلمين ، وهم أولئك الذين يقولون : **﴿ آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾** يقولون انهم يؤمنون بيوم القيامة ولكنهم يكذبون .

يخادِعُون الله وَالذين آمنوا :

لم يقل « يخدعون الله » إذ ما من احد يستطيع أن يخدع الله ، ولذلك قال « يخادعون الله » . المخادعة ، من باب مفاعلة ، ومن احدى معانيها : انهم يسعون الى خدع الله ويحاولون ذلك ويريدونه .

وَما يَخْدَعون إلاَّ أنفُسهم وما يَشْعرون :

ليس من الممكن خدع الحقيقة والواقع ، فمن يتصدّى لخدع الحقائق ، فانه في الواقع يخدع نفسه . قد يستطيع المرء أن يخدع الطبيب ، ولكنه لن يخدع الطب . فهو يستطيع ان يكذب على الطبيب فيخدعه ، فاذا سأله ان كان قد استعمل الدواء السابق ، يقول نعم ، مع انه لم يستعمله ، ثم لا يتبع ارشاداته ، ويقول انه فعل . فانه لا شك قد خدع الطبيب ، ولكنه لم يخدع الطب ، بل لقد

خدع نفسه ، وذلك لأن الطبيب يصف الدواء بحسب وصف المريض المرض ، وهكذا يكون المريض هو المنافق فيزداد مرضاً ، وينتهي أمره .

والمسلمون أيضاً يمكن أن ينخدعوا ، اذ يتم الدخول اليهم عن طريق المكر والحيلة ، ولكن الخديعة لن تنطلي على الله ، رب الحق والحقيقة ، والمخادع سيكون هو المخدوع .

قد يكون في جملة « يخادعون الله » احتمال آخر ، وهو ان المنافقين ما كانوا يريدون ان يخدعوا الله ، إذ انهم لو لم يعتقدوا بالله لما فكروا في خدعه ، واذا كانوا معتقدين به ، فان المعتقد بالله لا يمكن ان يعتقد بامكان خدع الله . وعليه ، فان هذه الجملة لا بد ان تكون من جملة تلك الموارد التي ينسب الله الى نفسه أعمال أصحاب الحق ، وأمثال هذا في القرآن كثير . ففي سورة الفتح (الآية ١٠) يقول : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ** ﴾ .

لذلك فان الآية تعني : إن الذين يتصدون لخدع أهل الايمان ، يقومون في الواقع بخدع انفسهم إذ إن الذين يسيرون على هدى الحق ، يكونون سائرين على الصراط المستقيم الذي توصل نهايته الى الله . انهم قد أسلموا انفسهم للحقيقة ، وان روح تسليمهم هذا هو الذي

ينجيهم ، حتى وإن بدا عليهم في الظاهر انهم في هذه الدنيا ليسوا من الشطار الأذكياء . أما الذين يدعون الشطارة والذكاء ، ويريدون ان يتقدموا عن طريق المكر والخديعة ، يحسبون أنهم قادرون على ذلك حتى في هذا المجال ، فيسعون الى خيدع أصحاب الايمان لبلوغ أهدافهم .

ولكن بالنظر لأن الحق والحقيقة لا يمكن أن تنطلي عليهما خدعة ، حتى وإن أمكن خدع اصحاب الحق ، فان خطط المخادعين سوف تنقلب عليهم انفسهم .

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيم بما كانوا يكذبون :

يبين الله في هذه الآية اصل الحالة ومنشأها. أصل الحالة هو مرض القلب . انهم مصابون بأمراض روحية ونفسية .

ولقد وردت في القرآن آيات عديدة تشير الى امراض القلب :

مرض التكبر والاستبداد ، مرض التعصب للخرافات القديمة ، مرض اتباع الآباء والأجداد ، مرض اتباع الكبر والكبّار . هذه بعض نماذج من الأمراض الروحية والنفسية التي تحول بين الانسان والرضوخ للحق ، بمثل ما

ان الفسق ، والفجور ، والتلوي ، تطمس استعداد الانسان لتقبل الحق .

هؤلاء المرضى يزيد الله مرضهم ، وذلك لأن طبيعة الروح تشبه طبيعة الجسم . فاذ مرض انسان يرجع الى الطبيب للعلاج ، ولكنه إذا لم يمتثل لأوامر الطبيب ، بل نافق معه ، وكذب عليه فلا شك في انه سيزداد مرضاً .

لقد صنع الله تعالى هذا العالم بحيث تنمو فيه كل زراعة ، انما الانسان هو الذي عليه ان يختار نوع البذور التي يبذرها ، فان شعيراً زرعت شعيراً تحصد وإن قمحاً زرعت حصدت قمحاً وإن حنضلاً فحنضل حصيدك ، وإن تمراً فتمر ، وكما يقول القرآن المجيد :

﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ﴾[1] .

فالله يعين الجميع، والعالم قد بني بحيث يسير كل نحو تكامله ، الصالح والطالح[2] .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ .

---

(١) سورة الاسراء ـ آية : ٢٠ .

(٢) مع اختلاف واحد ، وهو ما سوف نبحثه في مكانه ، عند البحث في كلمة « رب » بتفصيل أكثر .

سبق للقرآن أن ذكر بأن المنافقين يخدعون أنفسهم . وهذه آية أخرى يتضح فيها خداع النفس عند المنافقين .

يقال إن الكذاب ، لكثرة كذبه وتكراره ، يؤمن بالتدريج بصدق أقواله ، أو قد ينسى أنه هو الذي أشاع تلك الأقوال والشائعات الكاذبة .

ومن ذلك قولهم : إن أبلهاً تضايق مما يصيبه من أذى الأطفال ، فأراد يوماً أن يبعدهم عنه ، فأخبرهم ان في الطرف الآخر من المدينة يوزعون بعض الخيرات من الطعام ، فصدقه الصبية ، وانفضوا عنه ، وهرعوا الى حيث قال . وما أن رآهم يبتعدون عنه مسرعين ، حتى راح يسرع وراءهم ، قائلاً في نفسه : لعل الأمر صحيح ! .

يقول القرآن هؤلاء هم الرتل الخامس الذي يتظاهر بالولاء والمحبة للمسلمين ، ولكنه في الباطن يضمر الشر ، والفساد ، والأخلال بالمجتمع الاسلامي ، وأهداف الاسلام المقدسة . وإذا طلب منهم أصحابهم أن يكفوا عن الفساد ، يردون عليهم : إننا مصلحون ، ولسنا مفسدين .

أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ :

لاحظوا كيف يستعمل القرآن الحصر . فمرة نقول : زيد عالم . ومرة أخرى نقول : العالم زيد ، . وهذا يعني

ان زيداً هو وحده العالم في العالم ، وان غيره لا يعد من العلماء . فمعنى الآية هو أن هؤلاء هم وحدهم المفسدون ، وأن أي مفسد آخر لا يعد مفسداً بازائهم . أي ان الفساد قد تجسد في هؤلاء ، ولكنهم لا يحسون ذلك . **﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾** .

إذا طلب منهم سراً أن يتخلوا عن نفاقهم، وأن يؤمنوا مثل باقي الناس ، ردوا قائلين : إن الايمان والتدين يليق بعديمي الاحسان والحمق . أما نحن ، متنوري المجتمع ، كيف يمكن ان نؤمن مثل هؤلاء السفهاء ؟ .

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ :

إن الأداة (ألا) في هذه الآية ـ وكما في **﴿ ألا انهم هم المفسدون ﴾** ـ تنبيه للمسلمين ان احذروا هؤلاء ، فانهم سفهاء ، وانهم في درجة من الظلام دون أن يدركوا ما هم فيه .

هنالك نوعان من الجهل : الجهل البسيط والجهل المركب .

الجهل البسيط : هو ألّا يعلم المرء ، ويعلم انه لا يعلم ، وهذا جهل تسهل ازالته ، وذلك لأن المرء اذا لم يكن يعرف شيئاً ، وعرف انه لا يعرفه ، سيسعى حتماً

لمعرفته، أو أنه، في الأقل، يستمع الى ما يقوله الآخرون ويتقبله ان وجده حقاً . فهذا ، على كل حال ، جهل لا خطر منه .

الجهل المركب : هو ألاّ يعلم المرء ، وألاّ يعلم أنه لا يعلم . وهذا جهلٌ لا علاج له ، لأن غرور صاحبه يحول بينه وبين ازالة الجهل ، وهذا ديدن معظم الذين يدعون التنور والفهم ، وهي دعوى اساسها عدم التنور والفهم . يشير ابو علي ابن سينا في كتاب (الاشارات) الى هذا ، على ما أتذكر ، فيقول : « إياك وفطانة بتراء » اي كن على حذر من الذكاء الناقص . والقصد هو إن من الخير ان يكون الانسان إمّا بسيطاً ساذجاً ، وإما عاقلاً مكتمل النضج والفهم . فالساذج البسيط يعرف عادة هذه الصفة في نفسه . أما ذوو الذكاء الناقص والذين يكونون أذكياء أحياناً ، فانهم يحسبون أنفسهم في قمة الذكاء ، وأن كل اعمالهم تتصف بالحكمة ، انما هؤلاء هم أكثر الناس حمقاً وأشدهم عناءً .

للغزالي مأثورة يقول فيها : إن الوجود الناقص لأي شيء خير من عدمه ، إلا العلم والمعرفة . أي اننا لو ملكنا أي مقدار من الصحة ، أو من الثروة والجاه لكان خيراً من ألاّ نملك منها شيئاً . وليس كذلك العلم

والمعرفة . فالانسان الأمي خير من انسان نصف أمي ، إذ إن هذا يظن أنه مثقف كامل المعرفة ، وعندئذ لا يسعى للأستزادة من العلم .

ثمة بيت شعر للشاعر « سنائي » على ما أظن يقول فيه :

« كل امريء يعاني من شيء
وعنائي أنا من أنصاف المجانين »[1]

يريد ان يقول ان العقل كالعلم ، فاما ان يكون المرء عاقلاً تماماً ، أو عالماً تماماً ، فأنصاف العقلاء وأنصاف العلماء أشد ضرراً من فاقدي العقل والعلم .

وكل مخادع عاش في المجتمع يكون عادة من هؤلاء (الأنصاف) من الناس ، أي من أصحاب أنصاف الذكاء ، لا كل الذكاء ، فالذكي الكامل ، إن لم يعتقد بشيء ، فانه يدرك بذكائه ان السعادة والنجاح في الصدق . أما أنصاف الأذكياء ، والذين صادفتهم في حياتي كثيراً ، فيرون ان مكانتهم تقتضي ألّا يعاملوا أحداً بصدق ، وهؤلاء لا صديق لهم اطلاقاً ، إذ انهم لا يثق

(١) رَنجِشِ هَرکَسيْ زِيك جيز است
رَنْجِشِ مَنْ زِنيْسُمْ دِيوانَهْ اسْتْ

بهم أحد ، لأن الناس تعرف أنهم في كلامهم خبثاء ، يتشاطرون .

والقرآن يرى ان هؤلاء المنافقين هم من ذوي الجهل المركب ، ويقول انهم لا يعلمون ، ولا يعرفون انهم لا يعلمون ، لا يشعرون ، ولكنهم يحسبون انهم يشعرون .

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا الى شياطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُون ﴾ .

وكما قال القرآن من قبل : ﴿ وما يخدعون إلا أنفسهم ﴾ يقول أيضاً : ﴿ والله يستهزيء بهم ﴾ أي انهم يظنون انهم قادرون على السخرية من الحق وعلى خداعه . ليس الأمر كذلك البتة ، بل الحقيقة هي التي تسخر منهم ، فهم في نهاية الأمر يستهزأ، بهم وحدهم .

وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُون :

إنَّهم طغاة ، والله يزيد من انغمارهم في الطغيان حتى تصيبهم الحيرة وينتابهم الارتباك التام ، فلا يدركون ما يفعلون .

الى هنا يكون القرآن قد اورد عدداً من صفات المنافقين :

الأولى : هي ان المنافقين يتظاهرون ، فالتظاهر من

سمات المنافقين ، بحيث أنهم يتظاهرون بالايمان أكثر مما يظهره المؤمن .

الثانية : هي انهم مخادعون ، مداهنون . وهذه من خاصة صفاتهم .

الثالثة : هي أنهم مصابون بمرض نفساني ، فيحسبون انهم بأعمالهم تلك يشفون مما فيهم من عقد نفسية ، ولكنهم ، على العكس من ذلك ، يشتد عليهم المرض ، وتزداد عقدهم .

الرابعة : أن الأمر قد اختلط عليهم بحيث أنهم يظنون أن في أعمالهم صلاح المجتمع ، أي انهم يلبسون أعمالهم الفاسدة لبوس الصلاح ، وهم يظنون أنها كذلك .

الخامسة : هي أنهم هم الحُمُقُ والسفهاء ويظنون ان غيرهم هم السفهاء .

السادسة : هي انهم ذوو وجهين ، ومن ذلك انهم يقولون شيئاً في هذا المجلس ، ويقولون ضده في مجلس آخر .

تلك هي صفات المنافقين التي وردت في القرآن .

هنا لا بد أن نشير الى عدد من النقاط :

١ ـ كلمة (الناس) : من الناس من يقول آمنا . . . فهذه الكلمة عامة ، وتشمل طبقات شتى ، كالغني ،

والفقير ، والعالم ، والجاهل ، والأبيض ، والأسود ، والظالم ، والمظلوم . . . الخ .

فاذا لم نكن نقصد أياً من هذه الطبقات ، والأنواع ، ولا تهمنا أشكالها ولا الوانها ، عندئذٍ نجيء بهذه الكلمة لتشمل الجميع ، أي الانسان بصرف النظر عن اللون ، والشكل ، والطبقة ، والدين ، والعقيدة وباصطلاح الفلاسفة : الانسان غير المشروط .

لقد أيد المفسرون القدامى هذا المعنى لكلمة (الناس) وهو ما نعتقد بصحته ، ولكن ثمة آخرون وقعوا في السهو ، فقالوا إن كلمة (الناس) تطلق على فاقدي كل شيء ، أي الطبقة الكادحة ، الطبقة المحرومة . في هذه الحالة تشمل الكلمة طبقة معينة ، ولا تشمل الجميع ."

إلا إن الأمر ليس هكذا ، وإنما معنى كلمة (الناس) هو ما ذكرنا ، وما هو مقصود به في القرآن . هم الناس ، دون اعتبار لوضعهم الخاص ، لدينهم ، لفقرهم ، لغناهم ، للونهم ، لعلمهم ، لجهلهم . وعندما يقول القرآن : ﴿ يَا أَيُّها النَّاسُ آعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾[1] فانه لا يوجه

---

(١) سورة البقرة آية ٢١ .

الخطاب الى الطبقة المحرومة فقط ، وانما هو يخاطب الجميع . وكذلك قوله :

﴿ لله عَلَىٰ النّاسِ حجُّ البَيْتِ مَنِ استَطَاعَ إلَيْهِ سَبِيلاً . . . ﴾[1] .

فالحج قد فرض على الناس كلهم ، لا على بعض دون بعض ، انما اشترط لذلك الاستطاعة .

كما ان كلمة (الناس) اطلقت في مكان آخر من القرآن على الكفار :

﴿ إنّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ﴾[2] .

وهي تشير الى الحملة التي كان الكفار ينوون شنها على المدينة ، حيث أشيع ان (الناس) قد اجتمعوا لمهاجمة المسلمين ، وذلك لكي يلقوا الرعب في قلوب المسلمين . كما ان (الناس) قد أطلقت في الآية التي نبحث فيها على المنافقين : ﴿ومِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ . . . ﴾ والذين قالوا إن (الناس) تعني الطبقة المحرومة ، اضطروا الى القول بأن المنافقين جزء من الطبقة المحرومة ، وليس هذا صحيحاً ، فالمنافق يمكن أن يكون من أية طبقة . والجدير

---

(١) سورة آل عمران آية ٩٧.

(٢) سورة آل عمران ـ آية : ١٧٣ .

بالذكر ان منافقي صدر الاسلام ، الذين عناهم القرآن ، كانوا من الأشراف في غالبيتهم . إن رئيس المنافقين على عهد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كان (عبد الله ابن أُبي) وكان من أكبر شخصيات المدينة قبل هجرة الرسول اليها ، حتى ان أهل المدينة كانوا قد اتفقوا على اختياره ملكاً عليهم ، لكي يقضوا على الخلافات القديمة بين الأوس والخزرج ، فكانوا يعدون العدة لصنع تاج الملوكية له .

وفي تلك الفترة التي كان يرى فيها التاج في متناول يده ، ظهر الاسلام في مكة ، واتصل عدد من أهل المدينة بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) واسلموا ، وطلبوا منه ان يرسل الى المدينة من يعلمهم أمور دينهم ، فأرسل الرسول مصعب بن عمير ، وأسلم عدد كبير من أهل المدينة ، وهكذا مهد الطريق لهجرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إليها وكان حتماً ان تنهار كل استعدادات عبد الله بن أبي ، وتتلاشى آماله ، فكان ان استشاط قلبه حقداً على الاسلام .

فعندما اسلمت الكثرة من أهالي المدينة ، لم يجد هذا الرجل بدأ من التظاهر بالاسلام ، ولكنه في باطنه لم يسلم أبداً .

على كل حال ، فان كلمة (الناس) هنا ليست بمعنى المحرومين ، والدليل على ذلك هو عبد الله بن أبي ، هذا الذي لم يكن من محرومي المدينة ، بل كان من أشرف أشرافها .

٢ ـ النقطة الأخرى هي إنكم لا ريب قد لاحظتم ان القرآن المجيد قد أورد ذكر الكفار مرتين ، وذكر المؤمنين ثلاث مرات أو أكثر ، ولكنه عندما يصل الى المنافقين ، فانه يذكرهم في حوالي ١٣ آية . وقد بدأ عدداً منها بـ(ألا) التحذيرية . فلماذا يعني القرآن كل هذه العناية بتعريف المنافقين ؟ .

هذه المسألة لم يغفل عنها المفسرون ، اذ يقولون : على الرغم من ان المنافق يدخل ضمن الكفار ، الا انه ، كما ورد في القرآن ، أخطر على الاسلام من الكافر كثيراً . فالكافر ـ حسب تعريف القرآن ـ هو الذي لا يقبل بالله وبالرسول ، وهو صادق في إنكاره ، أي انه يعلن رأيه هذا ، فيعرفه الناس . أما الذي يخفي ما في قلبه ، فيقول بلسان خلاف ما في قلبه ، فهذا خطره كبير ، لأنه يخدع المسلمين ، بينما الكافر لا يخدع الناس ، لذلك قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾[1] .

لقد رأينا في التاريخ أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يحارب وينتصر ، ولكن (عليه السلام) لا يستطيع ان ينتصر مثل رسول الله ، والسبب هو ان الرسول كان يحارب الكفار ، وعلي كان يحارب المنافقين ! أي إن الرسول كان يحارب أناساً كانوا صادقين في سلوكهم وصراحتهم ، وعندما كان يقول لهم : قولوا لا إله إلا الله ، كانوا يرفضون ذلك . كان أبو سفيان ينادي : « أعل هبل ، أعل هبل » ، وكان الرسول ينادي : قولوا الله أعلى وأجل . وهكذا كان الله يقف وجها لوجه مع هبل ، فكانت النتيجة معلومة ، انتصار الله وهزيمة هبل .

أما علي (عليه السلام) فقد كان يواجه أمثال أبي سفيان ، ولكن شعاراتهم كانت شعارات اسلامية . اذ لو كان معاوية ـ وهو الذي كان يسعى للوصل الى مرامي ابيه ـ قد رفع ، مثل أبيه ، شعار أعل هبل لكانت هزيمته محققة . ولكنه الآن يرتدي لبوس الاسلام ، ويذرف دموع التماسيح على الاسلام ويقول :

---

(١) سورة النساء ـ آية : ١٤٥ .

﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّه سُلطاناً فَلا يُسْرِفْ في القَتْلِ إنَّهُ كانَ مَنْصوراً ﴾ .

كان ينادي ان خليفة الرسول عثمان ، قد استشهد ، أيّها الناس ، ايجوز ان يذهب دم خليفة الرسول هدراً ؟ وهكذا راح يؤلب الناس للانتقام من قتلة عثمان ، ثم أعلن إن علياً كان على رأس اولئك القتلة . مع ان قاتل عثمان الحقيقي هو معاوية نفسه ، وهذا كلام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة : « وهم يطلبون دماً هم سفكوه » . ثم يخاطب معاوية قائلاً : « . . . فانك إنّما نصرت عثمان حيث كان النصر لك ، وخذلته حيث كان النصر له » .

ذلك انه كان قد بعث بعيونه الى المدينة ليحصوا على عثمان حركاته ، فما أن يقتل حتى يرسلوا بقميصه الملوث دماً الى الشام . وقد نفذت العيون أمره ، وبقي القميص زماناً معلقاً في مسجد الشام ، حيث كان معاوية يتباكى عنده ويلطم صدره تحت أنظار الناس ، فيثير السذج منهم ، ويحركهم باسم الله ولله ، فيريقون دماءهم ويقتلون .

ثم في موقعة صفين ، يوم أدرك أن الهزيمة وشيكة ، لم يتورع عن اللجوء إلى الخديعة والنفاق ، فأمر بالمصاحف

رفعت على الرماح ، زاعماً انه يقبل بحكم القرآن ، فيما كان علي (عليه السلام) ، وهو العالم بالخدعة المخفية في ذلك ، ينادي أن اضربوا وتقدموا . غير أن الجهلة من الأخيار الذين لم يدركوا خط المنافقين ، صرخوا بأنهم لا يحاربون القرآن ، وأن استمرارهم على الحرب محاربة للقرآن . وهكذا نجا الأمويون .

ذلكم هو خطر النفاق الذي يحذر منه القرآن بـ(ألا) التحذيرية . لم يواجه الاسلام كفراً الا وانتصر ، ولم يواجه النفاق الا وهزم ، لأن النفاق يستغل قوة الاسلام نفسها ويستخدمها ضده ، أي انه يرتدي لباس الاسلام ، ويقاتله به .

٣ ـ ثالثة الأمور التي أود الاشارة اليها هي ان خطر النفاق كان دائماً يهدد الاسلام ، ولكنه لم يكن يظهر بالشكل ذاته في كل مرة ، بل كان في كل عصر وفي كل زمان يظهر بشكل جديد .

قبل ايام كنت اطالع كتاباً يبدو انه حديث الانتشار في الأسواق ، وقد ظهر لي منه ان هناك أشخاصاً يبشرون بالمادية ، بالعلم أو بغير علم ، تحت ستار القرآن .

فالكتاب يبدأ بسم الله الرحمن الرحيم ، وكله عن الله ، والرسول ، والقرآن ، ولكن عندما تصل الى محتوى

الكتاب تجده يخفي ماديته تحت ملامح القرآن .

أي إن ذلك المادي نفسه الذي ظن قبل بضع سنوات انه قادر على محاربة الدين في ايران ، فراح يقول ان الله كذب ، والرسول كذب ، والوحي كذب ، ولكنه هزم شر هزيمة في قبال قوى الدين ، جاء الآن ، بعد أن يئس من أسلوبه ذاك ، بأقواله نفسها ولكن بصبغة اسلامية . أي انه ينكر وجود الله ولكن بشكل آخر ، وكذلك ينكر يوم القيامة ، فحيثما يكون الكلام على يوم القيامة والآخرة ، تكون الاشارة الى نظام أعلى ، وإذا كان الكلام على الدنيا ، فتكون الاشارة الى عالم أدنى .

فالدنيا بلسان القرآن هي عنده ذلك الظالم والطاغوتي ، الذي اذا تغير أصبح : الآخرة ! .

وهذه بالطبع كلمة حق يراد بها باطل . فما من شك في أن في الدنيا أنظمة سيئة ، فلا بد من محاربتها ، واقامة أنظمة اعلى مكانها ، وهذا ما نراه في التعابير القرآنية ايضاً ولكن القرآن لم يقصد بالدنيا والآخرة نظاماً أدنى ونظاماً أعلى ، أبداً . بل ان الدنيا والآخرة ، والنظام الأدنى والأعلى مواضيع متباينة مختلفة .

نلاحظ انه لا يقول ان الآخرة كذب ، ولا ينكر خلود الانسان في العالم الآخر ، ولكنه يصف الخلود بمثل ما

يصفه الماديون ، من انه التكامل ، أي ان فرداً يروح ، ويأتي آخر بمكانه ، ويروح الثاني ويأتي الثالث ،،وهكذا يكون الجنس البشري باقياً ، وهذا هو الخلود .

هذا هو القرآن الذي رفعه معاوية على الرمح ، انما قد تغيرت ملامحه . وهذا هو النفاق الذي يظهر في كل عصر بشكل جديد ، دون أن يعرف المسلمون انهم مخدوعون بذلك القرآن المرفوع على الرمح ، وكلما ظهرت جماعة معادية للدين ، البست عداءها لباس الدين ، ولكن اذا تنبه لهم المسلمون واستفاقوا ، لذهبت خطط أولئك أدراج الرياح .

والقرآن يرثي لهؤلاء حالهم ، فيقول :

﴿ أُوْلَئِكَ الذِينَ ٱشْتَرَوا الضَّلالَةَ بِالهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِين ﴾ .

فهؤلاء على الرغم من انهم لم يربحوا شيئاً ، فانهم قد أصيبوا بأضرار بالغة ، ولم يجدوا لأنفسهم مخرجاً ، فظلوا ضائعين .

يسأل الامام (عليه السلام) عن العقل ، فيقول :

« العَقْل ما عُبِدَ بِهِ الرحمنُ ، واكتُسِبَ بِهِ الجَنان » .

فيسأله السائل : إذن ما هذا الذي كان عند معاوية ؟

فيكون جواب الامـام : « تلك النكرى والشيـطنة » ، وهمـا والعقل شيئان مختلفان .

ويقصد الامام بـذلك الـدهاء والشيـطنة والنفـاق ، أما العقل فهو الذي يهدي الانسان الى المعنويات والانسانية .

* * *

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نـاراً فَلَمَّا أضَـاءت مَـا حَـوْلَـهُ ذَهَـبَ الله بِنُـورِهِـمْ وَتَـرَكَهُـمْ في ظُـلُمَـاتٍ لا يُبصِـرونَ (١٧) صُمٌ بُكْمٌ عُمْي فَهُمْ لاَ يَـرجِعُـون (١٨) أوْ كَصَيب مِنَ السَّمَـاءِ فِيـه ظُلمـاةٌ وَرَعـدُ وَبَـرقٌ يَجْعلُون أصـابِعَهُمْ في آذَانِهِمْ مِنَ الصَّـواعِقِ حَـذَرَ المـوْتِ وَالله مُحِيطٌ بالكافِرِينَ (١٩) يَكادُ البَـرْقُ يَخْطُفُ أبْصَـارَهُمْ كُلَّمَا أضَـاء لَهُمْ مَشَوْا فِيـهِ وإذا أظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُـوا وَلَـو شـاءَ الله لَـذَهَـبَ بِسَمْعِـهِمْ وأبْصَـارِهِمْ إنَّ الله عَـلَىٰ كُـلِّ شَـيءٍ قَدِير (٢٠) ﴾ .

بعـد أن اشار القـرآن إلى كيد المنـافقين ومخـادعـاتهم ، ووصفها بأنها سلسلة اعمـال لا أثر لهـا ومهزومـة ، وقال ان هؤلاء أرادوا أن يكـونوا الخادعين ، فكـانـوا المخـدوعـين ، ضـرب مثلين لهذا النـوع من الكيد والمخـادعة ، نـرى فيهما وجهـاً مهماً من وجـوه (فلسفة التـاريخ) في نـظر القـرآن ، بحيث يمكن القـول بأنـه أصل من أصـول الفكر القـرآني ،

ونظرة توحيدية من نظراته الى العالم . ونحن بالنظر لكوننا نجد هذا من المباحث المهمة والرئيسة ، نجدنا ملزمين أن نورد شرحاً أوفى لهذا الموضوع .

هنالك نظريات وآراء متعددة بخصوص العالم عموماً ، وبخصوص الانسان ، والمجتمع البشري ، منذ بدايته وحتى مستقبله الآتي ، من حيث الخير والشر ، والجودة والرداءة ، والحق والباطل ، وهل إن وجود العالم حق وخير ، أم إنه هباء وباطل وشر ، أم إنه مركّب ، نصف حق وخير ، ونصف شر وباطل ، وهل إن ما يحكم حياة الإنسان خير أم شر ، حق أم باطل ، أو إنه نصف حق ، ونصف شر ، فإذا قلنا بكليهما ، فلمن تكون الأصالة ، للحق أم للباطل . . . الخ .

سوف نبدأ أولاً بذكر النظريات التي قالها الفلاسفة والمفكرون وعلماء الاجتماع ، ثم نذكر وجهة نظر القرآن التوحيدية بشأن كل ذلك .

لا شك في ان حياة البشر حياة خليطة ، أي ان حياة الفرد وحياة المجتمع خليط من الخير والشر ، فيها العدل وفيها الظلم ، وفيها الصدق وفيها الغش والخداع . لحياة البشر إذن صفحتان : صفحة نيرة ، وأخرى مظلمة .

إن اختلاط النور بالظلمة ، والعدل بالظلم في حياة الانسان ، من العمق بحيث ان الانسان كان موضع كلام

في الملكوت الأعلى ، قبل خلقته على الأرض ، وانه قد نظر اليه من منظورين اثنين .

عندما يعلن الله تعالى للملائكة قائلاً : ﴿ إنِّي جاعِلٌ في الأرضِ خَلِيفةٌ ﴾ ارتفعت الأصوات في الملكوت الأعلى تتساءل عن الحكمة في خلق كائن مفسد دموي : ﴿ قَالُوا أتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفسِدُ فِيهَا وَيُسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ لقد كان الملائكة ينظرون الى الانسان من وجهة نظر واحدة ، هي كونه مخلوقاً مفسداً ، سافكاً للدماء ، فتساءلوا ـ إن لم نقل اعترضوا ـ عن الحكمة في خلقه .

إن لهذا جانبه الآخر ، فهذا الانسان مخلوق لم يستطع حتى الملائكة أن يصلوا الى أسرار وجوده وسبرها ، وان الله هو وحده الذي يعرف اسرار وجوده . ولكن الله لم يقبل هذا من الملائكة ، ورفض قولهم ، ورد عليهم قائلاً : ﴿ إنِّي أعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ثم خلق الانسان ، وفي اختبار استعراضي واحد أثبت لهم انهم كانوا مخطئين .

فاذا ما تجاوزنا ذلك ، نجد ان فلاسفة البشر ومفكريهم ما فتئوا يتحدثون عن هذا ، ولهم فيه نظريات .

إن أكثر الفلاسفة الماديين الذين يحملون نظرة متشائمة عن الطبيعة ، والذين لا يعتقدون بأصل خلقة الانسان ،

ويعتبرونه نتيجة المصادفات ، يقولون : إن الشر جزء من طبيعة الانسان ، وانه لم يترك فعل الشر منذ أن وجد الأرض ، وانه ما يزال كذلك ، ولسوف يظل كذلك في المستقبل ، فلا أمل فيه من حيث السعادة . لذلك فهؤلاء يرفضون كل مشروع لإصلاح المجتمع ، إذ لا أمل لهم فيه ، ولا يرون امكان اصلاحه ، بل ينظرون بعين الريبة الى كل وجهة نظر اصلاحية سواء أكانت دينية أم فلسفية ، قائلين ان كل هذا اصلاح سطحي ، زاعمين ان واضعي تلك المشاريع الإصلاحية هم انفسهم من البشر ، ولهم ما للبشر من غرائز مختلفة ، ولا يتأتى من الغرائز البشرية غير الشر ، ولذلك فهم لا يرون فائدة من وضع خطة للأصلاح الاجتماعي .

فاذا سئلوا : بأي أمل يبقى الناس أحياءً إذن ؟ أجابوا : ما من شيء يحدوهم على البقاء ولا ينبغي لهم . إن على الانسان الذي يبلغ الكمال أن ينتحر ، وهذه هي قمة التقدم ، حيث يصل الانسان الى مرحلة يدرك فيها ألّا شيء في الدنيا غير الشر ، ولا يختلف مستقبله عن حاضره ، فكلما طال بقاؤه في العالم ، ازدادت الشرور من حوله . وبهذا يكون الانسان قد بلغ مرحلة (بلوغه الفكري) وعليه أن ينتحر .

لقد كتب الكثير من الكتب عن هذا الموضوع ، ولسنا بصدد ذكرها هنا ، إلا أن عدداً من أمثال هؤلاء الفلاسفة قد انتحروا فعلاً ، وهم من الماديين ، ويعرفون بالفلاسفة المتشائمين . وهنالك في اوربا عدد من الكتاب الذين اتبعوا هذه الفلسفة وكتبوا حولها مقالات عديدة .

وثمة كتاب هنا في ايران وفي عصرنا هذا نفثوا سمومهم في كتاباتهم . وأحد هؤلاء هو (صادق هدايت) ، الذي كان شاباً ، ولكنه وقع تحت تأثير هذه الأفكار ، وانتحر في ١٣٢٠ هـ. ش . كان هذا يفتخر في كتاباته بأنه قد وصل الى تلك المرحلة من (البلوغ الفكري) التي لا يسعه معها سوى الأقدام على الانتحار . وكان يريد من الناس أن يحذوا حذوه ، فينتحروا .

والأدهى من ذلك ، ان بعضاً من هؤلاء ، يقول : ان أعظم خدمة للبشرية هي ان يستطيع الانسان قطع دابر البشر واجتثاثه من على وجه الأرض ، كأن يباد بقنبلة . يتضح من ذلك مدى خطر هذه الأفكار وحماقتها .

هنالك طراز آخر من التفكير ، وهو صادر عن الماديين أيضاً ، وعلى الرغم من انه متشائم أيضاً ، إلا أن تشاؤمه ليس كذلك ، وإنما هو يثير مشكلة أخرى . يقول هؤلاء

أن ليس للانسان ميول فطرية ، وانما هو يتبع ما يخطط له .

وأما الذين يقولون بمادية التاريخ والمجتمع ، فيقولون بأن ما يتحكم في حياة البشر حكماً مطلقاً هو العلائق الاجتماعية المادية ، والعلائق الاقتصادية ، والعلائق الإنتاجية ، وان حياة الانسان تابعة لهذه الروابط ، إن خيراً وإن شراً . فلا تفاؤل ولا تشاؤم ، فقد تكون حياة الانسان حسنة اذا حسنت هذه العلائق ، وقد تسوء حياته إذا ساءت هذه العلائق ، فهي محكومة بها .

يقولون : عندما كان مستوى الانتاج ووسائله منخفضاً ، ولم يكن الانسان قادراً على الحصول عل أكثر مما يحتاجه لطعامه اليومي ، لم تكن حياته تختلف عن حياة الحيوان ، كالطيور التي تطير من أعشاشها صباحاً جائعة ، وتظل تلتقط الحب حتى المساء حين تعود الى أعشاشها ، وتعيد ذلك في اليوم التالي .

هكذا كان الانسان الأول . لم يكن يدخر شيئاً ، ولم يكن يملك ثروة .

كان الناس يعيشون حياة اشتراكية ، وأحياناً كانوا يعدون طعامهم بصورة مشتركة أيضاً . فالشخص لم يكن قادراً على صيد الحيوان بمفرده ، إذ لم يكن يملك الوسائل

المناسبة ، فكان يجتمع مع غيره ، فيصطادون حيواناً كبيراً بصورة مشتركة ويقسمون لحمه فيما بينهم .

في ظروف كهذه ، كان الناس مضطرين للعيش مع بعضهم كالأخوان ، تحت ضغط الظروف المذكورة ، مثلما كانت اسراب الطيور تعيش متآخية ، فلا حرب ، ولا نزاع ، ولا سفك دماء .

ثم لما تدرج الانسان على مدى التاريخ وازدادت تجربته ، واكتشفت الزراعة ، ودجن الحيوان ، واستفاد من لبنه ، وعرف طرق تكاثره ، استطاع أن يدخر طعامه ، وزرع الحنطة فحصد أضعافها ، وأصبح الفرد قادراً على انتاج ما يكفي عشرة.

وما ان بلغ الانسان هذه المرحلة من ادخار اكثر مما يحتاج ، حتى انهار تنظيمه السابق ، واستجد تنظيم جديد . في النظام السابق كان على كل امريء أن يعمل حتى يأكل ، فاذا توقفت يداه عن الحركة ، توقف فكاه عن الحركة أيضاً ، ولكن في النظام الجديد ، حيث الفرد يستطيع ان ينتج اكثر مما يحتاج ، أخذ الأقوياء يسخّرون الضعفاء ليعمل هؤلاء ، فيأكل أولئك . وظهرت بذلك الملكية ، ملكية الأرض ، وملكية الانسان .

وعلى اثر اختلاف نظام الانتاج وملكية وسائل الانتاج ، اختلف النظام الاجتماعي . فبعد أن كان الناس يعيشون كالأخوة ، بدأوا يعيشون متقابلين كالأعداء . غرب ذاك النور والخير السابق ، وساد الظلام حياة البشر كلها . ومنذ ذلك اليوم في تاريخ البشر انتصر الظلام على النور ، والشر على الخير ، والظلم على العدل ، والكذب والخداع على الصدق . وفي غضون ذلك كان ثمة شرر أو برق يلتمع في الظلمة بصورة استثنائية ، كأن يظهر فيلسوف أو قائد نهضة يضطره الضغط الى أن يخطو خطوة ، أو في نظر الذين لم يكونوا كثيري التشاؤم ، يظهر رسول ، وينشر الخير والعدل بعض الوقت ، ولكن لما كان النظام الذي يحكم التاريخ نظام ملكية الثروة ، لم يدم نظام الخير والعدل طويلاً ، فتلاشى مثل لمحة البرق في ظلام الليل . وعادت خطة الاصلاح نفسها لتصبح وسيلة بيد أصحاب الثروة يستغلون بها المظلومين والمقهورين . أي إن ما ظهر أولاً كإدام للخبز أصبح بلاءً على رؤوس الناس ، حتى أمسى هذا مصير كل دين أو فلسفة أو اصلاح أخلاقي يظهر على يد أحد المصلحين .

ويقولون ايضاً : ان هذا ما زال مستمراً ، وانه لا علاج له إلا إذا تغير الأساس نفسه ، أي علاقات الانتاج . يعني ان البشر كان يوماً يعيش في ظل نظام

اشتراكي مضطراً ، بسبب نقص وسائل الانتاج ، واليوم إذا تكاملت وسائل الانتاج ، فسيضطر الانسان الى العودة الى النظام الاشتراكي ، راضياً أم كارهاً . أي إن الحالة تصل حداً لا يمكن أن يعيش فيها الانسان إلا اذا طبق الاشتراكية ، ولا تأثير لارادة الانسان في هذه القضية ، بل ان ازدياد وسائل الانتاج يوجد الاشتراكية بصورة صحيحة .

ثم لا يعود النور ، والعدل ، والخير ، والصفاء ، والمحبة ، والأخوة ، الى المجتمع البشري مرة اخرى ، إلا إذا عادت الاشتراكية الكاملة : الشيوعية .

إذن ، هذه النظرية لا تقول ، كالمادية ، بأن طبيعة البشر مجبولة على الشر وستبقى كذلك . ولكنها تقول ان الانسان لا طبيعة له ، انما هو لعبة مسخرة بيد وسائل انتاجه .

في البداية كانت وسائل الانتاج بشكل يضطر معها الانسان ان يكون صالحاً ، ثم اتخذت وسائل الانتاج شكلاً آخر ، وظهرت الثروة والملكية ، فغدا الانسان فاسداً . وما دامت الثروة والملكية موجودة ، فلا سبيل الى الاصلاح ، وإذا قال البشر إنهم يريدون أن يصلحوا ، فانهم واهمون ، وهذا ما يسمى بالاشتراكية الخيالية . فإذا

اراد الانسـان اصلاحـاً حقيقيـاً ، عليـه ان يصبـر حتى يبلغ مـرحلة الغـاء الملكيـة والتي تكـون نتيجـة لـرشـد وسـائـل الانتـاج . فـذلـك هـو اليـوم الـذي يمكن ان نشـاهـد فيـه المسـاواة ، والعـدالـة ، والنـور ، والخـير تسـود المجتمـع البشري .

نظرية القرآن :

نعـود الآن الى القـرآن لنـرى كيف ينـظر الى هـذه المسألة ، وهي من أهم مسـائل القـرآن في تفسير التـاريخ . هل ينظر القرآن إلى الانسان وحيـاته نـظرة متفائلة ، ويقـول بـأن الشر لم يكن له وجـود ، وليس له وجـود ، ولن يكـون له وجود ؟ من الـواضح ان الأمـر ليس هكذا ، وليس ثمـة مـا يوجب البحث في ذلـك ، لأن القرآن يقـول بأن الحـرب بـين الحق والباطـل كانت مستمـرة عـلى امتـداد التـاريـخ ، ولذلك فهو يرى ان للبـاطل كيـاناً ووجـوداً . أي ان القرآن يضـع النور في قبـال الظلمـة . ففي قصـة خلق آدم كـما مـرت ، وقد حسب المـلائكة أن آدم شر محض ، نبههـم الله الى أنهم كـانوا مخـطئين ، وقـال انه يعلم أشيـاء لا علم لهم بهـا ، وانه يـرى ما لا يـرون . أي إن ما يـرونه صحيـح ، والله يـراه أيضـاً ، ولكنـه يـرى ضمن ذلـك أمـوراً لا يستـطيعون هم رؤيتهـا ، إذ أنهم لم يقرأوا إلّا وجهـاً واحـداً

من الصفحة دون الوجه الآخر . وعليه ، فان نظرة القرآن ليست كذلك .

فهل يرى القرآن ان البشر شر محض ؟ أي انه يحمل النظرة المتشائمة اليائسة نفسها التي كان يحملها « نيتشه » و « شوبنهاور » وأتباعهما ، ممن يقولون ان البشر كائن لا يمكن اصلاحه ، فيجب ان يترك وشأنه ؟ كلا .

وذلك لأن رسالة الأنبياء هي اصلاح المجتمع الانساني عموماً . فلو كانوا يحلمون نظرة متشائمة كتلك ، لما جاؤوا بمناهج اصلاحية . ثم ان هذه النظرية لا تتلاءم مع نظرية التوحيد ، وهي من أهم نظريات القرآن الرئيسة . أي ان النظرة الإلهية التوحيدية ، إلى العالم ليست كتلك ، إذ لا يمكن أن تكون نظرة القرآن الى العالم نظرة إلهية توحيدية ، ثم ترى ان العالم باطل وشر وبلا طائل .

إن القرآن المجيد يرى ، كما هو المشهود منه ، ان نظام الخليقة نظام خير ، أي إنه ، مع قوله بوجود الخير والشر في العالم ، فانه يعتقد بانتصار الخير على الشر ، والاسلام لا يجيز نظرة غير هذه للعالم . فما الذي يقوله القرآن ، وما هي نظرته بهذا الشأن ؟ .

إن نظرة القرآن هي على النقيض من النظرة الماركسية . فالقرآن يقول ، ان الحق والباطل كانا دائماً

موجودين على امتداد التاريخ ، وان النـزاع بينهما من طبيعـة البشر ، لأن الانسـان كـائن ذو طبيعتـين وسجيتـين ، تلك الـطبيعة التي تقـول عنهـا الأخبـار والـروايات ، إن الله قـد خلق فيهـا الشهـوة والعقـل . ولكن القـرآن يـرى أيضـاً ان النصر في هذا النزاع الطويل عبـر التاريـخ للخير ، فـالعدل والنـور دائمـان ، والـظلمـة والشر مـوقتـان . والقــرآن ، بخـلاف ماركس ، لا يجعـل الملكية هي المعيـار ، وانمـا هـو يقول بأصالة الايمان ، أي الأسس الروحية والفطريـة . أي انـه لا يقول ان الـدين والأخـلاق كـانـا دائـماً ألعـوبـة بيـد الثـروة ، بل رد هـذه الفكرة بشدة . لا شـك ان الثـروة والسلطة استـطاعا احيـاناً التـأثـير في الـدين ويتبين ذلـك في ظهـور البدع والانحـرافات ، ولكن ، عـلى وجه العمـوم ، كان للدين الأثر الأقوى في مصير البشرية .

الأصالة للحق :

يـرى القرآن أن ليس للشر والبـاطـل أسـاس أصيـل ، وانما هما وليـدا وجود الحق ، كـالظل والضـوء ، أو الظلمـة والنـور ، فكلاهمـا موجـودان ، ولكن لا أصالـة للظلمـة في قبـال النور . أي انهما ليسـا واقعـين نـاشئين عن مصـدرين مختلفين ، احدهما للنور ، والآخر للظلمة ، بـل الأصل هـو النـور ، فحيثما لا يـوجد نـور ، تكون الـظلمة ، فـلا يصح

ان نقول انه إذا خـلا مكان من النـور ، وجد شيء هـو ضد النور ، فالظلمة هي انعدام النور .

والمسألة تشبـه الصحة والمـرض ، أي إذا شاء الانسـان ان يكـون سـالمـاً ، فيجب ان يكـون في جسمـه تعـادل . فمثـلاً ، ينبغي ألّا تزيـد كريـات دمه البيض عن حـد معين ولا تنقص ، وكـذلـك كـريـاتـه الحمـر وضغـطه ، ومقـدار اليـوريا ، الى غـير ذلك . فـما المرض الا انعـدام الصحة ، والأصـل في الجسم هـو التـوازن والسـلامـة ، وإذا أدى اختـلال التوازن الى المـرض ، فان ذلـك يعود عـلى الصحة والسلامة بالضرر .

ومثلما يحتـاج الجسم الى التعـادل والتـوازن ، يحتـاج المجتمع كذلك الى الصدق ، والأمانة والايمان والعفة . فلا مجتمـع يجب ان يخلو من هـذه المفـاهيم ، فلو خـلا مجتمـع منهـا لما استـطاع البقاء يـومـاً واحـداً . ولئن سـاد المجتمـع ظلم ، وعـدوان ، وتحلل ، واختـلال ، فـان ذلـك أمـر موقت ، وسرعان ما سيعود الأمر الى طبيعته .

وعليـه فيمكن تلخيص وجهـة نـظر القـرآن في بضـع نقاط :

١ ـ ليس للبـاطل أصـول متأصلة في العـالم ، وانما هـو طفيلي على الحق .

٢ ـ ولما لم تكن للباطل أصالة وتأصل ، فانه سريع الزوال . انما الحق هو الدائم الذي لا يزول .

٣ ـ وعلى الرغم من أنه ليس للباطل أصل ، وانه سريع الزوال ، فان له ظاهراً عريضاً لافتاً للنظر ، بحيث انه إذا كانت العين لا تبصر الحق ، فقد ينخدع الانسان بهذا الظاهر ، ويقول بأصالة الباطل ، يرى الحق صغيراً في قبال الباطل .

ثمة نقطة أخرى جديرة بالاهتمام ، وهي أنه على الرغم من أن الباطل طفيلي لا أصل له ، وانه ، لذلك ، مثل الزبد يتلاشى بسرعة ، فانه عند ظهوره يتخذ ابعاداً واسعة مترامية الأطراف ، حتى ان الانسان الضحل التفكر ينادي : أين الحق إذن ؟ إن كل ما أراه هو الباطل . هذا هو الخطأ الذي يقع فيه بعض الناس ، ولما لم يكن عميق النظرة ، يقول : حتى لو كان الحق قد ظهر في العالم ، فانه قد ظهر في لمحة البرق الخاطف وتلاشى ، وبقي الباطل هو الحاكم بأمره ، غافلاً عن الأصالة في الحق ، فما قوة الباطل إلا بوجود الحق ، وإن الباطل ليس سوى طفيلي غطى وجه الحق .

يذكر القرآن صراع الحق مع الباطل ونتيجة الصراع في آيات عديدة ، وضرب لذلك الأمثال ، كما يلي :

١ ـ ﴿ أَنْـزَلَ مِنَ السَّمـاءِ مَاءً فَسَـالَتْ أَوْدِيـةٌ بِقَـدَرِهَـا فـاحْتَمَلَ السَّيْـلُ زَبَداً رَابيـاً وَمِمّا يُـوقِـدُونَ عليـهِ في النَّارِ ابْتِغَـاءَ حِلْيَةٍ أو مَتَـاعٍ زَبَـدٌ مِثْلُهُ كَـذَلِـكَ يَضْـرِبُ اللهُ الحَقَّ والبـاطِلَ . فـأمَّا الـزَّبَدُ فَيَـذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّـا مَا يَنْفَـعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ في الأرضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ ﴾[١] .

فالماء الـذي ينزلـه الله من السماء ، يسيـل في الأودية ، ويحصـل الزبـد ، فيخال للنـاس أن هذا كله زبـد ، ولكنـه الماء ، الأسـاس هــو المـاء ، ولكن الـزبـد يتسـع وينتشر ويغـطي سـطح المـاء كله . ثم يقـول : ﴿ وَمِمّـا يُـوقِـدُونَ عَلَيه في النَّارِ ابْتِغَاءَ حِليةٍ أو مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ﴾ .

أي انـه يحصـل مثـل ذلـك عنـد إذابـة المعــادن لكي يصنعوا منه بعض الحلي ، فيظهر الزبد كذلك .

﴿ كَـذَلِكَ يَضْـرِبُ اللهُ الحَقَّ وَالبَاطِـلَ ﴾ ، فهـذا مثله مثل الحق والباطـل ، أو أنه ، كـما يقول بعض المفسـرين ، هكــذا يبـدو ، أي ان الحق كـالمـاء الـرائق ، أو كـذائب المعدن ، وما الباطل إلا ذاك الـزبد ﴿ وَأَمَّـا الزَّبَـدُ فَيَذْهَبُ جَفاءً ﴾ وسرعان ما يـزول الزبـد ويتلاشى ﴿ وَأَمّـا مَا يَنْفَـعُ

---

(١) سورة الرعد ـ آية : ١٩ .

النَّاسَ فَيَمْكُثُ في الأرضِ ﴾ وهو الحق الذي سيبقى في الأرض لمنفعة الناس . فالماء الذي تحت الزبد يجري في الأنهر إلى المزارع فيروي الأرض ، ويثمر ثمراً نافعاً . وكذلك المعدن الذي يظل على هيئة قضبان أو حلي ، فينتفع بها الناس .

٢ - ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ الله مَثَلاً كَلِمَةً طيبة كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثابِتٌ وَفَرْعُها في السَّماء ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بإِذْنِ رَبِّها وَيَضربُ الله الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُون . وَمَثَلُ كَلِمةٍ خَبيثةٍ كشجَرَةٍ خَبيثةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْق الأرضِ مَا لَها مِنْ قَرَارٍ ﴾ .

إن لفظة « كلمة » تستعمل في القرآن مرة لتدل على اللفظة ، ومرة أخرى لتدل على الحقائق ، كقوله تعالى عن عيسى « كلمة الله » .

وفي هذه الآية ، يعبر عن عقيدة الباطل ، بـ(كلمة) ، وضرب لكل مثلاً . فالحق مثل شجرة سالمة نظيفة ، مثمرة تضرب جذورها في أعماق الأرض ، وتعلو أغصانها مرتفعة نحو السماء ، مليئةً بالثمر والورق في كل الفصول ، فهي ، كما يقال ، دائمة الخضرة ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بإِذْنِ رَبِّها ﴾ فكلما قطفت ثمارها عادت فأثمرت .

أمـا عقيدة البـاطل ، فكشجـرة رديئة ، لا ثمـر لها ولا جـذور . انـنا نجـد احيـانـاً شجيـرات نـابتـة بغـير ثمـر ، وبـالتفحص نجدهـا بغير أصـول أيضاً ، فهي واه بنيـانها ، ومـا ان يهب عليهـا نسيم حتى يقتلعهـا وتـذهب في مهب الريح ، مثل ذاك الزبد في الآية السابقة ـ عـظيم الظاهـر ، تافه الوجود .

كتب « نـاصر خُسْـرو » حـواراً بـين نبتـة يقـطين نبتت تحت شجـرة دلب ، وسـرعـان مـا نمت وامتـدت سيقـانها وتسلقت الشجـرة وغـطتهـا بـاوراقهـا في غصـون بضعـة أسـابيع . فسـألت كم يومـاً عمـرك ؟ فـأجـابت الشجـرة : ينـوف عمـري عـلى ثـلاثـين سنة . فضحكت منها النبتـة وقـالت ساخـرة : انظري إلي أنـا بنت العشرين يـوماً نمـوت وترعرعت أكثر منك ، فأجابت الشجرة :

« إنـتـظري حـتى تهـب ريـح الخـريـف
عنـدئذ يتضـح الـرجـل من غـير الـرجـل »[1]

القصـد هو إن القـرآن يريـد ان يقول لنـا : لا تغرنكم الظواهر ، ولا تنخدعوا بظاهر البـاطل العـري ، بل عليكم أن تتعمقـوا في النظرة . فقـد يتخذ سلوك ، لا يـزيد عمـره

(١) بگـذار بـر مَن وتُووزَدْ بـادِ مِـهْـرگَـانْ
آنکـه شود بـديد کـه نامَـرد ومَـرد کيست

عن عشرين او ثلاثين سنة ، واجهة واسعة تبدو كما لو كانت أوسع من مدرسة الحق التي مضى عليها أربعة عشر قرناً . يقول القرآن إن علينا بالصبر ، إنتظار لهبوب الرياح المختلفة . لقد مضى على الثورة الاسلامية أربعة عشر قرناً ، ولكم هبت رياح مختلفة ، ولكنها ما زالت تقف مكينة ثابتة ، بينما ذلك السلوك وأمثاله سرعان ما يزول ويضمحل .

٣ - ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بالحَقِّ عَلَىٰ البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإذَا هُوَ زاهِقٌ وَلَكُمْ الوَيْلُ مِمّا تَصِفون ﴾ .

إن الآية التي تسبق هذه تتعلق بأصل الخليقة ، أي انها تحارب الفكرة المادية التي ترى العالم هباءً فارغاً . إن حياة الانسان والمجتمع يرتبطان بأصل الخليقة . فلو كان هذا الأصل مبنياً على اللهو واللعب ، لكان الانسان ووجوده كله فراغاً باطلاً ، ولكن الله يقول : ﴿ مَا خَلَقْنا السَّماءَ وَالأرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبين ﴾ . لقد خلقنا هذا الكون العظيم ولم نكن نلعب . نحن لم نكن نبني مثل الأطفال لنهدم مرة أخرى من باب اللهو .

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بالحَقِّ ﴾ وكأن هذه الآية رد على من يقول : إذا لم يكن خلق العالم لعباً ولهواً ، فلماذا كل هذا الباطل الذي نراه في المجتمع الانساني ؟ أفليس في العالم

كذب وخيانة ؟ أفليس في العالم ظلم وعدوان واراقة دماء ؟ فلماذا نرى كل هذه العقائد الباطلة ، وهذه الاتجاهات الباطلة موجودة في العالم ؟ .

في الاجابة على ذلك يقول القرآن : هذه كائنات طفيلية ، تظهر بالضرورة مع ظهور الحق ، إلا أنها لا تدوم طويلاً ، بل سرعان ما تزول .

« القذف » هو أن تمسك بالشيء وترميه بقوة ، كأن تلتقط حجراً وترمي به انساناً أو زجاجاً . فقول القرآن ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَىٰ البَاطِلِ ﴾ كأنه يعني اننا نصنع من الحق قنبلة نقذفها بشدة على الباطل فتحطمه تحطيماً ، وعندما تقدم لترى ما الذي حدث ، لا تجد شيئاً ﴿فإذا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ . ولا يعني هذا انه لم يكن زاهقاً منذ البداية ، وانه أصبح زاهقاً الآن . كلا ، بل كان مظهراً يبدو كبيراً قبل ان يتقدم الحق لحربه ، وعندئذ انكشف باطنه ، وأنه لم يكن شيئاً ، أو كان كبالون منفوخ ، ثم أفرغ من الهواء .

٤ ـ ﴿ وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهق البَاطِلُ إنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾(١) .

---

(١) سورة الاسراء ـ آية : ١٨ .

ههنا أيضاً لا تحسبوا ان الباطل كان شيئاً عينياً وواقعاً ، وانه الآن عندما جاء الحق أخذ مكانه وملأه ، كلا ، إذ ﴿ **إنَّ الباطِلَ كَانَ زَهُوقاً** ﴾ كان فانياً بنفسه ، أي إنه لم يكن سوى هيكل أو شاخص ، كان نموذجاً ، لا كيان واقعي له ٠

فالقرآن لا ينظر إلى حرب الحق والباطل على انها حرب بين وجود ووجود ، بل هي حرب الوجود ضد اللاوجود . حرب الكمال ضد النقص ، إذ إن الباطل يرجع كله الى النقص . فالظالم ظالم لنقصه ، لا لكماله ، أي ان ظلمه ناشيء عن جهله أو شعوره بالحقارة ، فيحسب إنه بذلك يتكامل .

الخلاصة هي إنه وإن كان القرآن يقول بوجود الحرب بين الحق والباطل ،ولكنه في الوقت نفسه لا يرى للباطل أصلاً ، على النقيض من الماديين الذين إما أن يقولوا بأن البشر كائنات شريرة بذاتها ، أو أن ينكروا على الانسان كل فطرة ، قائلين انه نتاج ما يطرأ على وسائل الانتاج من تغيرات وتحولات . ولا شك انهم ليست لديهم (مدينة فاضلة) ، ولا يمكن ان تكون لهم ، فاذا ورد عندهم شيء عنها ، فذلك خلاف عقيدتهم . ففكرة (المدينة الفاضلة) فكرة اسلامية ، وهي فكرة لا يتقدم بها أحد ، إلا إذا كان مؤمناً بامكان اصلاح البشر .

يشير القرآن إلى مصاير أقوام ، ومدنيات تاريخية لكي يصل الى حقيقة ان كل مجتمع ساد فيه الشر ، وطغى فيه الباطل ، فذاك مجتمع آيل للزوال لا محالة ، ولا يبقى إلا المجتمع الذي يكون فيه الحكم للحق . وفي القرآن شواهد عديدة على هذا . فما أكثر المجتمعات التي باءت بغضب من الله لأنها انحرفت عن طريق الحق ، واتجهت الى الباطل .

إن من الممكن ان ينظر المرء الى التاريخ ، ليجد المجرمين لا تخلو منهم صفحة ، فيقول : التاريخ ظلام ليس غير . إلا أن هذا الحكم غير صحيح ، لأنه حكم نشأ عن المفهوم الخاطيء القائل بأن التاريخ يصنعه الأفراد . يقول القرآن إن هؤلاء هم الزبد الذي يذهب جفاء .

فلو نظرنا الى التاريخ الاسلامي ، لوجدنا هارون الرشيد ، بطل ألف ليلة وليلة ، بسجونه ولياليه المخمورة ، وظلمه ، فنقول : هذا نموذج لتاريخ العالم ، ويقول القرآن : لا ، ليس الأمر كذلك ، فهارون فانٍ ولا بقاء له . أما الذين هم أصل إرادة عجلة الحياة ، أي الذين يفلحون الأرض ، والذين ينتجون ، ويأخذون ويعطون ، وبعبارة اخرى ، العاملون الذين بيدهم يديرون عجلة المجتمع ، فلا يلفتون نظرنا ،

مثلهم مثل الماء الذي يجري تحت الزبد ، وما هارون وأمثاله إلا طفيليات تعيش على وجودهم . أما أنت فواجبك ان تجاهد هارون وأمثاله ، دون أن ينتابك اليأس ، فتقول : إن هؤلاء كانوا دائماً موجودين ، وهم الذين كانوا يديرون المجتمع . كلا ، بل إن موسى بن جعفر ، الذي كان في سجن هارون، يجاور قصره ، ويسمع عربدة السكارى وضجيجهم ، هو الذي يبقى ، ومع ان هارون لم يسمح لأحد بزيارته ، فهو في قلوب الناس وفي نفوسهم قوة خالدة . يصبح فكر موسى بن جعفر أبدياً ، بينما يزول هارون بكل عظمته ، وكبكبته ، ودبدبته .

بعد هذه المقدمة التي طالت بعض الشيء ، سنباشر بتفسير المثلين اللذين نحن بصددهما :

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذي اسْتَوْقَدَ ناراً . .

هؤلاء أشبه بالذين يشعلون ناراً في الصحراء يستضيئون بها ، وإذا بالريح تهب فتطفيء نارهم ويغرقون في الظلمة ثانية . والمقصود بالنار والنور هنا هو الخطط الخادعة لأتباع الباطل ، لا نور الحق ، كما ذهب اليه بعض المفسرين . وشرح الموضوع كما يلي :

إن الانسان يهتدي بوسائل عديدة ، فهو يهتدي

بـالغريـزة ، وهذه ضعيفـة في الانسان ، وقـوية في حيـوان . وهو يهتدي ايضـاً بالحـواس ، فيتعرف الأشيـاء بالعـين ، أو بالأذن ، الخ . وهو يهتدي بالعقل والتفكـير ، الى أن يصل الى الاهتداء بالوحي الذي يختص به اتباع الأنبياء .

ومهما يكن فكر الانسان فهو نور ينير الـظلمة . وأحيـاناً يستعمـل الانسان هـذا النور بحسب نـظام الخليقـة ، وفيـما يرضي الله ، كما جاء في القرآن :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ ﴾[1] .

ولكن يحـدث أحيانـاً اخرى ان شخصـاً يجانب طـريق الهـداية ويستخـدم فكره في طـريق الضلالـة ، أي انه بعقله وبفكـره يضع الخـطط ، ولكنها تخـالف مـا يقضي بـه الله ، ومـع ذلك فـانها قد تنجـح وتتقدم بضـع خطوات ، ولكنهـا لن تستمر ، وسرعان ما تزول .

فـالقرآن يقـول إن مثلهم مثل من يـوقـد نـاراً في بيـداء مـظلمة ، يـريـد بهـا أن ينـير بعضـاً ممـا حولـه، ولكن نـاره اضافة الى كونها ضعيفة الانـارة ، ولا تضيء إلا ما أمـامه ، فانها لا تدوم طويلاً . أي ما دام الباطـل مبنياً عـلى الخدعـة والغش ، فانه فانٍ وزائل .

تلاحظون أن القرآن ـ بخلاف الـذين يقولـون ان الحق

---

(١) سورة محمد ـ آية : ١٧ .

كان طوال التاريخ مجرد ومضة برق سرعان ما خبت ـ يقـول إن الباطل هو الومضة التي سرعان ما تخبو ، فهو ما ان أضاء مـا حـولـه وظنّ المـرء انـه يـرى بـوضـوح حتى « ذهب الله بنورِهِمْ » . إن الله ، بما لديه من وسائل الخلق الأبدية أطفأ نورهم ﴿وتركَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ولا يرون طريقـاً يسلكون .

صُمٌ بُكْمٌ عُمْيٌ :

بل إنهم بالاضافة الى كـونهم لا يبصرون ، فـان آذانهم لا تسمـع . إذا كـان المـرء في الصحـراء أعمى لا يبصر ، فـانه قـد يستطيـع العثور عـلى طـريقـه بمـا تسمـع أذنـه من أصـوات ، وأبواق سيـارات ، وأجـراس ابـل سـاريـة ، أو حتى وقع أقدام انسان . وإذا كان نـطقه سليـماً ، فيمكنه أن يصرخ مستنجداً .

ولكن هؤلاء لا عـين فيهم تـرى ، ولا أذن تستـطيـع سماع أصوات الآخرين ، ولا لسان ينطق طلباً للنجدة .

فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ :

لا رجـوع لهؤلاء . لا بد أن يـدفنوا في ذلـك المكـان . وهكـذا تـلاحـظون كيف ينـظر القـرآن الى التـاريـخ نـظرة متفائلة ، ويطمئننا على أنه إذا دخل الحق حـرباً ، فـانه هـو المنتصر، والباطل هو المندحر في النهاية .

كان هذا مثلاً عن النور والضوء اللذين يصنعهما الانسان بنفسه ، أي تلك الأفكار والتعابير ، والخطط التي يرسمها ، والتي تبقى امامه بعض الوقت .

ولكنهم قد يستفيدون من نور لم يوقدوه بأنفسهم ، بل كان ومضة برق متجهة الى مكان آخر . فقد تنطلق شرارة ، مثلاً ، فيظنون أنهم قادرون على الاستفادة من هذا الشرر ، فيعدون عدتهم لاستغلاله ، ولكنه ينطفيء قبل أن يستغلوه .

أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ :

أو كمثل مكان أظلمت فيه السماء ، وانهمر المطر مدراراً ، حيث ظلمات عديدة : فأنهيار المطر ظلمة ، ووجود الغيوم الحتمي ظلمة ، واذا كان الوقت ليلاً ، فظلمة ثالثة . إذ لو كان الوقت ليلاً فحسب ، بغير سحاب ومطر ، لكان بالامكان ان يستضيء المرء بنور النجوم . ولو كان ثمة سحاب بغير مطر ، لكان في الجو بصيص من ضوء ، مهما يكن ضئيلاً ، ولو حدث كل ذلك في النهار ، لكان ضوء الشمس خلف الغيوم كافياً للرؤية . وهكذا يقول القرآن : فيه ظلمات ورعد وبرق .

يَجْعلونَ أصَـــابِعَهُمْ في آذَانِهِمْ مِنَ الصَّــواعِقِ حَــذَرَ الموتِ :

إن الأصوات الراعـدة في السماء من الشـدة بحيث أنهم يرتجفون هلعاً ، ويسدون آذانهم لكيلا يسمعوها .

يَكَادُ البرقُ يَخْطُفُ أبصَارهُمْ :

كـذلـك البـرق ، كـأنـه من شـدة سـطوعـه يـريـد أن يعميهم .

كُلَّما أَضاءَتْ لهُمْ مَشَوا فِيهِ :

وخـلال هذه الـظلمـات المتـراكمـة ، يستغلون وميض البـرق ليخطوا خـطوات الى الامام ، ولكن هـذا لا يدوم ، وسرعان ما يتلاشى ، فـلا يستطيعـون السير أكـثر من خطوة واحدة .

وإذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا :

وكلما استغرقهم الظلام ، لبثوا في أماكنهم واقفين .

وَلَوْ شَاءَ الله لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ :

وكالمجموعة الأولى التي ابتلاهـم بالظلمة ، يستطيع الله كذلك أن يسلبهم آذانهم وعيونهم .

ذلك هو مصير أصحاب الخدعة في التـاريخ . إذ يقـول القـرآن : إنهم لا أصـالـة لهم ، فـلا تخشـوهم ولا تحسبـوا

النصر من نصيبهم ، فزوالهم محتم ، والباقي هو الحق .

ولا يعني هـذا اننـا يجب ان نجلس ننتـظر زوال عهـد الملكية ، وظهور عهد الاشتراكيـة ، وهكذا . كـلا ، فحيثما ظهرت الاشتراكية ، اشتدت الظلمة ، وانكشف لا جـدوى تكامل وسائل الانتـاج ايضاً . إنمـا الانسان هـو القادر عـلى اقـامة العـدل واشعال النـور ، ليحـظى في رعـايتهـا بحيـاة سعيدة .

﴿ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

* * *

﴿ يَـا أَيُّها النَّـاسُ اعبُدُوا رَبَّكُمْ الَّـذِي خَلَقَكُمْ وَالَّـذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُـونَ (٢١) الَّـذِي جَعَــلَ لَكُمْ الأَرْضَ فِـرَاشاً وَالسَّمـاءَ بِنَاءً وَأَنْـزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَـاءً فَأَخْـرَجَ بِهِ مِنَ الـثَّمَــرَاتِ رِزْقـاً لَـكُمْ فَـلاَ تَـجْـعَـلُوا للهِ أَنْـدَاداً وَأَنْـتُـمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ يا أَيُّها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾

في هذه الآية المتألفة من جـزءين متكاملين ، يـدعو الله الناس إلى التوحيد ، أكثر مبادىء الإسلام تـأصلاً ، وأقـوى قاعدة من قواعده الفكرية والعقائدية .

تـلاحـظون أن الآيـة تبـدأ بنـداء مـوجـه إلى النـاس . وكلمـة « الناس » كثيـرة الورود في القـرآن ، سواء كمنـادى

كما هي الحالة هنا ، أم بصيغ أخرى ، مثل « لله على الناس حج البيت . . . » .

وكلمتا « ناس » و « إنسان » من أصل واحد ، وليس بينهما اختلاف كبير . كل ما في الأمر ، من حيث النظرة اللغوية ، إنهم يقولون إن « إنسان » إسم جنس ، و « ناس » إسم جمع . أي عندما نقول « إنسان » نعني النوع الانساني ، ولكن إذا قلنا « ناس » فالمقصود جمعهم ، مثل كلمة « قوم » . فالخطاب إذن ، لجميع بني البشر . بقي الآن أن نوضح ما يلي :

لكل مدرسة من مدارس العقيدة جوانب أربعة مرتبطة بعضها ببعض :

١ ـ من الذين تتوجه اليهم هذه المدرسة بالخطاب ؟ أي لمن وجدت هذه المدرسة ؟ أهي لجميع الناس ، أم لجماعة منهم خاصة ؟ وإذا كانت لجماعة خاصة ، فمن هم هؤلاء ؟ .

٢ ـ ما هدف هذه المدرسة ؟

٣ ـ كيف تنظر هذه المدرسة إلى العالم ؟

٤ ـ ما هو محتوى هذه المدرسة ؟ والمقصود بالمحتوى هو مجموعة تعاليمها وقوانينها .

هذه الأمور الأربعة مترابطة ، أي إن وجهة نظر

المدرسة إلى العالم مبنية على نوع المخاطبين ، وبالعكس ، نوع المخاطبين يعين وجهة نظر المدرسة ، وهذان مرتبطان بالهدف الذي ترمي اليه المدرسة ، وكل ذلك مرتبط بمحتوى المدرسة ، أي الرسالة التي تحملها الى الذين تريد مخاطبتهم .

إن الآية تبحث في المخاطبين ، وفي رسالة واحدة رسالة التوحيد ، أهم رسالة من رسالات الإسلام والقرآن .

مخاطَبو القرآن :

لا بد لنا أن نشير ، بهذا الخصوص ، الى أن كل المدارس ، والمذاهب ، والعقائد سواء الإلهية منها والوضعية ، تتوجه برسالتها إلى الذين تخاطبهم ، وهم مختلفون .

من ذلك ، مثلاً ، قد تكون مدرسة ما ذات لون قومي ، كما هي حال معظم الأحزاب القومية ، والتي هدفها (حسبما تدعي في الأقل) تحرير شعوبها وإسعادها . وعلى ذلك ، فانها تخاطب شعوبها ، ولا تخاطب الشعوب الأخرى . ففي بريطانيا يخاطب حزبا العمال ، والمحافظين الشعب البريطاني .

وقد تصطبغ إحدى المدارس بصبغة العنصر والدم ، ويكون هدفها تحرير ذاك العنصر ذاته ، لذلك فهي

تخاطب أفراد ذلك العنصر فحسب ، كانتفاضات السود ضد البيض ، فهي تخاطب السود فقط .

وقد تظهر مدرسة تستهدف إشباع البطون الجائعة ، فتنادي باتحاد الجياع معاً ، لايجاد قوة تستطيع أن تنتزع خبزهم من بين براثن المعتدين على حقوقهم . فلا شك في أنها تخاطب الجائعين ، كالماركسية التي تدعي بأنها قد وجدت لاسعاد طبقة العمال (البروليتاريا) وتحريرهم ، فهي تخاطب العمال ، ولا تقبل أن ينتمي اليها أحد من الرأسماليين .

فلننظر الآن من هم الذين يخاطبهم الاسلام ؟ ومن الذي ينتمي إلى عضويته ؟ هل يخاطب الإسلام العرب فقط ، لكونه قد ظهر بين ظهرانيهم ؟ أم أنه يخاطب أهل مكة دون غيرهم ، لأنه ظهر في مكة ؟ .

عند الرجوع إلى نداءات القرآن ، تتضح لنا هذه الحقيقة ، وهي إننا في كل نداءاته لا نجد نداءات تقول : « يا أيها العرب » أو « يا أيها القريشيون » أو « يا أيها المكيون » أو « يا أيها المدنيون » أو « يا أيها الشاميون » . بل نجد إن نداءات القرآن على نوعين : فمرة يكون النداء « يا أيها الناس » وهو نداء موجه إلى كل البشر ، ومرة أخرى يكون النداء موجهاً إلى المؤمنين ، يوصل اليهم ما

يريد من التعاليم ، فيقول : « يا أيها الذين آمنوا » .

وهنا يطرح سؤال نفسه ، وهو : أيصح أن نخاطب جميع البشر ؟ وهل هذا عملي أم لا ؟ .

يقول بعض ، بما أن الانسان النوعي كائن انتزاعي ، بحسب المصطلح الفلسفي ، فلا يمكن أن يكون مخاطباً لمدرسة واحدة .

ويقول آخرون إنه ما دام الانسان ، كأنسان ، خلواً من الوجدان ، فان المدرسة التي تخاطبه لا تقدر على خلق حركة ما .

من الممكن أن نخاطب الناس على أنهم عرب ، أو عجم ، أو ايرانيون ، وعندئذٍ نكون قد خاطبنا وجدانهم القومي أو الوطني ، ويمكن تحريكهم من هذا المنطلق . أي لنا أن ننادي : « أيها الايراني » و « أيها المصري » و « أيها العربي » عليك أن تكون كذا وكذا . وهذه نداءات تستند الى الروح القومية أو الوطنية ويمكن أن تستند إلى الروح العنصرية ، فنقول « أيها السود » أو « أيها الحمر » أو أن تستند إلى الروح الطبقية ، لأن للطبقية وجدانها ، فنقول « أيها المحتاجون » ، « أيها العمال » ، « أيها الفلاحون » . فههنانستطيع إيجاد تحرك بالاستناد إلى الروح الطبقية . ففي الخطاب الموجه إلى العمال ، يقولون : « أيها العامل ، لماذا يجب أن تكون ثروتك

قليلة » ؟ وعندئذٍ يكون دافعه إلى الحركة منافعه الخاصة ، حيث يقول في نفسه : لماذا يأخذ غيري حقي ؟ فانتم من هذا تشعرون بأن المصلحة هي دافعة .

ولكن إذا نادت مدرسة « يا أيها الناس » فعلى من تستند ؟ .

هذا هو الجانب المهم في المسألة التي سبق أن قلنا إن وجهة نظر أية مدرسة هي التي تعين نوع الذين تخاطبهم ، وهما مسألتان مترابطتان .

الاسلام لا ينظر إلى الانسان هذه النظرة ، أي انه لا يرى وجدان الانسان في قوميته ، ولا في عنصره ، ولا في طبقته ، إنما الاسلام يرى في الانسان (فطرته) « كل مولود يولد على الفطرة » وهذا ما سوف نبحثه في مكانه بالتفصيل .

وعلى ذلك ، وحسب ما تقدم ، فان الله تعالى وهب الانسان في بدء الخليقة وجداناً شريفاً وروحاً ملكوتية « ونفخت فيه من روحي » . وهكذا نجد هذا الوجدان الشريف في مكنون كل انسان عند ولادته ، بصرف النظر عن أبويه .

إن الروح القومية ، والعنصرية ، والطبقية ،

وغيرها ، روح مكتسبة . إنما هذه الفطرة هي التي يتوجه اليها الاسلام بخطابه .

أي إنه يقول : أيها الانسان ، انني أدعوك لأنك انسان . ولم يقل : لأنك من المحرومين ، ولم يقل : لأنك أسود اللون ، الخ . فدعوة الاسلام تستند الى الروح الانسانية ، لا الروح القومية ، ولا العنصرية ، ولا النفعية .

وبعبارة أخرى ، إن الخطاب موجه إلى الانسان الذي ينشد العدالة ، وليس لأن منافعه في العدالة ، بل لأن العدالة من القيم الانسانية .

يستفاد من نصوص القرآن أن أحد أهداف الاسلام الرئيسة هو العدالة . وما من شك في إنه إذا سادت العدالة ، فالمتضررون هم المعتدون والظالمون ، والمنتفعون هم المظلومون . ولكن الفرق كبير بين أن نقول : إن هدف الإسلام هو أن يمنّ على المستضعفين ، وأن يحررهم ، وأن نقول : ان الإسلام انما يخاطب المستضعفين دون غيرهم . ليس الأمر كذلك ، فالاسلام ، وإن حرر المستضعفين ، فانه يوجه خطابه إلى البشر كافة ، بما فيهم أمثال فرعون ، فهؤلاء من الذين يخاطبهم القرآن أيضاً . وذلك لأن القرآن يرى في أعماق كل انسان ، حتى وإن كان فرعوناً ، ذلك

الانسـان الأصيـل الـذي ولـد عـلى الفـطرة . إنـه يقـول : فرعون هذا الذي يحكمكم الآن ، وتـرونه جبـاراً ، ظالمـاً ، بعيـداً عن الانسانيـة ، فيه بقيـة من الفـطرة التي خلقـه الله عليها ، وذلك لأنه انسان . ولذلك ، فان رسل الله ، قبـل أن يحاربوا الفراعنة ، يسعـون أولاً إلى أن يستثيروا الانسـان الكامن فيهم ، لعلهم يرعوون :

﴿ إذْهَبْ إلَىٰ فِـرْعَوْنَ إنَّـهُ طَغَىٰ فَقُلْ لَـهُ هَـلْ لَـكَ إلى أنْ تَزَكّى ، وَأَهْدِيكَ إلىٰ رَبِّكَ فَتَخْشىٰ ﴾[1] .

فيأمر الله مـوسى بالـذهاب إلى فـرعون ، عله يستـطيع إثـارة روح الانسـانيـة فيـه ، فيحـرر الانسان الكـامن في أعمـاقه ، فـان لم يستـطع ، فليشن عليـه حملتـه . أي إن عليـه ان يشن حملته من الـداخـل أولاً ، ومن الخـارج بعـد ذلك .

رسالة التوحيد :

الجـزء الثاني من هـذه الآية هي أكـثر رسـالات القـرآن أصـالة ، وهي الأسـاس لرسـالاتـه الأخـرى . إنها رسـالـة التـوحيد ، وهي ليست مقصـورة على خـاتم الأنبيـاء ، بـل هي على رأس رسالات جميع الأنبياء .

---

(١) سورة طه ـ آية : ٢٤ .

ينظر القرآن إلى هذا الموضوع بهذا الشكل: إنه لا يقول للناس: عليكم أولاً أن تعبدوا أحداً، وثانياً أن يكون هذا الذي تعبدونه هو الله. كلا، فالانسان لا يستطيع العيش بدون عبادة. كل الناس يعبدون بشكل ما، وهذه العبادة جزء من غريزة الانسان وفطرته. أي إن الانسان عابد بالفطرة يريد أن يقدس شيئاً، فينزهه ويسعى للتقرب إليه.

هذه الفطرة موجودة في كل البشر، بما فيهم الماديون، وهذا كارل ماركس يقول: «نريد أن نحرر الانسان من عبادة غير الانسان، لكي يعبد الانسان نفسه».

فهذا أيضاً يلاحظ إن على الانسان أن يعبد شيئاً، ولكنه، يريد أن يكشف للانسان معبوده الحقيقي، على ما يقول.

أما رسالة القرآن فهي: أيها الانسان، اعبد ربك، الذي خلقك وسواك، ذلك الذي بيده وجودك وكيانك، والذي إذا غفل عن الكون لحظة انقلب عاليه سافله.

﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾

سبق لنا في سورة الفاتحة أن بحثنا موضوع العبادة، وقلنا إن مفهوم العبادة في القرآن مفهوم واسع، وعلى

درجات ، ومن درجاتها العليا السجود أمام المعبود . ولكننا إذا تجاوزنا تلك المرحلة ، نرى ان القرآن يعتبر كل اطاعة عبادة . ومن ذلك قوله ان من يطيع أهواءه فقد عبد نفسه .

﴿ أفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إلَهَهُ هَواهُ ﴾(١) .

ولعل مصطلح « عبادة الذات » المعروفة في اللغة الفارسية « خُودپَرَستي » قد جاء من القرآن .

وطبيعي إن عبادة النفس لا تعني أن يسجد الانسان لنفسه ، وإنما القصد هو اتباع الهوى وإطاعته .

الشرك والتوحيد :

ينبغي أن نذكر هنا أن الشرك نقيض التوحيد . فالشرك من المشاركة ، كما جاء في القرآن على لسان موسى وهو يطلب من ربه « وأشركه في أمري » أي اجعل هارون شريكاً لي في تبليغ الرسالة .

فلنر إن كان الشرك يعني بالضرورة أن يشرك الانسان إلهاً آخر مع الله ، أي أن يعبد إلهين في آنٍ واحد ، وأنه إذا عبد إلهاً غير الله ، فلا يكون هذا شركاً .

---

(١) سورة الجاثية ـ آية : ٢٣ .

لقد جاء في القرآن ، على لسان الهدهد مخاطباً سليمان :

﴿ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ . إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ، وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ، وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ . . . ﴾[1] .

هؤلاء الذين كانوا يعبدون الشمس ، ولم يكونوا يعبدون غيرها ، هل هم مشركون ؟ .

الشرك في لغة القرآن لا يعني الثنائية في العقيدة ، بل يعني اتخاذ إله غير الله . فكل المخلوقات ، في منطق القرآن ، تعبد الله . فإذا وضع أحد غير الله في موضع الله ، يكون قد جعل لله شريكاً في العبادة ، على الرغم من أنه لا يعبد سوى إلهه الذي اصطنعه لنفسه . وعلى هذا ، فالذين يعبدون الشمس مشركون أيضاً .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

فيما يتعلق بالتقوى ، بحثنا ذلك في محاضرات سابقة مطبوعة[2] وبصورة مفصلة . ولكننا نورد ما يتعلق بهذه الآية . فالتقوى هنا نتيجة التوحيد ، فكيف هذا ؟ .

(١) سورة النمل - آية : ٢٢ - ٢٥ .

(٢) انظر المحاضرتين ١ و٢ من كتاب « محاضرات في الدين والاجتماع » .

التقـوى من مـادة « وقى » بمعنى الصيـانـة والحـفظ والتـطهر . وقـد سبق أن قلنـا إن للتقـوى ـ حسبـما جـاء في القـرآن وفي الروايـات عن أهل البيت ـ درجـات ومراتب ، مثل الايمان .

كـل عقيدة نـظيفة تحتـاج الى جـو نـظيف . فكـما أننـا عنـدما نبـذر القمـح ، يجب ان نـطهـر الأرض من الآفـات والتلوثـات ، حتى ينمـو الـزرع ، كـذلـك الأفكـار والآراء الصحيحة ، تحتاج إلى روح نقية ونفس سليمة ، حتى تنمـو وتـزدهر . فـإذا دخلت فكرة طـاهـرة نفسـاً غـير طـاهـرة ، وقعت الحرب بينهما إلى أن يستسلم أحد الجانبـين ، فإمـا أن تتطهر النفس ، وإما أن تطرد الفكرة بعيداً .

لقـد جاء في بـداية سـورة البقرة أن القـرآن جاء هـدىً للمتقين . والمقصود بالتقوى هنا هو التقـوى الفطريـة الأولى التي تـولد مـع كل مـولود ، فـإذا حافظ الانسـان على ذلـك المقـدار من التقـوى ، فـإن هـدايـة القـرآن تشمله ، ولكن الذين تلوثوا لن يستمعوا إلى كلام الله .

في هـذه الآية يقول القرآن إذا عبد الانسـان الله ، تزداد روحه قوة ، ونفسه طهارة ، ويزداد تقبله للعقائـد النظيفـة ، وتصدر عنه أعمال طاهرة .

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشاً :

كيف لا يعبد الانسان هذا الله على كثرة مظاهر ربوبيته التي نشاهدها فيما حولنا . فهذه الأرض التي نستريح عليها ، أهي معلولة المصادفات ، أم هي معلولة الربوبية ؟ وهذه السماء التي هي بمثابة السقف ، تتدلى منها القناديل ، وتغمز النجوم فيها ، ترى كيف وجدت ؟ إنكم ترون غيمة تمر في السماء ، ثم تنزل مطراً على الأرض ، فينمو زرعكم ، وينضج ثمركم ، بألوان مختلفة ، فهل يحصل كل هذا ذاتياً ؟ فإذا كان الأمر كذلك ، فلا بد من عبادة خالق لا يصدر عنه إلاّ الخير والرحمة ، لا أنْ نعبد حجراً لا ينفع ولا يضر ، ولا أن نعبد إنساناً فنكون في أسره .

إن الذي عبادته هي الحرية والتحرر هو (الله) .

بهذا المعنى يقول حافظ الشيرازي :

« لا قدر لحافظ أن يتحرر من تلك الخصلة الجعدة

إذ المقيدون بشباكها هم الناجون »(١)

* * *

(١) خَلاصِ حافِظ اَز انْ زُلْف تابْدارْ

مباد كِه بَسْتِكانِ كَمِنْدِ تُورَسْتِكَار انْنْد

﴿ إنْ كُنْتُمْ في رَيْب مِمّا نَزّلنا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءكُمْ مِنْ دُونِ الله إنْ كُنْتُمْ صَادِقين (٢٣) فَإنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَاتّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرين (٢٤) ﴾.

﴿ وَإنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمّا نَزّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾

يتناول القرآن في هذه الآيات موضوع الأعجاز، وكون القرآن معجزة، داعياً الناس إلى معارضته قائلاً: إذا كنتم ترون هذا الكتاب كأي من كتب البشر، فتعالوا وهاتوا بكتاب مثله.

في هذه الآية يخاطب القرآن العرب ويطالبهم بمعارضته، ولكنه في سورة الاسراء يعرض الموضوع بشكل آخر، فهو لا يخاطب المعاصرين للرسول وحدهم، سواء من العرب أو العجم، بل كل الناس على وجه الأرض، وفي كل الأزمان، يدعوهم إلى المبارزة، بل إنه يتجاوز الناس الى الجن ويجعلهم ضمن المخاطبين.

﴿ قُلْ لَئِنْ آجتَمَعَتِ الإنْسُ وَالجِنُّ عَلَىٰ أن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذا القرآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً ﴾[1].

---

(١) سورة الاسراء ـ آية : ٨٨ .

هـذه الآيـة وأمثـالها تبـين حقيقتـين : الأولى هي أن المعجزة موجودة في العالم ، والثانية هي أن القرآن معجزة . وهذان أمران لا ريب فيهما من منظور القرآن .

إنكار معجزة القرآن إنكار للقرآن نفسه :

هنـالك أشخـاص ، نجد نمـاذج لهم في وقتنـا الحـاضر أيضـاً ، لا يـدركـون سر المعجـزة ، مـع أنهم يـريـدون أن يتقلبـوا القرآن بنحـو من الأنحـاء ، ولكنهم ينكـرون كـونـه معجزة ، أو أنهم ينكرون وجـود المعاجـز أصلاً ، ويؤولـون جميع المعاجـز التي وردت في القـرآن ، مثـل انفـلاق البحـر لموسى ، وتحـول عصـاه إلى حيـة ، تـأويـلات طبيعيـة ، ويوجهونها توجيهات باردة . وهذا يعني إنكار القرآن ذاته .

يشير القرآن المجيد في كثير من آياته إلى معـاجز الأنبيـاء السـابقين . وفي هـذه الآيـات التي نحن بصـددهـا ، يثبت القرآن أصل وجود المعجزة أولاً ، ويثبت كـذلك أن القـرآن معجـزة إلهيـة . ومـا فتيء القـرآن يـدعـو النـاس من ذوي الحجى والـوجـدان للنـظر والتفكـير . فعلينـا نحـن أن نستجيب ، فنفكـر في المواضيـع الخليقة بـالتدبـر والتعقل ، ومنها موضوع كون القـرآن معجزة ، فنتفهم أسـراره ، وهي من أهم أسرار المعارف الإسـلامية الكبيـرة . ولنبدأ بجـانب من جوانب هذه المعجزة ، وهي لغة القرآن .

لغة القرآن :

المعجزة من مادة (عجز) ، والعجز يعني عدم القدرة ، والمعجزة هي ما يبقى الآخرون عاجزين أمامه ، وهي ما لا يستطيع أحد القيام به .

قد يعبر أحياناً عن المعجزة بعبارة (خارق للعادة) ، ولكن هذا التعبير هو من تلك التفاسير التي يقول بها الأشاعرة لمعنى المعجزة ، وهو ليس من المعاني الجديدة .

والحقيقة إن القرآن لم يستعمل كلمة « معجزة » ولا عبارة «خارق العادة» ، فكلتاهما من اصطلاحات علماء الاسلام .

كلمة « معجزة » شائعة الاستعمال عند عموم المسلمين ، ولعلها كانت مستعملة منذ أيام الأئمة الأطهار .

ولكن عبارة (خارق للعادة) ليست كتلك ، ولعل جماعة معينة من المسلمين قد استعملتها ، كالأشاعرة مثلاً ، إذ هم كانوا يعتقدون ان المعجزة إن هي إلّا خرق للعادة .

يختار القرآن لفظة أخرى ، وهي كلمة « الآية » وهي تبدو أكثر ملاءمة من التعبيرين المذكورين .

فلماذا يعبر القرآن عن المعجزة بكلمة آية ؟ إن الآية تعني العلامة ، أو الدليل القاطع . وهذا الدليل هو ما يحتاجه رجل يدعي إنه رسول الله ، وإن الله قد أرسله ، وإنه يوحى إليه ، وإن على الناس أن يصدقوه ، بدليل إن

مـا ينطبق بـه ليس من كلامـه ، بـل من كـلام الله . فهـل ينبغي على الناس أن يصـدقوه بـلا جدال ؟ هنـالك في هـذه الحالة ثلاثة احتمـالات : الأول هو أن يكـون هذا الشخص صـادقاً في ادعـائه بـأنه رسـول الله ، والثـاني هـو أن يكـون كاذباً دجـالاً ، عالمـاً بكذبـه ودجله ، والثالث هـو أن يكون هو نفسه مخدوعاً ، كأن تنتابـه حالات بـاطنية أو نفسيـة تثير فيـه انفعالات وإحسـاسات تتجسـد في خيـالـه ، فيحسبهـا وحياً ويؤمن بها أيضاً .

هـذا الاحتمال الثـالث كثـير الـوقـوع لبعض النـاس . فهناك أشخاص لم يكذبوا ، ولا يـريدون أن يكـذبوا ولكنهم على صدقهم يتوهمون أشياء ، وتختلط عليهم الأمور .

إن مـا كان يحـدو بكفار قـريش إلى أن يصفوا الـرسول (صـلى الله عليه وآلـه وسلم) بالمجنـون هـو أنـه كـانت لـه سوابق حسنة بين الناس ، بحيث لـو انهم وصفوه بـالكذاب لمـا صدق ذلـك أحد ، ولـذلـك كـانـوا يعمـدون في دحض دعـوتـه إلى أن يقـولـوا للذين آمنـوا بـه ، إن هـذا الـرجـل صريع الأوهام والخيالات النفسية .

بنـاء على ذلـك ، ينبغي على من يـدعي النبوة أن يثبت ذلك بالدليل القـاطع ، وإذا مـا طالبـه الناس بهـذا الدليـل كـان طلبهم معقولاً ، وإلا فـان قبولهم لـدعوة كهـذه بـدون دليل يعد حماقة .

فالمعجزة هي ذلك الدليل القاطع الذي يثبت ادعاء النبوة ، وهي لذلك تسمى بالآية أيضاً .

ولزيادة إيضاح هذا الموضوع ، نبادر ببحث المواضيع التالية على التناوب :

١ ـ ما المعجزة ؟ .

٢ ـ هل المعجزة ممكنة ؟ .

٣ ـ هل تقع المعجزة ؟ .

٤ ـ كيف تثبت المعجزة صدق صاحبها ؟ .

٥ ـ رسول الاسلام والمعجزة .

٦ ـ إعجاز القرآن .

١ ـ ما المعجزة ؟ :

يرى بعضهم أن القضية ليست قضية معجزة ، بل هي قضية القبول بوجود الله أو عدم القبول بوجوده . أي إنهم يقولون : إذا نحن قبلنا بوجود الله ، فلا حاجة بنا إلى الدخول في قضية المعجزة . إذ أن الله الذي نقبل به مطلق القدرة (وهو على كل شيء قدير) ، فهو قادر على إحياء الميت ، وإحالة العصا إلى حية ، ونقل الرسول في لحظة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، بل والسير به في السماوات .

ولكن الأمر بخلاف هذا الظن ، وليس بهذه البساطة

التي تقول إن القبول بوجود الله يحل جميع المسائل .

ولتوضيح ذلك نقول :

١ - يتصور بعضهم إن المعجزة هي وقوع أمر بغير سبب . إلا أن هذا التعريف بعيد عن الصحة كثيراً ، ولعل الماديين والذين ينكرون المعجزة هم الذين عزفوا على هذه النغمة أولاً ، ومن ثم شاعت على الألسن .

وذلك لأن الذين يؤيدون المعجزة يريدون منها أن تكون دليلاً على شيء ، فإذا حصلت المعجزة بدون علة ، فلن تكون ذات دلالة على أمر أبداً .

ولنفرض فرض المستحيل أن أمراً قد وقع بدون علة ، عندئذ لا يمكن إثبات أي شيء في العالم ، ولن يبقى أي قانون علمي أو طبيعي ، ولا شيء من الفلسفة وعلم الكلام ، بل سوف يتزلزل حتى بحث إثبات وجود الله .

فنحن نعرف الله بكونه علة العالم ، فاذا افترضنا أن ليس للعالم نظام ، وأن الشيء يمكن أن يحصل بدون علة ، فلن نستطيع رد قول القائلين بأن العالم قد تكوّن بطريق المصادفة وبدون علة ، لذلك فهذا الحديث لا يصلح للمعجزة البتة[١] .

---

(١) لقد بحثنا هذا الموضوع بحثاً مسهباً في كتاب (العدل =

٢ ـ وقد يقول آخرون إن المعجزة لا تعني حدوث أمر بغير سبب ، إنها ليست شذوذاً عن قانون العلّية ، ولكنها بدلاً من أن تكون لها علة واقعية ، تكون لها علة بديلة ، أي إن المعجزة هي استبدال علة بأخرى .

فمثلاً ، العلة الواقعية لظهور الانسان هي الامتزاج بين الذكر والأنثى . فاذا أزيحت هذه العلة الحقيقة وأتي بعلة أخرى بمكانها ، فظهر انسان بغير امتزاج بين الذكر والأنثى ، فتلك هي المعجزة .

هذا القول ناشيء أيضاً عن عدم الاطلاع على العلوم

= الالهي) ، وقلنا انه لباطل أن يظن أحد أننا إنما نقوم بالأعمال عن طريق العلة والمعلول ، أو السبب والمسبب ، لكوننا عاجزين ، وإن الله لكونه قادراً على كل شيء فلا حاجة له إلى العلة والمعلول .

كلا ، ليس الأمر كذلك ، فقد ثبت عند الحكماء أن قدسية ذات الله وكماله تقتضي أن تجري الأعمال ضمن نظام العلة والمعلول ، وبعبارة أخرى نظام العلة والمعلول هو نظام فعل الله .

هناك عدد من الآيات في القرآن الكريم تخص هذا الموضوع ، يتضح فيها ان الله ، عن طريق الأسباب ، يحقق أوامر ، سواء أكانت أسباباً طبيعية ، مثل نزول المطر ، ونمو النباتات ، وأمثالها أم أسباباً غير طبيعية مما وراء الطبيعة ، مثل الملائكة ، وجنود الله غير المرئيين .

العقلية ، وذلك إننا إذا قبلنا بمبدأ العلة والمعلول ، وأنه هو السائد في العالم ، فلا يمكن نقضه أو تغييره وتبديله ، إذ إنه ليس عقداً تعاقدياً ، إنما هو حقيقة واقعية لا تخلف فيها .

ففي الطبيعة إذا كان (أ) علة وجود (ب) ، فهناك بين (أ و ب) رابط واقعي وحقيقي ، بحيث إن أياً منهما ليست له رابطة مماثلة مع طرف ثالث ، وليس لأي منهما وجود بغير الآخر . الخلاصة إن العلة الحقيقة لأمر ما هي علة واحدة فقط . والأمر الواحد لا يمكن أن يرتبط برابط العلية والمعلولية بشيئين اثنين .

لذلك ، في المثال السابق ، لا يمكن أن يكون (ج) بمكان (أ) ، ولا أن يصبح (د) معلولاً (أ) بدلاً من (ب)[1] .

٣ ـ هنالك بإزاء هذين التعريفين تعريف ثالث للمعجزة ، يجيب على جميع الإعتراضات العقلية السابقة ، وهو أن نقول : إن المعجزة لا تلغي قانون العلة

---

(١) اما عن نوع الرباط بين العلة والمعلول ، ولماذا لا يمكن الحصول من علة واحدة على أكثر من معلول واحد ولا أن يكون الشيء معلولاً لعلتين ، فقد ورد تفصيل ذلك في الحاق المجلد الثالث من كتاب (اصول الفلسفة) .

والمعلول ، ولا هي تنقضه ، ولا هي استثناء منه . بل هي خرق لقوانين الطبيعة .

هنا لك فرق بين خرق قانون العلة والمعلول ، وخرق قوانين الطبيعة . فالمعجزة لا تعني حدوث أمر عن غير طريق العلة والمعلول الأصلي ، إنما المعجزة هي التي تحدث بخلاف المسير العادي والجريان الطبيعي للأمور .

وبعبارة أوضح :

المعجزة خروج أمر عن المجرى العادي إلى الحد الذي يظهر فيه تدخل ما وراء الطبيعة ظهوراً واضحاً .

ففي هذه الحالة لا تكون علة قد أخذت مكان أخرى ، إذ إن الرابط بين العلة والمعلول ، وهو رابط أصيل ، موجود ومقبول . أما المعجزة فيمكن توجيهها هكذا :

إن العلل الواقعية للأشياء ، والتي يريد الانسان أن يصل اليها عن طريق التجربة والعلم ، ما زالت مجهولة ، والله وحده يعلم العلل الحقيقة للأشياء ، والانسان انما يصل بتجاربه واختباراته الى سلسلة من المقارنات والعلاقات فقط ، ويحسب أنها هي العلاقات العليّة .

وعلى ذلك فالمعجزة هي ما يحدث عن غير الطريق المألوف الذي يظن الناس إنه يحدث به عادة . وسوف نوضح هذا مرة أخرى .

٢ ـ هل المعجزة ممكنة ؟ :

لقد اتضح جواب هذا السؤال إلى حدٍ ما في الفصل السابق ، حيث قلنا إن إمكان حدوث المعجزة أو استحالتها يرتبطان بتعريف المعجزة وكيفية تناولنا لها .

فإذا قلنا إن المعجزة هي ما يحدث بدون علة ، فتكون عندئذٍ مستحيلة بالبداهة . كذلك الأمر إذا قلنا إن المعجزة نقض قانون العلية ، أي تبادل الأمكنة بين العلل .

أما إذا نظرنا إلى الأمر من خلال التعريف الثالث ، أي أنها خروج الطبيعة عن مجراها العادي ، عندئذٍ تكون المعجزة ممكنة ، وليست مستحيلة . وعلينا هنا أن نستزيد شيئاً من التوضيح .

يورد « هيكَل » ، الفيلسوف الألماني المعروف ، بعض المباديء التي يبني عليها مسائل كثيرة من فلسفته .

يقول : هنالك سلسلة من المسائل تعتبر من الضرورات العقلية ، ولا يجوز خلافها ، أي إنها لا نقيض لها . مثل المسائل الرياضية التي يسميها « القضايا التحليلية » .

تقول في الرياضيات إن مجموع زوايا المثلث ١٨٠ درجة أو قائمتان . هذا الحكم من أحكام العقل الضرورية ، أي إذا استطاع العقل أن يدرك ما هو

المثلث ، فهـو يدرك فـوراً بأن الضـرورة تقتضي بأن يكـون مجموع زواياه ١٨٠ درجة ،ويستحيل أن يكـون غير ذلـك ، حتى بجزء من الدرجة .

والقضايا التي تعتبـر في الفلسفـة والمنـطق من القضـايـا الضـروريـة تشبه هذه، مثـل اجتمـاع النقيضـين وارتفـاع النقيضين .

إلا أن هنـاك مسائـل أخرى هي مسـائل تجـريبية ، أي المسائل التي لا يدرك فيها العقل أية ضـرورة وإنما تقـول إنها هكذا لأننا وجدناها هكذا .

والمثال الذي يضربه « هيكَـل » للمسائـل التجريبيـة هو قوله : إننـا بحسب تجاربنـا الكثيرة لاحـظنا أن المـاء يتحول إلى بخـار في درجـة حـرارة ١٠٠ ، ونـطلق عـلى هـذا اسم « العلة » فنقـول إن الحـرارة هي « علة » تبخـر المـاء . وإذا رأينا الماء يتجمـد في برودة تحت الصفـر ، نقول إن البـرودة هي « علة » تجمد الماء .

يقــول « هيكَــل » إن أيــاً من هــذين ليس ضــرورة عقلية ، إنما نحن وجـدنا الأمـر هكذا فحكمنـا به هكـذا ، ولو أننا منذ ولادتنا كنا قد رأينا خلاف ذلك ، أي إذا رأينا أن الحــرارة هي التي تجمـد المــاء ، وأن البــرودة تحيله إلى بخـار ، لما قـام في عقلنـا أي اعتـراض . أي إن الانجمـاد

بسبب البـرودة ، والتبخر بسبب الحـرارة ، ليستا ممـا يوجب العقل ضرورتها ، بل هما من القضايـا الوجـودية الصـرف . فهي مـوجـودة في العـالم هكـذا ، وليس خـلافهـا ضـروري أيضاً . »

هـذا القول ، إلى هـذا الحد قـول معقول ، وهـو يشبه مـا توصـل إليه ابن سينـا وأمثالـه الذين كـانوا يتسـاءلون : مـاذا بشأن العلوم الـطبيعية التي تستنـد دائماً إلى التجـربة ، والتجربة لا تؤدي إلى القول بضرورتهـا ؟ وكيف ننظر ، من هـذا المنظور ، إلى العلوم الـطبيعية وقـوانينهـا ؟ فهـل يمكن درج قـوانـين التجـربـة تحت قـانـون العـلة والمعـلول الفلسفي ؟ .

يقـولون إنـه في الموارد التي تكشف فيهـا التجـربـة عن عـلاقـة مـا ، مثـل الحـرارة التي تكـون سبب تبخـر المـاء والبـرودة التي تكون سبب انجمـاد المـاء ، لا بـد أن تكـون هنـاك (علة) حقيقيـة لهـذا ، وأن تلك العلة الحقيقـة لا يمكن أن تتـرك مكانها لعلة أخـرى . ولكن القول بـأن العلة هي ما نحسه بحـواسنا في التجـربة ويكشفـه لنا الاختبـار ، فأمر مشكوك فيه . ولهذا نجد ، ان العلوم التجـريبية تتغـير كل يوم ، فينسخ قانون قانوناً قبله ، ويقوم مقامه .

فمثـلاً عنـدمـا اكتشف الانسـان ان الحجـر يسقط إلى

الأرض إذا رمي من أعلى ، قالـوا إن في الحجر قـوة جاذبـة تميل إلى الإقتراب من مركز الأرض .

وكـان هـذا حكـماً أصدروه عـلى اثـر القيـام بتجـارب كثيرة ، واتفقوا عليـه . ولكن على اثـر مجيء (نيوتن) تغـير الحـال ، وقـالـوا : لا ، ليس الحجـر هـو الـذي يميـل إلى الاقتراب من مركز الأرض ، بل إن قوة الجاذبية في الأرض هي التي تجذب الحجر اليها .

ومن ثم ظهـرت النـظريـة النسبيـة ، وأعيـد النـظر في النظرية السابقة .

فالشيء الثابت من كل ذلك هـو إن الحوادث لا تحـدث بـدون علة ، ولكن تـرى هـل يكتشف العلم تلك العلل أم لا ؟ وهـل إننـا بمجـرد أن نكتشف عـلاقـة مـا ، يصـح أن نقـول إننا قـد اكتشفنا العلة ؟ كـلا ، هـذا غـير صحيـح ، فهذه ليست العلل الحقيقة ، فـلا الحرارة علة التبخـر ، ولا البـرودة علة الانجماد ، ولا الجـاذبية علة سقـوط الحجـر ، فهذه العلائق كثيراً ما تتبدل .

هنـا يتضـح بجـلاء الفـرق بـين (نـامـوس الـطبيعـة) وقـانون العلة والمعلول . فمن حيث النـاموس الـطبيعي نجد إن كل حالات الولادة الانسانية لها طريق واحد فقط ، فلا بـد من الذكـر والانثى ، ولا بد من انعقـاد النـطفـة ، حتى

يكون الانسان . ولكن هل قانـون العلة الأصيل هـو الحاكم هنا ؟ هل غير هذا مستحيـل ؟ أفلا يمكن أن تتـولد في وقت ما في رحم المرأة خليـة ذات استعداد خـاص ، فتجمع بـين عمل بويضة المرأة وعمل حيمن الرجل ؟ .

والعقل لا ينكر هذا ، إنما يقول : هذا مـا وجدنـاه وما نـراه ، ولكن قـد يحـدث بشكـل آخـر لا نعـرف سـره حتى الآن ، كأن بويضة المرأة حيمن الذكورة . فـإذا حصل هـذا فـإن قـانــون العليّـة لا ينتقض ، بــل الـذي ينتقض هــو الأساس الطبيعي . وهذا هو المعجزة .

فالمعجزة ، إذن خرق لنواميس الـطبيعة ، وهي ، بهـذا المعنى ، ممكنة الحدوث .

نعود إلى « هيكَل » مـرة أخرى . إذا ادعى أحـد النبوة وقـال ان معجـزتـه هي أنـه يستــطيـع رسم مثلث مجمــوع زاويــة ١٩٠° درجـة ، فيجب تكــذيبـه فــوراً ، لأن هـذا مستحيل الأدعاء نفسه دليل على كذب المدعي .

أو قد يزعم مدعي النبوة إنـه قادر عـلى احداث حـدث بـدون علة ، فيكـون كــاذبـاً أيضــاً ؛ لأن ذلـك ينــاقض الضرورة العقلية .

ولكن إذا ادعى أحـد إنه يستـطيع أن يخـرق النـواميس الطبيعية كتلك الأعمـال التي يقول عنهـا « هيكَل » إننـا لا

نملك دليلاً عليها ، وإنما وجدناها هكذا دائماً ، فاننا نتقبل ذلك .

وبعبارة أخرى ، إن القوانين العقلية مطلقة ، غير مشروطة ، أي ليس فيها « إذا » . ولكن القوانين الطبيعية مشروطة ، أي عندما نقول إن مجموع زوايا مثلث يساوي قائمتين ، فلا يصح أن نضيف : إذا لم يحل دون ذلك مانع . ولكن في القوانين الطبيعية نستطيع أن نقول إن قانون الجاذبية يقضي بأن يجذب الجسم الكبير جسماً أصغر منه ، إذا لم يحل مانع دون ذلك ، أي إذا أنت وضعت يدك لتحول دون سقوط الجسم ، فإن قانون الجاذبية يتوقف عن العمل .

يتضح من ذلك إن اكتشاف العلل الحقيقية ليس في طاقة البشر ، فهي خافية عليه ، وإن كل الذي يستطيع أن يتوصل البشر إلى معرفته هو سلسلة من العلائق فحسب . إن الله وحده هو العليم بتلك العلل .

جاء في سورة « الطلاق » : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ، أي لا حاجة له بأي علة من العلل الظاهرة . ثم يقول : ﴿ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ .

ولكنه ، لكي لا يظن الناس أن ليس في نظام العالم علة ومعلول ، وان الله قد يقوم أحياناً باعمال على خلاف

نـظرية العليـة ، يقول ﴿ قَـدْ جَعَلَ الله لِكُـلِّ شَيءٍ قَـدْراً ﴾ أي إنـه وضع لكـل شيء حداً أو مقـداراً وعلاقـة ، ولكنهـا علاقة يعلمها الله وحده .

أما كون الله إذا أراد شيئـاً قال لـه كن فيكون ، بحيث لا يـرى البشر لها سبباً من الأسبـاب التي يعـرفهـا ، فـلأن هـذه هي الظواهـر ، وليست العلل الحقيقية ، فهـذه علمها عند الله وحده .

وإذا أراد الله فـانـه يكشف لبعض النـاس عن أسـرار العلة والمعلول ، وإذا مـا تلقى أحد هـذه الأسرار من الله ، يكون بمقدوره أن يتصـرف في أعمال العـالم كما يشـاء ، بغير أن يتدخل في نظام العلة والمعلول .

وهـذا هو معنى الحـديث الذي جـاء فيـه أن العبـد قـد يقتـرب من ربـه إلى الحـد الـذي يكـون الله عينـاً لـه يبصر بها ، وأذناً يسمع بها ، ويداً يعمل بها .

٣ ـ هل تقع المعجزة ؟ :

جواب هذا السؤال سهل يسير ، فإننا بعد معرفتنـا أن المعجـزة ليست خرقـاً لنظام العلة والمعلول نجـد الكثـير من حوادث خرق نواميس الطبيعة قد وقعت ، وتقع .

ينقل عن ابن سينا أنـه قال : إذا سمعت أن (عـارفاً)

من الناس قد بقي شهراً دون طعام ولم يمت ، فلا يأخذك العجب . فهو قد عمل بخلاف قانون الطبيعة ، وليس بخلاف الوجود الكلي . فإن القول بانه إذا لم يأكل الانسان مدة ثمانٍ وأربعين ساعة ، مات ، قول صحيح ، لأن عملية هضم الطعام المألوفة تقتضي أن يصل إلى المعدة طعام خلال تلك المدة .

إلا أن بعض الناس يستطيع ، بتقوية إرادته ، أن يسخر جسمه بحيث إنه يستطيع أن يسيطر حتى على حركة قلبه ، وأن يكون تنفسه على وفق ارادته ، وأن يتحكم في هضم الطعام وفي فعاليات معدته .

هنالك نماذج عديدة لأمثال هؤلاء الناس بين مرتاضين ، ومنهم من كان يستطيع أن يحبس انفاسه مدة طويلة ، فلا يتنفس ، مع ان الافراد العاديين قد لا يستطيعون ذلك حتى لدقيقة واحدة .

هذا ينتج من تقوية الروح وترويضها ، أي إننا نقوي الروح بحيث تصبح هي المسيطرة على فعاليات الجسم .

يقال ان بعض الزعماء الروس الذين زاروا الهند في وقت ما ، أثارت أعمال من هذا القبيل حيرتهم ودهشتهم ، بحيث أنهم عندما عادوا إلى بلدهم طلبوا أن تدرس هذه الأمور في جامعاتهم ، وكأنها علم من العلوم .

لقد رأى هؤلاء ، من بين ما رأوا ، إن رجلاً قد أدخل في تابوت ، ودفن في قبر بدون ان يكون هناك منفذ للهواء وللتنفس . ثم بعد أن أخرجوه بعد مدة ، أخذ يتنفس كالعادة ، وكان واضحاً انه عند دفنه قد قطع تنفسه باختياره .

على كل حال ، أمثال هذه الأعمال كثيرة ، وعمادها تقوية الارادة عن طريق التمرين ، وبعضها غير شرعي .

وعلى ذلك ، فان المعجزة ، كما قلنا ، عمل يجري على خلاف القوانين الطبيعية ، مع ملاحظة أن الأنبياء كانوا يتمتعون بعناية الله ، ويمثلون النماذج للإنسان الكامل ، وللروح القوية ، وللارادة المتينة . فتعليل المعجزة ليس من الأمور الصعبة .

٤ ـ كيف تثبت المعجزة صدق صاحبها ؟ :

يقول المناطقة إن هناك ثلاثة انواع من الأدلة :

١ ـ الدليل الوضعي .
٢ ـ الدليل الطبيعي .
٣ ـ الدليل العقلي .

الدليل الوضعي :

وهو أن نضع علامة لتدل على شيء معين بحيث لو

اختلف الشيء لـوجب اختلاف الـدلالة ، كـدلالـة الألفـاظ عـلى المعـاني ، فلفـظة (الخبـز) وضعت لتـدل عـلى هـذا الطعام المعروف ، والماء لهذا الذي نشـربه ، ولـو كان الأمـر معكوساً ، أي لو وضع الخبز لما نشـربه ، والمـاء لما نـأكله ، لما اختلف الأمر ، ولما حصل التباس ، أي ليست هناك أية رابـطة ذاتيـة بـين الاسم والمسمـى في أي من المثـالـين المذكورين .

ومثـال آخر إشـارات المرور ، فقـد تـواضعـوا عـلى أن يكـون الضـوء الأخضر إشـارة للعبـور الحـر ، وهـذا دليـل وضعي ، فلو كـانوا قـد تـواضعـوا عـلى أن يكـون الأخضر علامة الوقوف لدلّ على ذلك أيضاً .

فهـل دلالة المعجـزة على صـدق النبـوة كتلك أيضاً ؟ هـل تواضـع الله مع النـاس من قبـل عـلى أنهم إذا رأوا من أحدٍ أعمالاً معينة عليهم أن يعلموا أنـه مرسـل من الله وأنه يصدقهم القول ؟ .

ليس الأمـر كـذلـك ، لأن مـا يـريـد الله ايصـالـه الى النـاس يرسله بـوساطـة أنبيائـه ، ونحن الآن بصدد اثبـات الأنبياء أنفسهم .

الدليل الطبيعي :

وهي الـدلالة التجـريبية ، كـأن يـدل السعـال عـلى ألم

الصدر ، أو تدل سرعة النبض على الحمى . هذه علائم طبيعية عرفت بالتجربة .

لا شك إن المعجزة ليست من هذه الدلالات ، إذ أنها ليست ضمن تجارب البشر .

الدليل العقلي :

وهو الدليل الاستدلالي ، مثل دلالة المعلول على العلة . عندما يلاحظ العقل حدوث الحدث ، يعرف إنه يستحيل حدوثه بدون علة ، فيحاول معرفة علة ذلك المعلول . وهذا ما يحتاج إلى الوضع أو التجربة .

دليل المعجزة من هذا النوع ، ولتوضيح ذلك نقول :

هنالك طريقتان لتبيان دلالة المعجزة . يقول أصحاب علم الكلام إن المعجزة نوع من الأدلة العقلية ، بصورة عملية ، كأن يدرك العقل رضا شخص ما من سلوكه ، أو أنه يستشف رضاه من سكوته . ومن هذا القبيل اعتبار تقرير العصمة حجة ، كما جاء في الفقه ، أي إذا كان المعصوم يقرر طريقة الوضوء أو يتوضأ عملياً ليتعلم الآخرون ، فذلك في نظرنا حجة ، وكذلك إذا توضأ أحد أمام المعصوم ولم يعترض عليه ، فندرك بالدليل العقلي على ان طريقة الوضوء هي تلك ، مستدلين على ذلك بأنه لو لم يكن كذلك لاعترض المعصوم ، وبما انه لم يعترض ، فلا

شك إن طريقة الوضوء صحيحة في نظره . فإذا سأل احد لماذا يعترض المعصوم إذا لم تكن الطريقة صحيحة ؟ نقول ، إذن لكان سكوته إغراءً بالجهل ، أي إنه يحمل الناس على الجهل بطريقة الوضوء الصحيحة ، وهذا عمل قبيح غير مقبول ، والمعصوم لا يرتكب مثل هذا العمل .

وهؤلاء يقولون إن دلالة المعجزة على النبوة تعتبر من هذا القبيل ، وذلك حينما يأتي شخص ويقول : أيها الناس ، أنا رسول الله إليكم (مع العلم بأن الله عارف بكل أعمال البشر) ، يكون هذا الزعم قد أعلن في حضور الله ، فعندما يقوم بأعمال خارقة للعادة ، سواء أنسبها إلى نفسه أم إلى الله ، تكون هذه حتماً دليلاً على صدقه ، إذ لو كان كاذباً لكان على الله أن يحول دون حدوث المعجزة ، فلو تركها تحدث لكأنه أيد الكاذب ، وأغرى الناس بالجهل .

كان هذا ملخص ما يورده المتكلمون بخصوص المعجزة .

إلا أن هناك عدداً من العلماء يعتقدون بأن المتكلمين لم يدركوا حقيقة المعجزة لكونهم حسبوها عملاً يحققه الله مباشرة على يد النبي ، بدون أن يتدخل النبي في اجراءاتها ، وأنه لم يكن سوى الواجهة الظاهرية ، وأن الله

هـو الذي يقـوم بالمعجـزة على يـد النبي ، كأن يجلس عيسى عنـد الميت ، ولكن الله هـو الـذي يحييـه ، أي ليس لعيسى أي دور في إحيـائه ، إنمـا هـو مجـرد وسيلة . أي إن العمـل عمـل الله بصورة مبـاشرة ، وكـما إننا ، أنـا وأنت ، لم يكن لنا أي تأثير في تحقيق المعجزة ، كـذلك ليس لـلأنبياء يـد في تحقيقها .

كـلا ، ليس الأمر كـذلـك ، بـل هـو أرفـع من ذلـك بكثـير . إن بين المعجـزة وصاحبهـا علاقـة واقعية بحيث لا يمكن حدوثها على يد شخص آخر .

المعجـزة إعلان عن الكمـال الـروحي والمعنـوي الـذي بلغـه « ولي » الله . عنـدمـا يحقق ولي الله اعجـازاً ، تكـون قـواه البشريـة في اتصال بقـوى الله ، أي إن الله يمنحه إرادة وقدرة فوق ما للبشر .

يتضح مما سبق ذكره ، إنه بسبب قيـام ولي الله باطـاعة الله اطـاعة كـاملة وبسبب الـريـاضيـات العمليـة التي يقـوم بهـا ، يبلغ مرحلة تكـون له فيـه ارادة من القـوة بحيث انها تقهـر الطبيعـة . وبعبـارة أخـرى ، يستـطيـع البشر في ظـل الطاعة والعبـادة ، أن يبلغ من الله قربـاً يصبح معـه نموذجـاً لله في الأرض .

وعليـه ، فإن قيـام أولياء الله بـأعمال خـارقـة للطبيعـة

يكون من عمله أنفسهم ، إنما بطاقة تفوق طاقة البشر .

وهذا نفسه قد ورد على لسان علي بن ابي طالب ، إذ أنه عندما اقتلع باب خيبر بمفرده ، الباب الذي كان يجد أربعون أو خمسون رجلاً صعوبة في زحزحته ، وقذف به بعيداً ، قال :

« والله ما قلَعتُ بابَ خَيْبر بِقوةٍ جَسَدانية ، بَلْ بِقُوةٍ إلهية » .

أي إن ساعدي البشريتين ما كانتا قادرتين على ذلك ، إنما أعانتهما على ذلك قوة إلهية ، بحيث لو كان الباب أثقل من ذلك عشر مرات لكان قادراً على اقتلاعه .

إذن يقول علي (عليه السلام) : قلعت . أي إنه هو الذي قلع الباب ، لا أنه أمسك بالباب ، فاقتلعه الله وقذف به بعيداً . إنه قلع الباب ولكن بالقوة التي وهبها الله له . فالمعجزة تعني ، إذن ، انه إذا أحيا عيسى الموتى ، فإنه لم يحيهم بقوته البشرية ، ولا الله أحياها مباشرة بدون تدخّل الانسان ، وانما عيسى أحياها بقوة ربّانية .

يتضح من ذلك إن دلالة المعجزة على صدق النبوة دلالة عقلية ، ولكن ليست كتلك الدلالة العقلية التي يقول بها المتكلمون ، بل دلالة عقلية منطقية مئة بالمئة .

٥ ـ رسول الاسلام والمعجزة :

اعترض بعض المستشرقين ورجال الدين المسيحيين على القرآن وعلى الرسول ، في معرض طرحهم موضوعاً ، تابعهم فيه بعض الكتاب المسلمين بشكل آخر ، فأيدوا مزاعمهم وقبلوها . ذلك الموضوع هو معاجز رسول الاسلام .

طرح المسيحيون الموضوع هكذا : ويستنبط من القرآن أن النبي كان يمتنع عن الاتيان بمعجزة إذا ما طالبوه بها ، وفي القرآن ما يدل دلالة صريحة على ذلك ، حتى إنه ينكر ذلك أشد الانكار . ثم يستشهدون على ذلك بايراد بعض الآيات ، التي سوف نوردها فيما بعد .

أما بعض الكتاب المسلمين المحدثين فقد عرضوا للموضوع هكذا :

ترتبط المعجزة من حيث الأساس بأدوار طفولية البشر ، أي الأدوار التي كان البشر ما يزال في مرحلة التوحش ، لم يصل بعد إلى مرحلة العلم والعقل والمنطق . ولذلك لما لم يكن بالامكان عرض المسائل على الناس بطريق العلم والمنطق ، كان على الأنبياء أن يأتوا بالمعجزات .

وبعبارة أخرى ، كان الانسان طفلاً ، والطفل لا

يفهم كلام المنطق والاستدلال ، على حد قول الشاعر :

«إذا اضطررت للتعامل مع الطفل
فعليك أن تنطق بلسان الطفولة »[1]

فالمعجزة لغة الطفولة للأطفال ، أي إنسان العصور السحيقة . ولكن ما إن بلغ البشر مرحلة البلوغ الفكري التي يمكن فيها أن تخاطبه بلغة العلم والمنطق والاستدلال ، حتى لم تعد ثمة حاجة الى المعجزة . بل يتقبل البشر قول الرسول المبعوث الذي يضع الخطط والقوانين الاصلاحية والتقدم بالانسان نحو التكامل ويؤمن به بلا تردد .

إن اختلاف رسول الاسلام عن الرسل الذين أتوا قبله ، هو إن ظهوره اقترن تاريخياً بمرحلة تحول البشر من التوحش الى التفكر .

وفي ذلك يقول إقبال اللاهوري : ان رسول الاسلام يقع ضمن مقطع تاريخي يرتبط ماضيه بمرحلة طفولة البشر وتوحشه ، ويرتبط مستقبله بمرحلة العلم والمنطق .

وعلى هذا ، يختلف الوحي الذي نزل على نبينا في آخر الزمان عن الوحي الذي نزل على سابقيه ، بل إنما جاء رسولنا ليحمل الناس إلى مرحلة العقل والمنطقة .

(١) چُونْكِه بـا كُـودَكْ سَـرُو كـارَتْ فِتـادْ
پَسْ زبـانِ كُـودَكى بـايَـدْ گُشـادْ

ويستطرد إقبال اللاهوري ، فيقول : إن الرسول ينتمي ، من حيث منشأ عمله ـ وهو الوحي ـ الى مرحلة سابقة ، ومن حيث روح رسالته ـ وهي الدعوة الى العقل والمنطق والعلم والتجربة والاختبار والاعتبار بالتاريخ ـ الى المستقبل .

وهذه ، في نظر اقبال هي فلسفة اختتام النبوة بالرسول ، أي إن ذكر الماضي يؤدي إلى نتيجتين اثنتين : الأولى اختتام النبوة ، والثانية الاستغناء عن المعجزة . أي بمجيء رسالة هي خاتمة الرسالات ، لن تكون الظروف بعد ذلك مهيأة لنبوة أخرى ، ولن تكون حاجة الى المعجزة ، لأن المعجزة تتعلق بالمراحل السابقة .

هذا هو الطرح الذي يراه اقبال ، وقد تبعه في ذلك بعض الكتاب المسلمين .

إننا الآن لسنا في مقام بحث هذا الموضوع بحثاً مسهباً ، ولكننا نقول قولاً مجملاً ، وهو إن هؤلاء ، في هذه الفلسفة التي يوردونها عن اختتام النبوة يقعون في خطأ جسيم .

طبعاً لا أقصد أن أقول ان اقبال ينكر انتهاء النبوة (حسبما ظنه بعظهم) . بالعكس ، فاقبال يقبل بختم النبوة ، انما توجيهه لهذا الأمر غير صحيح .

إن الفلسفة التي يذكرها تؤدي إلى نتيجة هي عكس ما يريد اثباته تماماً ، وذلك لأننا إذا اعتبرنا توجيهاته صحيحة ، لكانت النتيجة « ختم الدين » لا « ختم النبوة » .

إننا الآن لسنا بصدد هذا ، بل نحن نبحث في المعجزة . إن أقوال الكتاب المذكورين تشير إلى مسألتين : المسألة الأولى تقول ان مرحلة البلوغ الفكري لاتتطلب المعجزة . والمسألة الثانية هي ان الاسلام يمتنع عن الاتيان بأية معجزة ، كما ورد في عدد من آيات القرآن . فلا بد من بحث هذين الموضوعين .

أما فيما يتعلق بموضوع انتفاء الحاجة إلى المعجزة في مرحل البلوغ الفكري عند البشر ، فإنه غير صحيح ، وذلك لأن القرآن ، كما قلنا من قبل ، يستعمل تعبير « آية » ولا يستعمل تعبير « معجزة » .

فالآية هي الدليل ، والدليل يعني هنا إن ما يقوله هذا الشخص ليس من عنده ، إنما هو من عند الله .

قد يستعمل نبي كلاماً منطقياً ، كلاماً يمكن إثباته بما يثبتون به المسائل العلمية كالبرهان والتجربة والاختبار . فيكون هذا في هذه الحالة ، مجرد حكيم أو عالم كبير ، ولكن ثمة فرق كبير بين الحكيم العالم الفيلسوف والنبي .

فكلام الحكيم الفيلسوف يقع في مستوى كلام البشر ، ولكن الرسول يريد أن يقول شيئاً أكثر من هذا .

فبالاضافة الى أن كلام الرسل منطقي وعقلاني ، فان لهم كلاماً آخر ، وهو إن هذا الكلام ليس كلامهم ، إنما هو قد بلّغ إليهم ، وهم يبلغونه .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ .

أي إن هذا الذي أقوله ما كان بسبب إني أمضيت الليل أفكر فيه لأن لي دماغاً أكبر من الأدمغة ، كلا ، بل هو كلام الله قد أوحي إلي .

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ .

إن لي لساناً واحداً وهو متوجه نحوكم ، ولكن لروحي في الباطن اتصال بمكان آخر ، ومن هناك يأتيني البلاغ ، فأبلغكم به .

إنني ، أصلاً ، رسول ، أحمل رسالة الله إليكم ، لا كلامي أنا . والموضوع كله يدور حول حمل الرسالة . فأنا رسول نبي ، أحمل اليكم رسالة من غيري .

إذا فرضنا إن السيد سقراط قال يوماً إن له فلسفة كهذه في الأخلاق . فاذا وجدنا كلامه منطقياً ، قبلناه .

ولكن إذا قال سقراط إن كلامه ليس من عنده ، بل من عند الله ، وإنه مجرد حامل لكلام الله الينا ، عندئذ نقول له : عليك أن تثبت لنا هذا ، فعلى الرغم من أن كلامك منطقي ، لكنه لا يكون دليلاً على إنه من عند الله ، فكون الكلام منطقياً شيء ، وكونه ليس للقائل ، بل من كلام الله ، وان اطاعته تنيل الثواب ، والكفر به كفر بالله ، شيء آخر .

كثيرون هم الذين يتكلمون كلاماً منطقياً ، ولكننا إن لم نطعهم فلا بأس علينا . ولكن الذي يقول هذا ليس كلامي ، بل هو كلام الله ، فإن لم نطعه نكون قد تمردنا على الله ، وإن أطعناه نكون قد عبدنا الله .

وعليه ، يصح القول بأن الرسول يستطيع ، في مرحلة البلوغ الفكري ، أن يثبت أقواله بالدليل المنطقي ، كأن يقول : أيها الناس فكروا واعقلوا ، وادركوا صحة أقوالي . ولكن صحة اقواله شيء وكونها من عند الله شيء آخر .

قد يأتي نبي الاسلام فيقول : لا تشربوا الخمر ، فالخمرة تضركم ، إنها رجس وشر . ثم يقول : حسن ، أنتم تريدون الدليل الآن . أنظروا إلى الذين اعتادوا على شرب الخمر أزماناً طويلة ، لتروا ماذا يحدث لهم ،

ولأعصابهم ، ولجهازهم الهضمي ، ولأكبادهم . إذهبوا وجربوا أولئك الذين يشربون الخمر ويسكرون ، كم يسببون للمجتمع من مصائب ، ولا تجربة خير من هذه . فالاحصائيات عن الجرائم الناشئة عن تعاطي الخمور دليل على شرورها .

فالناس الذين يلتزمون العقل والمنطق ، يفهمون جيداً إن هذا الطلب منطقي ، فلا ينبغي لهم أن يقربوا الخمر .

ولكن القول ، مرة أخرى ، بان هذا بلاغ من الله ، يكون شيئاً آخر . لذلك فاننا ، في مرحلة البلوغ ، حتى لو أدركنا صحة جميع أقوال الرسول بالبراهين العلمية والعقلية ، فاننا ، في موضع تصديق نبوته ، نحتاج الى المعجزة .

إلى هنا كان البحث يتعلق بالطرح الأول . ونأتي الآن إلى الطرح الثاني ، القائل بأن الرسول ، بشهادة القرآن ، كان يمتنع عن القيام بمعجزة ، وإنه لذلك لم تكن له معجزة . ويستشهد هؤلاء بآيات عديدة ، أوضحها ما جاء في سورة الاسراء :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً ، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً ، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ

عَلَيْنَا كِسَفاً ، أوْ تَـأْتِي بالله وَٱلمَـلائِكَةِ قَبِيـلاً أوْ يَكُونُ لَـكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْـرُفٍ ، أَوْ تَرْقَى في السَّمَـاءِ وَلَن نُؤمِنَ لِرُقِيِّـكَ حَتّىٰ تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتـاباً نَقْـرؤهُ قُلْ سبْحَـانَ رَبِّي هَلْ كُنْت إلاّ بَشَراً رَسُولاً ﴾[1] .

تقـع مكـة في أرض قـاحلة جـرداء ، لا مـاء فيهـا ولا زرع ، ولم يكن في مكـة يومئـذٍ ماء جـار ، والموجـود منه في الوقت الحاضر ويستفاد منه في منى وعـرفات ، يـأتي معظمـه من نهر الطائف ، والطائف تقـع على بعـد اثني‌عشر فـرسخاً إلى جنـوب مكـة ، حيث أمـرت زبيـدة ، زوجـة هـارون الـرشيد الخليفـة المقتـدر ، فخصص مـال وافـر ـ وهي التي كان تحت تصرفهـا بيت مال المسلمـين ـ لحفر جبـل الطائف وإيصـال نهر منه إلى مكـة . أمـا في عصر النبي ، فلم يكن في مكـة ماء سـوى ماء زمـزم ، وهذا أيضـاً لم يكن بالـوفرة الموجودة حـالياً لأنهم وسعـوا في حفر البئـر بعد ذلـك فازداد ماؤها .

قـال كفـار قـريش ومخـالفـو النبي ، انهم لن يؤمنـوا حتى :

١ ـ يفجر لهم الماء من الأرض .

---

(١) سورة الأسراء ـ آية : ٩٢ ـ ٩٦ .

٢ ـ لما كانت مكة خالية من كل زرع أو بستان ، فقد طلبوا أن تكون له بستان فيها أشجار العنب وأنهار تجري .

٣ ـ اذا كان يظن كما يقول ، أن العالم سوف يختلف في يوم القيامة ، وأن السماء والأرض تتداخلان ، فليعمل شيئاً الآن لتنزل السماء قطعاً .

٤ ـ يأتي بالله وبالملائكة من السماء لتأييده .

٥ ـ أو أن تكون له دار مليئة بالمال .

٦ ـ أو أن يصعد إلى السماء ليأتي منها برسالة يقرأونها ، تؤيد نبوته .

هذه هي الشروط التي أوردوها للإقرار به . ولكنه رد عليهم بأنه بشر عادي ، يحمل إليهم رسالة .

بهذه الآية يتشبث المعترضون قائلين إن الكفار طلبوا من الرسول ستة أنواع من المعاجز ، فرد الرسول : سبحان الله ! ما هذا الذي تطلبون ؟ كيف تطلبون المعاجز ، وأنا لا قدرة لي على الاتيان بها ؟ .

وهذه الآية هي نفسها التي استدل منها المسيحيون على أن النبي لم تكن له معاجز وكذلك استند عليها عدد من المتنورين الذين قالوا إن المعجزة تنفع في عصر طفولة البشر ، ولما كان النبي ، في عصر بلوغ الفكر ، كان يمتنع عن الاتيان بمعجزة .

كـلاهما قـد جـانبـا الصـواب ، وهـا نحن نكشف عن الأمر .

سبق أن قلنـا إن المعجزة ليست مستحيلة ، عـلى اعتبار أن المستحيـل هو كـل ما لا يمكن حـدوثـه عقـلاً ، وحتى لمن كـانت له قـدرة غير متنـاهية ، يبقى المستحيـل ، مستحيـلاً ليس لأنـــه غـير قـــادر عليـه ، بـــل لأن الأمـــر غـــير ممكن الوجود ، إنـه العدم بـذاته ، الفـراغ نفسه ، فـالأمر الـذي حقيقته عدم الوجود ، لا يمكن أن يتحقق له وجود .

وعـليـــه ، فـــان طلب المـعجـــزة يختـلف عـن طـلب المستحيـل ، لأن المعجزة ، كـما قلنا ، هي وقـوع أمـر عـلى خـلاف النامـوس الطبيعي الجـاري ، ولكنـه بذاته ممكن الـوقوع بقـدرة خارقـة للطبيعة . هـذه نـاحيـة ، والنـاحيـة الأخـرى هي إننا قلنـا إن عـلى جميـع الأنبيـاء أن تكـون لهم معـاجز ، عـلى أنها آيات وأدلـة على صحـة دعـاواهم بـأنهم رسـل من الله . . . وهــذا يكفي ، ولكن هــل الأنـبيـــاء ملزمـون أن يحققوا للنـاس كل مـا يطلبـون ؟ لو كـان الأمـر كذلك لأصبحوا من المشعوذين والسحرة اللاعبين بالثعابين .

يـأتي الناس وقتـما مـا يشتهـون ويجلسـون أمـام النبي ، ويقولون : إذا كنت نبياً افعل لنا الشيء الفلاني الـذي نطلبه منك . ثم تأتي جماعة أخرى ، وهكذا . هذا استهزاء ! .

إن الـرسول يـأتي من المعاجـز بالقـدر الـذي يثبت إنـه رســول من الله . ومـا ان يلقي عليهم الحجــة حتى ينتهي الأمر ، ولن يرضخ لهم وإن ألحوا إلحاحاً شديداً .

وعـلى حد تعبـير العلماء ، فإن الأنبيـاء غـير ملزمـين أن يعملوا عـلى وفق اقتراحـات الناس . أي إن الأمـر ليس كما لـو كان طفـل يبكي ، فتحمله أمه إلى رسـول الله وتقـول : مـا دمت نبياً قـادراً على المعـاجز ، فحبـذا لو قمت بمعجـزة صغيرة تسكت بها هذا الطفل .

كـلا ، المعجزة دليـل يستـطيـع بهـا طـالب الحقيقـة أن يـدرك الحقيقـة أن يقبـل بمن يـأتيــه فيقـول : إذا أردتني أن أؤمن فاعطني كذا مقداراً من المال .

لقــد أتت الــرســل لكي يؤمن الــنــاس ، والايمــان والمسـاومة لا يجتمعـان ، بل إنهم يحثـون الناس عـلى البـذل والعـطاء ، أي إنهم يطالبـون النـاس بـأن ينفقـوا في سبيـل الله .

وإن ممــا يلفت النـظر هــو أنـه عــلى الـرغم من أنهم يـدعون النـاس الى الانفاق وإلى الجهـاد ، فـأنهم لا يتقبلون كـل أنواع الانفـاق . فعندمـا يـأتيهم من يقـول : أريـد أن أنفق مالاً فيما تأمرني به ، فاذا أحسوا أن إنفاقـه هذا يقصـد منه التبجح فلن يقبلوا منه ذلك ، أو إذا جـاء أحدهم وقـال

إني أريـد أن أكـون من جنـد الاسـلام يســأل عن دافعـه لـلإنخراط في سلك الجنـدية ، فيقـول لأني أحب أن يـذكـر التاريخ اسمي ، فانهم يطردونه قائلين لـه : ما هجـرت إلى الله . أي إنك تفتقر إلى الإخلاص والإيمان .

وعـلى ذلك ، يتضح معنى الآيات جلياً فالآيـة الأولى تقول :

﴿ لَـنْ نُؤْمِـنَ لَـكَ حَتّـىٰ تُفَـجِّـرَ لَـنَـا مِـنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً ﴾ .

ثمـة فرق بـين القول « لن نؤمن لـك » و « لن نؤمن بك » . فالشـانية تعني : نؤمن بـك والأولى تعني : نؤمن من أجلك .

فهؤلاء لم يقـولـوا : لن نؤمن بـك ، بـل قـالـوا : لن نؤمن لـك ، أي إننا لن نؤمن من أجلك وبعبـارة اخـرى ، يقـولون : إذا كنت تـريـد أن نصبـح من أتبـاعـك ، وهـذا طبعـاً في مصلحتـك ، فعليـك أنت أيضـاً أن تفعـل شيئـاً لمصلحتنا .

« حتى تفجـر لنا » الـلام تفيد الملكيـة المصلحية ، فمن الواضح إنهم كانوا يريدون جـريان العـين لمنفعتهم ، وليس هذا طلباً لمعجزة ، بل طلب لمعاملة مقايضة .

﴿ أو تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهارَ خِلَالَها تَفْجيراً ﴾ .

لا شك في انه لو كان للنبي في مكة بستان ذات نخيل وأعناب ، لما وزع ثمارها على الملائكة ، بل على أهل مكة . فهذا أيضاً ليس طلباً لمعجزة بل هو طلب مصلحي ، أي إنهم كانوا يريدون من النبي أن يحيل مكة إلى الطائف ، مكة التي لم يكن فيها ماء ولا بستان ، تتحول إلى مدينة مثل الطائف مليئة بالبساتين والأشجار والمياه .

﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسفاً ﴾ .

لو جاء أحد فطلب معجزة قائلاً إذا كنت صاحب معاجز ، فلتكن معجزتك أن تقتلني ! أفهذا طلب معجزة ؟ كلا ، إذ ما نفع المعجزة بعد أن يكون قد قتل ؟ .

يقول كفار قريش : إنك تقول إن السماء تسقط يوم القيامة على الأرض ، فاذا كنت صادقاً فافعل ذلك الآن . فلو حقق لهم النبي هذه المعجزة ، فاحترقوا جميعاً ، فما كان نفع ذلك لهم ؟ .

﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴾ .

وهـذا أيضـاً طلب المستحيـل ، إذ ليس من الممكن أن يكلم الله عبيده مباشرة .

بـل لو كـان الله مثل البشر بحيث يـراه الناس بـأعينهم ويسمعونه بآذانهم ، لما بقيت حاجة إلى إرسال رسول .

إن الله الذي يعرفنا على رسوله ، ولـه المشرق والمغـرب ﴿ أينما تولـوا فثم وجـه الله ﴾ هـو الأول والآخـر والـظاهـر والبـاطن ، ليس جسـماً ، ولا هـو في السـماء حتى ينقلوه إلى الأرض .

إنهم يـطلبـون أن يتحـول الله بشـراً ، وهـذا أيضـاً مستحيـل . وكذلـك الأمر مـع المـلائكـة الـذين ليسـوا من جسم مـادي ، فلا يـرون ، وإن كانـوا أحيانـاً يظهـرون في صورة أفرادٍ من البشر ، فيـراهم بعض الناس ، فهم ليسـوا من جنس البشر ، ولا من جنس المـادة حتى يمكن للجميـع أن يروهـم . فهذا أيضاً طلب غير معقول .

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ ﴾ .

هـذا أيضاً طلب مـادي جنوني محض . لقـد كانـوا من عبيد المال إلى درجة لم يكونوا يفهمون شيئاً غيره .

والـطلب الأخـير واضـح أيضـاً ، ولا يعـدو أن يكـون ذريعة ، إذ لو فرضنا أن الرسول جـاء برسـالة من السـماء ، لعادوا يقولون : إنك أنت الذي كتبتها .

على كل حال ، بعض هذه الطلبات جنونية ، وبعضها من باب الحمق وليس فيها ما يدل على طلب الحقيقة .

ولهذا يرد عليهم الرسول بأنه ليس سوى بشر مرسل اليهم . وما يطلب من الرسول ينبغي أن لا يكون جنونياً ولا أحمق .

إذن ليس الأمر كما يقول أولئك الكتاب ، بأن هذه الطلبات تشبه طلبات الأمم السابقة من أنبيائها ، وأن نبي الاسلام كان يمتنع عن الاتيان بمعجزة . كلا ، إذ لو كان طلب هؤلاء معقولاً وباحثاً عن الحق ، لما ردهم رسول الله .

وإذا ما تغاضينا عن كل ذلك ، نرى أن القرآن يذكر العديد من معاجز الأنبياء السابقين ، كنوح ، ولوط ، وهود ، وصالح ، وموسى ، وابراهيم ، وعيسى ، وغيرهم . يورد لهم معاجز متنوعة لا يعتورها الشك والتردد .

فهل يعقل ان يعدد القرآن هذه المعاجز للأنبياء ، ثم عندما يطلب من الرسول معجزة يقول انه مجرد رسول فحسب ؟ فلو كان الأمر كذلك ، لكان من حقهم ان يسألوا : أو لم يكن الذين ذكرت معاجزهم أنبياءً مثلك ؟ أوليست تلك معاجزهم ؟ .

إذن يتضح إن معنى الآية هو إن ما تريدونه ليس من نوع تلك المعاجز ، فلو كانت لحققتها لكم .

ثم على الرغم من أن القرآن هو نفسه معجزة ، وسوف نبحث في ذلك قريباً ، وهو منصوص عليه في القرآن ، أفلم تكن للرسول معجزة أخرى ؟ .

إن القرآن نفسه يشير إلى عدد من معجزات نبي الاسلام بصورة صريحة ، منها :

﴿ سبْحَانَ الّذِي أسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إلى ٱلمَسْجِدِ الأقصَىٰ ٱلَّذِي بارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنَا إنَّهُ هُوَ ٱلسَمِيْعُ ٱلبَصِيرُ ﴾(١) .

هذا قول صريح عن رحلة جسمانية غير عادية قام بها الرسول الكريم . أفليست هذه معجزة ؟ .

ففي الوقت الذي كانت فيه واسطة النقل هي البعير ، فلا طائرت (جت) ولا (جامبو) ، يسافر الرسول من المسجد الحرام إلى فلسطين في ليلة واحدة . فكيف يمكن تعليل هذا بغير المعجزة ؟ .

عندما نزلت هذه الآية قال كفار قريش ، ما دليلك على ما تقول ؟ فرد عليهم الرسول بأن وصف لهم القافلة

---

(١) سورة الأسراء ـ آية : ١ .

التي كانت في الطريق إلى مكة من الشام ، وأنهم قد أطرقوا في المكان الفلاني ، وقالوا كيت وكيت . فادركت قريش إنه مر بالقافلة .

ثم قصة انشقاق القمر :

﴿إقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ القَمَرُ وَإنْ يَرَوا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾(١)

٦ ـ إعجاز القرآن :

نعرف إن نبيّنا خاتم الأنبياء ، وإن دينه خاتم الأديان وخالد ، بل إن الرسل السابقين كانوا مقدمات ، ومراحل أولية ، إذ كان الانسان أيضاً يمر بمراحل ويخلف مراحل ، حتى يتهيأ للمرحلة النهائية ، وعند مجيء خاتم الأنبياء ، لن يكون نبي بعده ، ويبقى دينه خالداً إلى الأبد .

فلننظر ما سرّ ختم النبوة . ولكيلا ندخل في تفاصيل هذاالموضوع ، أصدرنا رسالة صغيرة تحت عنوان (ختم النبوة) إلا أننا نشير هنا إلى نقطة واحدة بهذا الخصوص .

إن الدين الخاتم للأديان يختلف عن الأديان الأخرى

(١) سورة القمر ـ آية : ١ .

في كثير من سماته . ومنها خصوصية معجزة الدين الخاتم للأديان ، أقصد معجزته الأصيلة .

معاجز الأنبياء السابقين كانت من المعاجز الطبيعية ، مثل إحياء الموتى ، تحول العصا إلى حية ، وآنفلاق البحر ، وأمثالها . . .

هذه كلها حوادث موقتة ، أي إنها تحدث في لحظة معينة ومكان معين ، ولا تبقى طويلاً .

فإذا تم إحياء ميت ، فان ذلك يتم في لحظة واحدة ، وقد يبقى حياً بضعة أيام ، ولكنه يموت في النهاية وينتهي كل شيء .

وإذا انقلبت العصا حيّة ، فهي تنقلب في بعض ساعة ، ثم تعود إلى ما كانت عليه .

إن معاجز الأنبياء السابقين من هذا القبيل ، بل إن إن بعض معاجز النبي أيضاً من هذا القبيل ، مثل الاسراء ، وانشقاق القمر ، فهي تحدث في ليلة وتنتهي .

ولكن بالنسبة لدين خالد يريد أن يبقى قروناً طويلة بين الناس لن تكفيه معاجز موقتة قصيرة العمر . إن ديناً هذا شأنه ينبغي أن تكون له معجزة خالدة أيضاً .

لذلك فان معجزة خاتم الأنبياء الأصيلة جاءت على هيئة كتاب . كان للأنبياء الآخرين كتب ومعاجز ، إلا أن

كتبهم لم تكن معاجز ، ومعاجزهم لم تكن كتباً .

كانت التوراة كتاب موسى ، ولكنه كان يقول إن كتابه ليس معجزة ، وإن معجزته غير التوراة .

ولكن معجزة رسول الاسلام كتابه على التخصيص ، ولا يعني هذا أنه لم تكن له معاجز أخرى ، بل يعني أن كتابه أيضاً معجزة ، وهذا من مستلزمات خلود خاتم الأديان .

ثمة نقطة أخرى هي الدين الخاتم للأديان ، ويعد أحد أسرار الختم ، فهو بالنسبة الى المراحل السابقة يعد بمثابة مرحلة التخصص النهائي لمراحل ابتدائية ، أي إنها المرحلة التي يكون للانسان فيها وجهة نظر .

فالطالب في مرحلتي الابتدائية والثانوية يستمع لكل ما يقال له ويتعلم ، ولكنه عندما يبلغ مرحلة الجامعة ، ويبدأ باختيار مراحل التخصص ، أي مرحلة الليسانس ومرحلة الدكتوراه ، عند ذلك يكون في مرحلة تكوين وجهة نظره ، والاجتهاد في فنه .

فمرحلة ختم الأديان ـ من حيث النظرة العامة للبشر ، لا من حيث النظرة الخاصة للفرد ـ هي مرحلة تكوين وجهة النظر .

وفي هذه المرحلة يكون للبشر شأن في المسائل الدينية

والاجتهاد . هل كان هناك مجتهدون في الأدوار السابقة ؟ كلا ، فكل ما يوجد في القرآن من تعابير عن الفقه والتفقه لم يكن له وجود في السابق بأي شكل من الأشكال .

إن ما يقوم به المجتهد اليوم بقوة العلم والاستدلال والاجتهاد ، كان من عمل الأنبياء في السابق ولكن لا بقوة الاجتهاد ، بل بقوة الوحي والنبوة .

في الحقيقة ، لم تكن في تلك الأديان أرضية للاجتهاد ، لأن الدين هو الذي عليه أن يهيء أرضية الاجتهاد ، أي إن الدين يجب أن يبين الأصول والضوابط الكلية . لكي يتمكن عدد من المتخصصين من الاستناد الى تلك الأصول والضوابط الكلية ، ويُعملون أفكارهم فيها لاكتشاف المسائل الجزئية .

ولما كانت الأديان السابقة بمثابة دروس أولية ، لم تكن تستطيع تبيان الأصول والكليات وشرحها لأن البشر لم يكن قد تهيأ بعد لتقبلها .

ثمة مقولة ترى إن هناك أنبياء مرسلين وغير مرسلين . الأنبياء المرسلون أولوا الشرائع والقوانين ، مثل ابراهيم وموسى ، وعيسى ، والأنبياء غير المرسلين هم التابعون الذين كانوا يبلغون شرائع اصحاب الشرائع ، إذ انهم لم يكونوا أنفسهم من أصحاب الشرائع .

إن مـا يقوم بـه المجتهدون اليـوم هو مـا كان يقـوم بـه الأنبياء غير المرسلين . طبيعي ان عمل المتجتهـد لا ينحصر بهـذا فحسب ، فهو بالاضـافة إلى كـونـه متجهـداً ، فـإنـه حـاكم شرعي ، وقـائد لـلأمة ، وآمـر بـالمعـروف ونـاهٍ عن المنكـر بـين النــاس ، والمصلح بينهم ، لأنــه المسؤول عن اصلاح المفاسد .

وهـذا ما كـان يضطلع بـه الأنبياء السـابقـون ، أمـا في هـذا الـدين الخـاتم لـلأديـان ، فلن يبعث رسـول جـديـد ليضــطلع بهــذا الأمــر ، وانمـا هو قد ألقي عــلى عــاتق المجتهدين .

ولهـذا قال الـرسـول الكـريم : علماء أمتي كـأنبيـاء بني اسرائيل . والمقصود طبعاً أولئـك الأنبياء الـذين كان عملهم يقتصر عـلى التبليـغ والتفهيم والتعليم والتـرويـج لشــريعـة موسى .

لـذلـك نحن نقــول إن الأدوار السـابقــة كـانت أدوار الوحي ، أي إنه كان على الأنبيـاء أن يقومـوا أيضاً بـالتبليغ والترويج ، ولكن في مـرحلة الدين الخـاتم للأديـان ، يقوم العلماء ، وليس الأنبيـاء ، بـالتبليــغ والتـرويــج واستنبـاط الكليات من الجزئيات .

فالعلماء ، إذن ، من هذا المنـظور ، وفي هذه الحـدود لا

أكثر ، هم خلفاء الأنبياء ، لا كل الأنبياء ، بل خلفاء الأنبياء المرسلين .

وجوه اعجاز القرآن :

يكمن اعجاز القرآن عموماً في جانبي القرآن اللفظي والمعنوي ، أي الجانب الجمالي والفني ، والجانب العلمي والفكري .

وبما ان مقولة الفن والجمال تختلف عن مقولة العلم والفكر ، فالجمال يرتبط بالفن ، والعلم بالاكتشاف ، فالعلم هو ما يكشف للانسان حقيقة من الحقائق ، والفن هو ما يخلق الجميل البديع .

لا شك إن للفن والجمال موضوعاتهما ومقولاتهما ، وواحدة من تلك الموضوعات هو الكلام . والحقيقة إن الانسان لا يسحره موضوع من مواضيع الفن بأشد مما يسحره الكلام الجميل .

لنا أن نقسم الجمال إلى قسمين : الجمال الحسي ، والجمال الذهني . والأول ينقسم ايضاً إلى سمعي وبصري .

فجمال الورد والحدائق يدخل ضمن الجمال البصري ، وجمال الصوت في المغني من الجمال السمعي .

فهل جمال الكلام من هذا النوع الأخير؟ كلا ، إذ أن جمال الكلام ليس من الجمال الحسي ، أصلاً ، بل هو من الجمال الذهني القادم عن طريق الحس .

ما أشد تأثير قصيدة رائعة أو قطعة نثر بديعة ! خذوا مثلاً نثر سعدي وشعره ، وهو يمازج بينهما في كثير من الأحيان ، فتراهما وقد احتضن كل منهما الآخر في تآلف جميل ووصف بديع بحيث أن « كَلستان » سعدي ما يزال يحتفظ برونقه وبهائه ، على الرغم من مضي سبعة قرون على موت مؤلفه .

فكيف حصل هذا ؟ إنه الجمال ، جمال الفصاحة والبلاغة .

هنالك شاعر آخر اسمه (القاآني) من معاصري سعدي نفسه ، ومن شيراز نفسها ، أراد أن ينافس سعدي في شعره ، بل كتب ديواناً مثل « كَلستان » سَعدي ، ولكنه لم يبلغ شأوه .

يقال أنه في احدى الليالي الشتائية كان نفر من الخلان قد اجتمعوا في دار أحدهم بشيراز متحلقين حول النار يستدفئون وينشدون الشعر ، فقرأ أحدهم قصيدة للشاعر سعدي ، حتى وصل إلى هذا البيت :

«أيتهـا السـماء اغلقي لحـظة نـافـذة الصبـح
بـوجه الشمس ، فـما اطيب الليلة مع قمـري»[1]

وكـان « القاآني » الشـاعر حـاضـراً ، فـانتشى وطـرب وقال : هذا الرجل لم يبق مـوضعاً لشـاعر ! وقـذف بديـوانه شعره في النار فاحترق ، وقـال : إذا كان هـذا هو الشعـر ، فليس لنا نحن أي موضع فيه .

وعليه ، قد يكون بعض الشعر عـلى درجة من العـذوبة والجمـال بحيث إن شاعـراً مثل « القـاآني » وهـو نفسـه من أساتذة الكلام ، يقع تحت تـأثير شعـر يحمله على الاعتـراف بعلو منزلة ذلك الشعر ، وبتدني منزلة شعره هـو . هذا هـو تأثير الكلام .

ما الذي أبقى على شعر حـافظ ، وشعر مـولوي ؟ إنـه جمال شعرهما ، إذ أن جمال الكـلام ، أو كما يقـول العلماء : الفصاحة ، والبلاغة ، والوضوح ، والايصال ، والابداع ، والجاذبية ، والسحر أمور لا يمكن إنكارها .

يتفق علماء اللغة ، والمطلعـون على لغـة القرآن ، وحتى الأجانب الذين درسوا اللغة العربية عـلى أن القرآن لا مثيـل

(١) بِبَنـد يـكْ نَفس آسمـان دَريجـهٔ صُبـح
بـر آفتـاب كـه إمشب خـوش است يـا قمرم

له من حيث الفصاحة والبلاغة والجمال .

فالقرآن يمتاز بصياغة خاصة ، فلا هو بالشعر ، ولا هو بالنثر ، مع إن كل العرب إما أن يكون شعراً أو نثراً . وكون القرآن ليس شعراً ، واضح لأنه يخلو من الوزن والقافية والمعروفين في الشعر القديم .

وبالاضافة الى خلو القرآن من الوزن والقافية ، فانه خلو أيضاً من أحد أركان الشعر الأخرى ، وهو الخيال ، إذ انه يشرح الأمور بغير أن يستعمل تعابير خيالية . ونقصد بالخيال تلك التشبيهات المبالغ فيها التي ترد في الشعر كثيراً ، حتى قيل : أحسن الشعر أكذبه ، فكلما ازداد فيه الكذب ازداد جمالاً ، كما يقول الشاعر فردوسي :

« من حوافر الخيل في ذلك الوادي الفسيح
غدت الأرض ستة والسماء ثمانية »

كل من يسمع هذا يقول : أحسن وأجاد . ولكن ما أكذبه ! أبالإمكان قول كذبة أكبر ؟ أيمكن بمجرد أن يركض عدد من الخيل في مكان ضيق ، ويعلو الغبار ، تزداد طبقات السماء السبع فتصبح ثمانية ، أو تقل طبقات الأرض السبع الى ست ؟ .

إنها لكذبة كبيرة ، ولكن الشعر لذلك جميل .

وثمة شاعر آخر يقول :

« يـا رب ، مـا عـين الحب هـذه التي أنـا
منهـا شـربت قـطرة مـاء فبكيت بـحـراً[1]
وقـام طـوفـان نـوح حيـاً من دمـع عـيني
مـع أني في حزني عليـك بكيت على حـذر »[2]

عـذب وجميـل هـذا ، ولكنـه عـذب بهـذا الكـذب . وطبيعي ، إن هذا ليس كذبـاً منهياً عنـه شرعـاً ، ولكنه فن ولـون من ألوان الـوشي في الكلام . ولكن القـرآن لم يقـرب هذا اللون من القول .

ثم إن هـذا الضـرب من المحسنـات الكـلاميـة يـلائم أنواعاً خـاصة من المـواضيع : في الحب ، في الحمـاسة ، في المدح ، في الهجاء ، أما في المواضيع المعنويـة فليس بامكـان أي شـاعر أن يـظهر فنـه ، وإذا حـاول بعض منهم ذلـك ، فسـوف يضـطر إلى البـاس المعنى لبـوس المـادة فيجسمـه ، ويتحدث عنه .

فمثـلاً ، إذا أرادوا الكلام عـلى المعرفـة ، جسموهـا في

---

(١) يـا رَب چه چشمـه ايستْ محبت كه من از آن
يـك قـطره آب خـودم ودريـا كـريستم

(٢) طوفان نـوح زنده شـد از آب چشم من
بـا انكـه در غمت بمـدارا كـريستم

زي « الخمر » أو إذا أرادوا القول في الله سبحانه ، عبروا عنه بخصلة الشعر ، أو في الغناء في الله والتقرب اليه ، يقولون :

الخرقة رهينة في مكان ، والدفتر في مكان آخر ، وأمثالها .

ولكن القرآن يتناول المعنويات بكل يسر وسهولة كالماء الرائق ، ويشرحها .

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ - اَلْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ - الرَّحْمَن الرحيم - مَالِكِ يَومِ الدِينِ - إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيّاكَ نَسْتَعين . . . ﴾ .

لا ريب ان كل مسلم يكرر هذه الآيات عشر مرات ، في الأقل ، يومياً وطول حياته ، ولكنه لن يضجر منها ولا يملّها لما فيها من العذوبة والرقة .

فالقرآن ، إذن ليس شعراً ، لأنه يخلو من الوزن والقافية ، بل بينت فيها الأمور بصراحة ، وبغير توسل بالخيال .

ولا هو نثر ، لأن النثر لا يمكن تلحينه ، وما أعجب ألحان القرآن !

أفهل رأيتم كتاباً ، دينياً أو غير ديني ، يقرؤه الناس بألحان مختلفة ؟ .

إن الكتاب الوحيد الذي يمكن أن نقرأه باللحن هو القرآن ، وهذا ما يعتبر الآن فرعاً من فروع العلم . فالآيات المختلفة تصلح لألحان مختلفة ، أي ان هناك الحاناً مختلفة لمعاني تناسبها . فاذا كان الآية للتخويف مثلاً ، اتخذ لها لحن يرعب القلب . وإذا كانت الآية تشويقاً وترغيباً ، وضع لها لحن يمنح الهدوء والاطمئنان .

إذهبوا إلى دنيا المسيحية بعظمتها ، واتساعها ، وإلى اليهود الذين يحتلون فلسطين ، فهي وان كانت رقعة صغيرة ، إلا ان اليهود متسلطون على معظم إذاعات العالم ووكالات أنبائه ، هل تسمعون الإنجيل والتوراة يرتلان ترتيلاً من وراء المذياع ؟ لئن قرأوهما باللحن لكانا مدعاة للسخرية ، ولا يطيقهما أحد . أو يمكن قراءة نثر سعدي باللحن ؟ .

هذا من مميزات القرآن ، لم تسبق لغيره باللغة العربية ولا من بعده .

من الأمور اللافتة للنظر هو ان جميع الذين حفظوا القرآن ، وعشقوه ، وهم أنفسهم كانوا من فصحاء زمانهم ، لم يستطيعوا تقليده حتى بسطرين اثنين .

لقد تقبلت الدنيا علياً (عليه السلام) فصيحاً بليغاً . وهذا ما تطرقت اليه في كتابي (جولة في نهج البلاغة) وقلت : كيف إن خمسين وثلاثمائة وألفاً من السنين تمضي

على علي (عليه السلام) وخطبه ـ مع إن أكبر الأدباء والفصحاء والخطباء كانوا في عصره وجاءوا بعده وذهبوا ـ وهي ما تزال باقية على عظمتها وروعتها .

إن الآية الأولى التي نزلت من القرآن ﴿ **إقرأ باسم ربك الذي خلق** ﴾ سمعها علي (عليه السلام) وهو في العاشرة أو الحادية عشر من عمره ، قبل ان ترتسم في ذهنه أية أفكار أخرى ، فكان استعداده للتلقي موفوراً ، وظل يستأنس بالقرآن طيلة حياته . لو كان أحد قادراً على الكلام مثل القرآن لكان علي بن أبي طالب (عليه السلام) أجدر الناس بذلك ، ولكننا مع ذلك ، عندما نضع نهج البلاغة إلى جانب القرآن نجدهما مختلفين .

إني ما زلت أتذكر أواخر أيام دراستي يوم كنت قد تعرفت على القرآن وعلى نهج البلاغة . ففي لحظة خاطفة تكشف لي الاختلاف الشاسع بينهما .

كنت قد قرأت نهج البلاغة . كانت إحدى الخطب تضم الكثير من التشبيه والاستعارة ، وهي من أبلغ خطب البشر وأفصحها . وهي خطبة كلها وعظ وتذكير بالموت وباليوم الآخر . انها خطبة مثيرة حقاً ، يقول :

« دارٌ بِالبَلاء مَحْفُوفَةٌ ، وبالغدر معروفة لا تدوم أحوالُها ، ولاِ يَسلَمُ نزالها ، أحوالٌ مختلفةٌ ، وتارات

متصرفة ، العيشُ فيها مذمومٌ ، والأمان منها معدومٌ ، إنما أهلها فيها أغراض مستهدفة ترميهِمْ بسِهامِها . . . »[1] .

وفي آية واحدة من القرآن نقرأ :

﴿ هُنالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَرَدُّوا إِلىٰ الله مَوْلاهُمُ الحَق وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانوا يَفْتَرُون ﴾[2] .

على الرغم من ان كلام علي (عليه السلام) يبلغ القمة من البلاغة ، ولكنك إذ ترى هذه الآية وسط كلامه ، تحس وكأن ماءً قد أريق على ما حولها من كلام ، فتبدو هي كالنجمة في ظلام الليل .

إن الأسلوب مختلف أصلاً ، وإن ما يحس به الانسان يستعصي على البيان ، فالآية تجسم يوم القيامة الى حد الجلاء الكامل ، وكيف إن ان العبد يعود الى سيده الحق ، من بين هذه الكثرة الكاثرة من الاسياد الباطلين .

كان عصر القرآن عصر الفصاحة والبلاغة ، أي إن كل فنون الناس كانت منحصرة في الفصاحة والبلاغة . وقصة سوق عكاظ معروفة ، حيث كانت العرب تقصدها

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة : ٢٢٧ .
(٢) سورة يونس ـ آية : ٣٠ .

في الأشهر الحرم ، يعرضون فنونهم من شعر وغيره . كان الشعراء يقدمون من مختلف القبائل ، ينشدون خير ما عندهم من شعر ،وما كان ينتخب كأحسن العشر كان يعلق على ظهر الكعبة فالمعلقات السبع المشهورة كانت تعتبر من أروع الشعر عند العرب ، وظلت طويلاً معلقة ، لأن احداً لم يأت بخير منها . ثم عندما نزل القرآن ، جاءوا هم بأنفسهم ورفعوها عن جدار الكعبة .

كان لبيد بن زياد من مشاهير شعراءالعرب ، ولكنه كف عن نظم الشعر بالمرة بعد أن نزل القرآن وأسلم ، وعكف على قراءة القرآن .

قيل له لِمَ لم تنظم الشعر بعد اسلامك ؟ .

فقال : لا أستطيع قول الشعر . إذا كان هذا هو القول ، فان كل ما قلناه كان كلاماً فارغاً . إن لذتي بقراءة القرآن لا تفوقها لذة .

في هذه الآية التي نحن بصددها ، يدعو القرآن الناس الى أن يأتوا بسورة مثل سوره ، وفي آية أخرى يقول ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ﴾ ويشمل الآية الواحدة أيضاً . أي إنه يقول : إن كنتم قادرين فهاتوا بآية واحدة من مثله .

ولكن على الرغم من أعداء القرآن الكثر ، سواء

الذين كانوا في عصره ، أم الـذين جاءوا بعـده ، فان احـداً منهم لم يستطع قبول هـذا التحدي . بـل حتى الذين جـاءوا في أيامنا هـذه ونسجوا اقـوالاً يعارضـون بها القـرآن ، فانهم عندما عرضوها على القرآن استبان خطل ما يدعون .

إذن فـاحدى وجـوه اعجـاز القـرآن هـو وجهـه الفني ، وهـو ما يصـطلح عليه بـالفصاحـة والبـلاغـة . إلا إن هـذا التعبـير يقصر عن ايصـال الحقيقـة ، لأن الفصـاحـة تعني الوضوح ، والبلاغة تعني الأبـلاغ ، إلا أنها لا تفي بايصـال المقصـود ، فيجب ان تضـاف اليهـما الجـاذبيـة التي تحكي سحر القرآن ، لأن القـرآن كان ينفـذ الى القلوب على نحـو خـاص عجيب ، بحيث كـان تـأثيـره سـريـع الـظهـور ، فيجذبهم نحو الايمان.

لقـد كان الكفـار ينعتون النبي بـالساحـر ، وهذا بحـد ذاتـه اعتراف ضمني بعجـزهـم عن الاتيان بـآية مثـل آيـات القرآن ، وهو دليـل على سحـره . فقد كـانوا يـرون شخصاً لا يحمـل أيـة عقيـدة ، مـا ان يستمـع الى القـرآن مـرة أو مـرتين ، حتى يقـع صريـع حبه والايمـان به . ولهـذا كانـوا يقولون انه السحر .

عندما كانت الأعراب تـدخل مكـة من الباديـة ، كانت تطوف بالكعبة حسب عاداتهـا ، فكان المشـركون يـوصونهم

أن يضعوا قطناً في آذانهم ، لكيلا يسحرهم الرجل الذي يخرج السحر في كلامه ، وكانوا يهيئون لهم القطن ، لكي يصموا آذانهم عن سماع القرآن .

واتفق أن جاء أحد زعماء المدينة يزور مكة ، فعرض له أحد المكيين يحذره من سحر محمد . يقول هذا الرجل : لقد حشوت أذني بالقطن حتى لم أكن لأسمع الطبول لو ضربت بقربي . ثم دخلت المسجد الحرام وأخذت أطوف . فرأيت رجلاً يتعبد ، لفتت ملامحه نظري ، ولاحظت شفتيه تتحركان ، ولكني لم أكن أسمع ما يقول .

وفجأة رحت أتساءل : ما هذا الذي قاله الرجل عن السحر ؟ ولماذا أصدقهم ؟ خير لي أن أنتزع القطن لأسمع ما يقول هذا المتعبد ، فاذا كان معقولاً في كلامه قبلته ، وإلا رفضته . فأخرجت القطن من اذني ، ودنوت منه ورحت أصغي لما يقول . كان يقرأ آيات من القرآن بصوت خفيض ، وكنت أصغي وأحس قلبي يلين حتى عشقت الرجل .

ويدخل الرجل الاسلام ويصبح واحداً من كبار المؤمنين في الاسلام . ويهيء الأمور لهجرة الرسول الى المدينة . بل إن بذر بذرة الاسلام في المدينة وهجرة

الرسول اليها يبدآن من هذه الجلسة[1] .

هذا التأثير هو السحر ، أو هو فن القرآن الجميل .

يتضح من تاريخ الأدب انه كلما تقادم الزمن ازداد نفوذ القرآن المعنوي في الأدب الاسلامي . أقصد ان الأدب العربي في صدر الاسلام ، أي في القرنين الأول والثاني ، كان موجوداً ، ولكن لم يكن للقرآن فيه ذلك النفوذ المطلوب ، ولكننا نجد هذا التاريخ يقع تحت سلطة القرآن بمضي الزمن .

من ذلك مثلاً تأثير القرآن في الشعر الفارسي الاسلامي . فالشاعر « رودكي » كان من شعراء القرن الثالث . وقد نظم كل شعره باللغة الفارسية . أي إننا لا نلحظ تأثر شعره بالقرآن كثيراً .ولكننا اذ نتقدم شيئاً فشيئاً إلى عصر فردوسي وبعده نلاحظ تأثيره القرآن بصورة أوضح .

وفي القرن السادس والسابع ، أي في عصر مولوي .

---

(١) هذه قصة أسعد بن زرارة وذكوان الخزرجي اللذين كانا قد قدما المدينة مبعوثين عن قبيلتهما ليعقدا حلفاً لمحاربة الأوس ، ولكنهما رجعا بقلبين مليئين بالايمان بالله واعدا العدة لهجرة الرسول .

نجد ان هذا لا حديث له إلا القرآن ، وكل ما يقوله تفسير للقرآن ، ولكن من منظور صوفي .

لقد كان ينتظر ان يكون هذا معكوساً ، أي إن تأثير أي أثر ادبي في عصره يجب ان يكون أكبر من تأثيره في آداب القرون التالية .

كان هذا بحثاً قصيراً في فصاحة القرآن وبلاغته ، أما القسم الثاني من اعجاز القرآن فيتعلق بجانبه المعنوي ، أي بمحتواه .

إذا نظرنا الى المباحث الإلهية في القرآن ، والى ما يقوله القرآن بشأن يوم القيامة والأنبياء السابقين ، وإلى رأي القرآن في فلسفة التاريخ وفلسفة الأخلاق ، لتجلت لنا عظمته .

تلك هي قضايا من صلب رسالة القرآن ، لأن القرآن ليس كتاباً طبياً ، ولا هو كتاب هندسة للبناء والطرق ، إنما هو كتاب رسالته أن يهدي الناس .

إن للقرآن وجوهاً أخرى من الأعجاز ، مثل الأخبار بالغيب ، أو التنبؤ بالمستقبل ، وانسجامه وعدم وجود أي اختلاف فيه . وكل واحدة من هذه جديرة بالأسهاب

والتفصيل ، ولعل العمر يمهلنا لكي نبحث فيها في جلسات تاليات[1] .

---

(١) ارى أن هذا لم يتحقق ، مع الأسف الشديد ، فقد تصاعدت الثورة الاسلامية في ايران ، وأمضى الشهيد كل وقته في اسناد الثورة وادامتها ، حتى بلغ أخيراً مراده بالشهادة في سبيل الله ، ونعم المراد .

الفهرس

كلمة المترجم ٧
كلمة الناشر ٩
الجزء الأول ١٣
معرفة القرآن ١٧
انواع معرفة القرآن ١٩
الأول : المعرفة السندية أو الانتسابية ٢٠
الثاني : المعرفة التحليلية ٢٥
الثالث : معرفة الأصل ٢٧
إصالات القرآن الثلاث ٣٠
شروط معرفة القرآن ٣١
ما معنى معرفة القرآن ٣٨
الفصل الأول :
معرفة القرآن تحليلياً ٤٩
كيف يعرّف القرآن نفسه ٥١
معرفة القرآن ٥٣
من يخاطبهم القرآن ٦٢

الفصل الثاني :
العقل في نظر القرآن ٦٩
دلائل كون العقل حجة ٧٠
١ ـ الدعوة الى التعقل ٧٠
٢ ـ الاستفادة من العلة والمعلول ٧٣
٣ ـ فلسفة الأحكام ٧٥
٤ ـ مكافحة شحطات العقل ٧٦
منشأ الخطأ في نظر القرآن ٧٩
الفصل الثالث :
القلب في نظر القرآن ٨٧
تفريق القلب ٨٨
مميزات القلب ٩٠
الجزء الثاني ٩٩
سورة الفاتحة ١٠١
ابتداء الأعمال بسم الله ١٠٤
ترجمة كلمة « الله » ١١٠
الرحمن الرحيم ١١١
الفرق بين الرحمن الرحيم ١١٢
الحمد لله ١١٤
الحمد يكون لله ١١٨
رب العالمين ١٢١
الرحمن الرحيم ١٢٥

مالك يوم الدين ١٢٨
إياك نعبد وإياك نستعين ١٣١
التوحيد النظري والتوحيد العملي ١٣٢
مالك يوم الدين ١٣٧
أصل كلمة عبادة ١٣٨
أنواع الشرك والتوحيد ١٤٠
حصر العبادات ١٤٥
ضمير الجمع ١٤٦
إياك نستعين ١٤٧
إهدنا الصراط المستقيم ١٥١
صراط الذين أنعمت عليهم ١٥٧
سورة البقرة ١٦١
وجه تسمية السورة ١٦١
الحروف المقطعة ١٦٢
ذلك الكتاب لا ريب فيه ١٦٨
هدى للمتقين ١٧١
انه هدى ١٧١
الذين يؤمنون بالغيب ١٧٣
ويقيمون الصلاة ١٧٥
ما معنى إقامة الصلاة ١٧٦
ومما رزقناهم ينفقون ١٧٧

هل يختص الإنفاق بالمال ؟ ١٧٧
فلسفة الانفاق ١٧٨
والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ... ١٨١
وبالآخرة هم يوقنون ١٨٢
أُولئك على هدى من ربهم ١٨٥
وأُولئك هم المفلحون ١٨٥
إن الـذين كفـروا ســواء عليهم أأنـذرتهم أم
لم تنــذرهم لا يؤمنون ١٨٥
الكفر ١٨٥
الإنذار ١٨٦
الكفر المقدس ١٩٠
ختم الله على قلوبهم وعلى أبصارهم غشاوة ١٩١
ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر
وما هم بمؤمنين ١٩٣
ما النفاق ١٩٤
يخادعون الله والذين آمنوا ١٩٨
وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ١٩٨
في قلوبهم مرضٌ فزادهم الله ٢٠٠
ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ٢٠٢
ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ٢٠٣
الجهل البسيط ٢٠٣

الجهل المركّب ٢٠٤
ويمدهم في طغيانهم يعمهون ٢٠٦
نظرية القرآن ٢٢٦
الأصالة للحق ٢٢٨
مثلهم كمثل الذي ٢٣٨
صم بكم عمي ٢٤٠
فهم لا يرجعون ٢٤٠
أو كصيّب من السماء ٢٤١
يجعلون أصابعهم ٢٤٢
يكاد البرق ٢٤٢
كلما أضاءت ٢٤٢
واذا اظلم ٢٤٢
ولو يشاء الله ٢٤٢
مخاطبوا القرآن ٢٤٥
رسالة التوحيد ٢٥٠
الشرك والتوحيد ٢٥٢
لعلكم تتقون ٢٥٣
وان كنتم في ريب ٢٥٦
إنكار معجزة القرآن إنكار للقرآن نفسه ٢٥٧
لغة القرآن ٢٥٨
١ ـ ما معجزة ؟ ٢٦٠

٢ ـ هل المعجزة ممكنة ؟ ٢٦٥
٣ ـ هل تقع المعجزة ؟ ٢٧١
٤ ـ كيف تثبت المعجزة صدق صاحبها ؟ ٢٧٣
الدليل الوضعي ٢٧٣
الدليل الطبيعي ٢٧٤
الدليل العقلي ٢٧٥
٥ ـ رسول الإسلام والمعجزة ٢٧٩
٦ ـ إعجاز القرآن ٢٩٥
وجوه إعجاز القرآن ٣٠٠
الفهرست ٣١٥